



التصوير السياحي

في القرآن الكريم

د. عبد الحلیم حفنی



التصوير الساجد في القرآن الكريم

د. عبد الحلیم حنفی

الهيئة المصرية
المسلمة للكتاب



الاخراج الفنى / محمد المحجوب

«سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

قرآن کریم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لن اعجب اذا استنكر أحد عنوان هذا الكتاب أو موضوعه ، فلم يخل جيل أو عصر من المستنكرين لنسبة الألفاظ يرونها غير لائقة في نسبتها الى الله كالسخرية والاستهزاء ، وقد رد الامام الزمخشري على هذا في أكثر من موضع في تفسيره المشهور (فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح ، والسخرية من باب العيب والجهل (١) الا ترى الى قوله تعالى :

[قالوا اتخذنا هزوا قال اعوذ بالله أن اكون من

الجاهلين]

فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه الذي يرمى اليه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، واندخال الهوان والحقارة عليه ، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك ، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وأزراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهيبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون (٢) .

على أن الأمر لم يكن في حاجة الى دفاع مدافع ، فان الذين يستنكرون نسبة هذه الألفاظ الى الله كأنهم يستنكرون تعبير القرآن نفسه ، ويستنكرون

(١) المراد بالجهل السفامة لأنها المعنى الأصلي للجهل في اللغة .

(٢) انظر تفسير الآية ١٤ من سورة البقرة في الكشاف (الله يستهزى بهم) .

ورودها فيه منسوبة الى الله ، فما أكثر ما وردت هذه الألفاظ فى القرآن منسوبة الى الله سبحانه ، والى أنبيائه ، والى الصالحين من عباده ، ومن أمثلة ذلك بالنسبة الى الله فى القرآن :

(سخر الله منهم)

وكذلك :

(الله يستهزئ بهم)

وإذن فيمكن ايجاز موضوع هذا الكتاب كله فى أنه محاولة لشرح كيفية استهزاء الله بأعدائه والسخرية منهم ، ولا شك أن هذا المعنى فيه قصور واضح فى الدراسات الاسلامية حول القرآن قديما أو حديثا ، فلا أعلم أن بحثا طرق هذا الموضوع الا كتابى السابق (أسلوب السخرية فى القرآن الكريم) ولكنى تبينت أن الكتاب لم يحقق كل ما كنت أهدف اليه ، فقد غلب عليه التركيز فى النواحي النظرية للسخرية وما أحاط بها من ملابسات تاريخية فى الاسلام ، بينما كان من أهم أهداف الكتاب إبراز السخرية نفسها وكيفية تصويرها وصياغتها من الناحية البيانية الأدبية ، وكنت أحسب أن القارئ العادى يستطيع أن يتذوق مضمون السخرية فى العبارات الساخرة فى القرآن ، وأن ترتسم فى ذهنه صورتها واضحة حين يستمع الى الصيغة التى صاغ بها القرآن سخريته .

ولكنى تبينت أن ايجاز القرآن ، ودقته البالغة فى اشارة كل كلمة ، بل أحيانا فى كل حرف تجعل السامع العادى وإن استوعب المعنى العام للصيغة الا أنه يحتاج الى من يشير له الى مواضع هذه الدقة البالغة ، حتى يستطيع أن يتذوق جمال الصورة ، ويستمتع بأدائها الفنى الزائد عن معناها الظاهر ، فقد كنت أحيانا أستشهد بالآية أو الجملة التى تتضمن سخرية ، مكتفيا بتوضيح السياق والملابسات ، متصورا أن هذا كاف لجعل القارئ يتمثل بناء الصورة الساخرة وهيكلها ، ومن ثم يتذوق جمالها ، ويستمتع بطرافتها ، ولكن الواقع أن هذا الجانب وهو صلب الهدف ، كان يحتاج الى مزيد من التوضيح وتحديد المعالم لكل صورة ساخرة ، وأمل أن يحقق هذا الكتاب بعض ما هدفت اليه .

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن هذا الكتاب لم يهدف الى استقصاء مواضع السخرية فى القرآن ، ولا الى حصر أنواعها أو أهدافها ، وإنما كان الهدف إبراز وجود هذا اللون فى القرآن ، وأنه لون واضح من أنواع أساليب القرآن العديدة المتنوعة ، ليكون هذا مجرد فتح لباب البحث والدراسة فى هذا المجال .

ويمكن ايجاز فكرة هذا الكتاب من حيث أهم جوانبها فيما يلي :
أولا :

استخدام القرآن أسلوب السخرية يشتمل على عدة مزايا وأهداف منها .

١ - اسباغ روح الطرافة على بعض ما يسرده القرآن ، حتى لا تمل النفس العادية من الاستماع اليه مهما طال استماعها ، وفي الحديث الشريف:

(روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القلوب
إذا كلت عميت)

والترويح يمكن أن يكون بالراحة ، وأن يكون بالتسلية ، وبأى شيء يخرج النفس من جفاف الواقع وحدته ، وهو منهج يتأسى به الخطباء والمعلمون والمؤلفون في لحوثهم بين الحين والحين الى ما يبعث في النفس بهجة أو انشراحا بطرفة أو فكاهة أو نحو ذلك حتى لا يمل السامع أو القارئ .

٢ - من منهج القرآن الواضح تنوع أساليبه في عرض المعنى الواحد ، فالقرآن كثيرا ما يعيد عرض بعض المعاني والأغراض ذات الأهمية الخاصة مثل العقيدة ، ولكنه غالبا ما يعيدها في أساليب متنوعة ، أحيانا في صورة معنى مجرد ، وأحيانا في صورة قصة ، وأحيانا في صورة حوار ، وأحيانا في صورة اغراء بوعد ، وأحيانا في صورة تخويف بوعيد ، وذلك لسببين ، أحدهما أن أهميتها تستدعي تكرارها ، ولو كررت بأسلوب واحد لمل السامع من تكرارها ، ولكنها حينما تكسى ثوبا مختلفا تصبح كأنها شيء جديد ، والسبب الآخر أن النفوس مختلفة في نزعاتها وميولها ، فبعض النفوس يستهويها المنطق العقلي المجرد ، وبعضها يستهويها أسلوب القصة ، وبعضها يجذبه صراع الحوار وهكذا ، فقد يستمتع بعض الناس الى شيء فيمل سماعه حين يعرض عليه في أسلوب عادي ، فاذا عرض عليه في صورة قصة شغفت نفسه بالسماع اليه وهكذا .

فهذا التنوع في العرض انما هو من باب الدعوة الى الله بالحكمة ، وليس من باب التكرار ، وقد يكون التكرار لتثبيت المعنى في النفوس حتى يتاح لها أن تواصل التأمل فيه ، فقد يكون من الأنسب حينئذ إعادة عرضه بلفظه ، حتى لا تشغل النفس بالصياغة الجديدة للمعنى عن عمق التأمل ، وهذا مما ورد في القرآن في المعاني التي تحتاج لأهميتها أن تكون ماثلة في النفوس بصفة دائمة .

٢ - سخرية القرآن سلاح فعال ذو أثر عميق بعيد ، ولكنه فى حقيقته سلاح دفاع وليس سلاح هجوم ، أما سلاح الهجوم فهو الدين نفسه ، حيث انه بطبيعته هجوم على الشر عامة ، وعلى الكفر بصفة خاصة ، فهو حرب على الشر والكفر ، والحرب لا بد أن يكون فيها طرفان ، ومن البدهى ألا يستسلم طرف الشر وأيضا الكفر مباشرة والا ما كان فى حاجة الى صراع وحرب ، فسيقاوم بكل ما لديه من قوة ، كما قاوم كل الأقوام أنبياءهم ، ولكن جبهة الشر والكفر فى العادة هى الأقوى اجتماعيا ، حيث ان الأديان لا تملك أساسا من القوة الا كونها على الحق ، وستضغط قوة الشر والكفر على الدين وأتباعه بكل ما تملك من قوة ، وهنا يأتى جانب من جوانب اعجاز القرآن ، وهو انه يتضمن أسلحة يطلقها على قوى الشر والكفر حين تضغط وتهاجم ، ومن بين هذه الأسلحة سلاح السخرية ، الذى لا يكاد يساويه فى خطورته وفى تأثيره سلاح آخر مادى أو معنوى .

ذلك أن السلاح المادى كالسيف لا يخيف الذين يتصدون للحرب لأنهم يعلمون مقدما أنهم سيواجهونه ، بل كان العرب وخصوصا شجعانهم يفخرون بأنهم يتمنون أن تكون منيتهم تحت ظلال السيوف ، ويخجلون أن يموتوا على فراش ، فالذين يتصدون للدين وخصوصا أئمة الكفر هم من هذا الطراز ، فلا يخيفهم السلاح المادى ، وانما تخيفهم كل الخوف السخرية ، ولذلك كانوا يتقون غضب الشعراء وهجاءهم بكل ما يملكون ، فسخرية القرآن اذن أنفذ وأعمق فى جبهة الكفر من أى سلاح مادى .

وكذلك الأسلحة المعنوية بكل أنواعها كالتهديد والوعيد والاقناع والتنفير وغير ذلك مهما تكن آثارها فانها لن تبلغ أثر السخرية وخصوصا فى مجال معروف للباحثين ، وهو مجال العادات والتقاليد ، فمما يلحظه الباحثون أن للعادات فى الشعوب رسوخا يفوق رسوخ أى شىء ولا يقاومه شىء ، ولذلك فهى كبرى العقبات أمام الأديان ، وأمام كل دعوة اصلاح ، ولكنهم يلحظون أيضا أن أنجح الوسائل فى زحزحة العادات والتقاليد هو أسلوب السخرية ، فانك مهما حاولت أن تقنع شخصا بمساوىء عادة ما كعادة الثأر مثلا ، فانه قد يقتنع نظريا ، ولكنه واقعا لا يستطيع التخلّى عنها ، ولكن أسلوب السخرية لو أحسن استخدامه فهو أنجح وسيلة فى جعل الشخص يتحاشى أن يجعل نفسه موضع سخرية الآخرين ومن هذا المنطلق يمكن أن يتزحزح عن مزاوله عادة من العادات .

والعادات التي يحاربها الدين هي نوع من الشر ، وأحيانا من الكفر ، كعبادة الأضنام ، واذن سخرية القرآن في هذا المجال لا ينافسها سلاح آخر .

٤ - سخرية القرآن تتميز بأنها ليست سببا ولا انتقاصا لذات الانتقاص كما يحدث في سخرية الناس وهجاء بعضهم بعضا ، وإنما هي معالجة لقضايا يهتم الدين بعلاجها بسلاح السخرية وغيره ، ودائما نجد السبب في السخرية من صلب الصورة الساخرة في القرآن ، فنفسور المشركين من الدعوة الى الله ، وعدم استخدامهم عقولهم ، قضية كبرى يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ويجعل من أساليبه السخرية ، ووقوف السادة عقبة أمام الدين وحائلا بين العامة والاتجاه الى الله قضية أخرى خطيرة ، يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ومن هذه الأساليب السخرية من القادة والزعماء ، وهكذا .

ثانيا :

أسلوب السخرية في القرآن من أبرز جوانب الاعجاز فيه ، حيث تتمثل الروعة الفنية في صورته من أى جانب نظرنا اليها منه ، ومن هذه الجوانب :

١ - الصورة الساخرة في القرآن تبرز أمام المتأمل وكأنها لوحة ناطقة كاملة ، وقد تشتمل الصورة على أكثر من منظر ، ولكنها في مجموعها تجسد صورة ناطقة بالهدف الذي يهدف اليه القرآن منها ، دون تجاوز هذا الهدف ، وتتركز قوة الصورة وتأثيرها في جوهرها وليس في الاعتماد على الألفاظ ، بمعنى أن الانتقاص من المسخور منه ينصب على جوهره وكيانه المعنوي ، دون الاعتماد على الألفاظ جارحة كما يحدث في سخرية البشر .

٢ - تمتاز الصورة الساخرة في القرآن رغم ضخامة مضمونها بقلّة ألفاظها ، فإن الصورة كلها أحيانا تنحصر في جملة واحدة ، أحيانا فعلية مثل :

[ولا تصعر خدك للناس]

فان هذه الجملة على ايجازها ترسم صورة بالغة السخرية من المختال المغرور حيث تشبّهه بجمل مريض بالصعر الذي يصيب الابل فيلوى أعناقها ، وأحيانا جملة اسمية مثل :

[أن شأنك هو الأبقر]

فانها ترسم للحاقد على شخص النبي صورة حيوان مشوه
يقطع ذنبه ، وأحيانا فى جملتين اثنتين ، نحو :
(كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة)

حيث تصور الجملتان نفور المشركين من الدعوة الدينية بقطع
من حمر الوحش فوجيء بأسد ففر القطيع مذعورا كل حمار الى جهة ،
وهكذا تبرز لنا نماذج واضحة من اعجاز القرآن فى ايجازه .

٤ - رغم معرفة المفسرين باشتغال القرآن على كثير من أساليب السخرية
والاستهزاء بأعدائه كما يؤكد ذلك الامام الزمخشري وغيره ، بل
كما يصرح القرآن نفسه ، فان منهجهم فى أغلب الأحيان عدم تطبيق
هذا عمليا فى مواضع السخرية ، بمعنى أنهم يحاولون غالبا أن
يتحاشوا شرح المعنى الساخر على أنه سخرية ، فيتجهون به الى
أسلوب الحقيقة ، فيظل المعنى الحقيقى غير واضح ، ويصبح كل
ما يقولونه غير مقنع ، لأنه ليس هو الهدف من التعبير ، وانما الهدف
السخرية والاستهزاء ، ومثال ذلك شروحاتهم وخلافاتهم حول :

(ان شأنك هو الأبر)

وما يتصل بالتعبير من سياق يسبقه ، وكذلك تعبير :

(فى جيدها حبل من مسد)

ولكننا حين ننظر الى مثل هذه الصور من زاوية السخرية التى هى
الهدف يصبح المعنى واضحا أبلج .

فكل هذا وغيره مما يتعلق بأهمية أسلوب السخرية فى القرآن ،
سواء من حيث أهدافه الدينية ، أو صياغته الفنية مما دعانى الى
خوض هذا الغمار الصعب ، وليست هناك صعوبة أشق من الكتابة
عن القرآن فى مسلك غير مطروق ، فاستغفر الله مما قد يزل به القلم ،
وأسأله جل علمه التوفيق .

سلاح السخرية

قد تبدو السخرية بين الناس فى صورتها الظاهرة ، وفى مضمونها القريب مجرد دعابة للمزاح أو التسلية أو اشاعة روح الفكاهة ، وقد يبدو الساخر مجرد امرىء فكه ، خفيف الظل ، يحب الدعابة ، وتسستهويه الفكاهة .

ولكن الأمر أبعد من ذلك بعدا غير يسير ، سواء من حيث مضمون السخرية ، أو من حيث شخصية الساخر .

مضمون السخرية :

فأما مضمون السخرية فمهما يكن نوعه أو شأنه فهو سلاح ، بمعنى أنه سلاح يوجهه الساخر نحو الشخص الذى يسخر منه ، أو الموضوع الذى يوجه اليه السخرية ، وهذا السلاح مصوغ فى أسلوب ، قد تشتد حدته وقد تلين ، ولكنه فى كل الأحوال محاط بهذا الغلاف المحبب الى النفوس ، وهو غلاف الفكاهة ، أو التصوير الطريف الذى يجد طريقه الى القلوب فى يسر وسهولة . فهو سلاح من أسلحة الحرب النفسية ، ولكنه من أشد أسلحتها خطورة وتأثيرا ، فالسخرية فى حقيقتها اذن سلاح ، والسلاح لا يتصور الا فى موقف العداة والخصومة ، بصرف النظر عن درجة العداة والخصومة ، غاية الأمر أنها سلاح يريد صاحبه أن يخفيه ، أو يخفى حدته وخطورته ، ومحاولة الاخفاء لا تقلل من أهمية السلاح وخطورته ، بل ان الرغبة فى الاخفاء تدل على تصميم صاحبها على الوصول الى هدفه ، وعلى ألا يترك للطرف الآخر فرصة لاتقاء هجومه ، لأن السلاح فى أغلب

الأحيان غير ظاهر فى السخرية ، حيث انها مغلقة بغلاف الفكاهة وروح
المرح . فالغلاف وسيلة ، والوسائل لا تتعارض أبدا مع الأهداف
ولا تناقضها ، بل هى دائما فى خدمة الأهداف .

وعلى سبيل المثال ، فان الذبح هو الذبح ، ولا يغير من نتيجته وهدفه
أن يكون الذبح بسكين حادة ، أو سكين مثلمة مفلولة ، وكل ما بينهما من
فرق هو الرحمة بالذبوح حتى يتحقق الذبح ، كذلك الشنق ، يستوى
فيه الخنق بحبل خشن ، وحبل من حرير ، والفرق بينهما هو الرحمة
بالمخنوق حتى يتم الاعدام ، وكذلك أقراص الدواء المر ، تغلف فى العادة
بطبقة حلوة المذاق ، حتى يستسيغها المريض ، ولكن هذه الطبقة لا تؤثر
فى مفعول الدواء ، ولا تقلل من نتيجته ، وهكذا دائما تكون الوسائل فى
خدمة الأهداف والنتائج .

والسخرية ليست الا وسيلة الى هدف ، فهى سلاح يراد به الطعن فى
شخص أو فى شىء معين .

الساخر :

وأما عن الساخر فكل انسان معرض لأن يكون فى موقف لا يرضيه ،
حيث يجد هذا الموقف مصطدما بمصلحته ، أو بعقيده ، أو بعاداته ، أو نحو
ذلك ، وقد يتفاوت شعوره بالتضرر من هذا الموقف تفاوتا كبيرا أو يسيرا ،
ولكنه فى أغلب الأحيان لا يخلو من أحد حالين ، اما أن يشعر بالعجز
عن اظهار سخطه فيطوى سخطه بين جنبيه ، ويكتمه فى قلبه ، أو يسر به
الى من يأنس اليه فى أحسن الأحوال لقدرته ، واما أن يشعر بالقدرة على
اظهار سخطه ، فيعلن هذا السخط ، وبعض الناس - وان كانوا قلة -
يجدون فى أنفسهم زيادة على اظهار السخط قدرة على رفض ما يسخطهم
وعلى التصدى له ، فيقاومون ما يسخطهم ، وهنا تختلف أساليب المقاومة ،
كل حسب استعداده ، وحسب الأسلوب الذى يناسبه فى المقاومة .

ومن أساليب المقاومة السخرية التى يعبر بها الساخر عن تحديه
لخصمه ، أو تعاليه عليه ، أو يعبر بها عن انكاره لوضع أو شىء لا يرضيه ،
فان السخرية عادة اما أن تكون من شخص ، واما أن تكون من وضع
غير مرضى ، وفى كلا الحالين تعبر السخرية عن موقف الساخر ، وعن درجة
سخطه وانكاره ، وعن مقدرته الفنية فى صوغ السخرية .

وفى تصنيف الموقف حينئذ قد يوصف الساخر من شخص بأنه خصم ،
والساخر من وضع أو شىء معين بأنه ناقد ، كما توصف السخرية نفسها
بأنها حرب نفسية ، وهذا الوصف الأخير يلقي ظلالة على وصف (الخصم)

من حيث أن الخصومة يتجه بها العرف عادة الى صورة العداء الصريح ، والصراع المباشر بين طرفين ، ولكن الخصومة فى الحرب النفسية تتخذ أشكالا وأساليب تختلف عن الخصومة المباشرة أو الصراع المحسوس اختلفا جوهريا ، رغم أن الاختلاف فى الشكل والأسلوب فحسب ، أما فى المنزع النفسى ، وفى الهدف فليس بينهما من اختلاف إلا أن يكون فى درجة العداء .

ولكننا نستخلص من مضمون الحديث عن الساخر أن موقفه ينبع دائما من قوة ومقدرة ليس على اعلان السخط والانكار فحسب ، وإنما المقدرة أيضا على المجابهة والمقاومة ، حيث تتمثل مجابته ومقاومته فى سخريته ، لأن سخريته سلاح وجهه الى موضوع السخرية ، وهى درجة اعلى بكثير من درجة الذين لا يستطيعون التعبير عن سخطهم ، بل هى مناقضة لها ، واعلى أيضا من درجة الذين يستطيعون اعلان سخطهم ، ولكنهم يكتفون بهذا الاعلان دون أن يستطيعوا توجيه طعن أو سلاح الى مصدر سخطهم .

وإذن فالسخرية لابد أن تنبع من مصدر قوة ، والساخر لابد أن يكون على درجة من القوة والمقدرة على المجابهة والمقاومة .

وهذا جانب من جوانب الحكمة فى تضمن القرآن أساليب السخرية وصورها التى يوجهها نحو الخصوم ، وذلك من جانبين :

١ - أحدهما أن القرآن الكريم يتضح فى كل منهجه (أساليبه التكامل) ، ومن ذلك أنه من المعروف أن الاسلام يمتاز بأنه يجمع بين الدين والدنيا بصورة أساسية وليست كمالية ، ومن تطبيق هذا عمليا أنه يدعو الى الله كما تدعو الأديان السماوية ، ولكنه يفترض كما هو الواقع أنه سيواجه بعداوة ومجابهة ، فلا يكتفى بالوضع الروحى ، وإنما يسلك سبيل الواقع بين الناس وهو الرد على هجوم الأعداء بهجوم آخر ، ويتفنن فى أسلحة دفاعه وهجومه كما يتفننون ، ومن هذه الأسلحة النفسية المألوفة بين الناس سلاح السخرية ، وتكون نتيجة التكامل حينئذ أن القرآن يتضمن الدعوة الى الله ، ويتضمن أسلحة الدفاع والهجوم ضد من يتصدون لها بالعداوة والمقاومة .

٢ - والجانب الآخر أن القرآن باستخدامه هذه الأسلحة ، ومنها سلاح السخرية يضع المؤمنين به فى موضع قوة دائمة مهما تذبذبت قوتهم العسكرية أو الاجتماعية ، فكما رأينا أن السخرية لابد أن تنبع من مصدر قوة ، فكذلك القرآن باشماله على السخرية من أعدائه يضع فى أيدي المؤمنين سلاح قوة ، ويفرس فى نفوسهم أنهم هم الذين

ينبغي أن يسخروا من أعدائهم ، ومعنى هذا أنهم دائماً فى موضع قوة ، وهذا المعنى تعززه كل أساليب القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى :

(فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون

والله معكم) (١)

والقرآن كلام الله ، أنزله سبحانه ليكون فى جانب من جوانبه سلاحاً للمؤمنين ، وأقول سلاحاً للمؤمنين وليس للمسلمين ، لأنه لا يستفيد من القرآن فائدة حقيقية الا المؤمنين به فى قلوبهم ، أما المسلمون بالسنتهم أو بأنسابهم فلن يستفيدوا منه هذه الفائدة ، ومن هذا القبيل يمكن أن يتضح السبب فى انعكاس راية الأمة الاسلامية رغم أن تعدادها اليوم يربو على الألف مليون ، بينما ترتفع راية المؤمنين منهم مهما قل عددهم أو عتادهم ، والأمثلة لذلك عديدة مشهورة ، منذ بدء الاسلام فى موقعة بدر حتى يومنا الحاضر فى مجاهدى أفغانستان ، وفى انتفاضة الحجارة الاسلامية فى فلسطين .

واذن فالسخرية لا بد أن تنبع من قوة ، والقرآن حين يستخدم أسلوب السخرية ضد أعدائه ، إنما يعطى المؤمنين به سلاحاً قوياً ، ويضع أقدامهم على موقع قوة .

الوان السخرية :

السخرية هى كل ما يؤدى الى الاستهزاء والتحقير ، وليس لها صورة أو سلوك معين ، فقد تكون بالاشارة ، كالنظرة المصحوبة بالاحتقار ، وبما يلبسها من وضوح هذا الاحتقار فى ملامح الوجه ، فلم يصدر حينئذ من الساخر قول أو فعل محدد يوصف بأنه سخرية أو احتقار ، ولكنها اشارة واضحة للدلالة . وقد تكون السخرية بالقول ، كما يعبر شخص بأسلوب لفظى معين عن سخريته واحتقاره . وقد تكون بعمل ، كما يفعلون باللص فى بعض البيئات البدوية ، حيث يكتفون حين يضبطونه متلبساً بالسرقة بأن يطلوه بلون معين ، من مادة كالجير أو الطين ، ثم يطوفوا به البلدة مشهرين به وهو على هذه الحال ، فهم لا يريدون بهذا العمل عقاباً بدنياً له ، وإنما يريدون تحقيره والاستهزاء به ، وهو عقاب نفسى أشد من أى عقاب جسدى ، ومن هذا القبيل عقاب الله لهذا الزعيم الذى اجتمعت له القوة فى جانبها الاقتصادى ممثلاً فى المال ، والعسكرى ممثلاً فى البنين

(١) سورة محمد ، وكونهم على الحق كان لكونهم الأعلين ، وعليهم أن يؤيدوا

هذه القوة المعنوية بقوة عسكرية مادية .

(أن كان ذا مال وبنين) فان العقاب في الآخرة لا حدود لبشاعته وقسوته ، ولكن الله يختار له عقابا لا يعد عقابا بدنيا ، وهو أن تجعل على أنفه علامة مثل الكى على أنفه ، فان الكى عندهم ليس عقابا ، بل هو علاج للأمراض ، ومن أمثالهم (آخر الدواء الكى) ولو علم أى مغاضب لله أن كل عقابه الكى على أنفه لطاب نفسا وقر عينا ، ولكن المراد عقاب نفسى لهذا الزعيم البالغ القسوة بتشويه أبرز موضع فيه ، وهو الأنف رمز العزة والشموخ ، وهو لا يستطيع اخفاء هذا التشويه والتحقير الا اذا أخفى شخصيته نفسها ، ففي القرآن الكريم عن عقاب هذا الزعيم ندى المال والبنين :

(سنسمة على الخرطوم) (١)

وإذا وازنا بين هذه الألوان من السخرية ، الإشارة والقول والفعل نجد أن القول هو أشد هذه الألوان تأثيرا وأمدما أجلا ، ذلك لأن الإشارة والفعل كلاهما وقتى يزول بزوال الحدث ، بمعنى أن كلا منهما ينتهى بانتهاى صورته ، سواء أكانت إشارة أم عملا ، ولا يبقى منهما الا ذكرهما ، والذكر نوع من القول ، وليس هو الحدث ، فلو سخر شخص من انسان بإشارة من عينيه أو شفثيه ، ثم لم يتحدث أحد بهذا ، لانتتهت السخرية بانتهاى موقفها ، ولا يبقى الا الانطباع الذى أحدثته فى نفوس مشاهديها وخدمهم . وكذلك لو فعل شخص بشخص آخر فعلا يجعله سخرية لمن يراه ، ثم لم يتحدث هو ولا غيره بهذا لانتتهت هذه السخرية بانتهاى الموقف ، ولا يبقى الا مشاهدة من يشاهد هذا الأثر ، أما غير المشاهدين فلا علم لهم ، وبالتالي فان أثر هذه السخرية محدود ومحصور فى المشاهدة الحسية وهى مهما اتسعت فانها محصورة على أوسع الفروض فى حياة صاحبها أو فى جيله . أما السخرية بالألفاظ أو صوغ فعل السخرية فى الفاظ فانه أوسع انتشارا وأطول عمرا ، ولتقريب هذا المعنى نضرب مثلا لشاعر يهجو الأعداء ساخرا ، فيصف أنهم فى الحرب أسروا أعداءهم ، ثم ساقوهم كما تساق الماشية ، فان سوقهم كالماشية استهزاء وسخرية بالأعداء ، ولو افترضنا أنهم كانوا قد فعلوا ذلك بالأعداء حقا ، ثم لم يتحدث الشاعر بهذا ولم يصفه ، لانتتهت هذه السخرية وهذا السوق للأعداء بانتهاى الحرب وتصفية حساباتها بينهم ، وأقصى ما يتصور من أثر هذه السخرية انتهاؤها بانتهاى الجيل الذى حدثت فيه ، طالما لم يتحدث بخبرها أو لم ينقلها أحد الى غيره ، ولكن حديث الشاعر جعلها تستمر حياة ليست لها نهاية منظورة ، وجعلها أيضا تنتشر انتشارا ليس له حدود منظورة . فالسخرية بالقول اذن أوسع انتشارا وأمد أجلا .

ومن هذا القبيل سخرية القرآن من هذا الزعيم الموسوم على أنفه ، فإن هذه السخرية فى حقيقة أمرها سخرية بالقول وليست بالعمل ، لأن هذا العقاب النفسى لم يحدث بعد ، وإنما سيحدث يوم القيامة ، فأيراده فى القرآن من قبيل التصوير الساخر ، وليس العمل الساخر .

والعرب منذ بداوتهم الأولى قبل الاسلام كانوا أعرف الشعوب بقيمة الكلمة ، ولذلك كانوا أحرص الشعوب على الاهتمام بالكلام وتضمينه كل خبراتهم ومواهبهم ونزعاتهم على اختلاف ألوانها ، وهذا السياق الذى نتحدث عنه وهو القول المتضمن اساءة كانوا يحذرونه أشد مما يحذرون أى شيء ، ومن أمثالهم المشهورة (اتقوا مآثور الكلام) أى احذروا الكلام الذى يتضمن اساءة اليكم ، سواء أكان صادرا منكم ، أم صادرا ضدكم ، ومعنى المآثور أى الذى يبقى ويتناقله الرواة ، ولذلك كانوا ينفرون من الكذب ، لا لأنه عيب خلقى فحسب ، بل لأنه يبقى عادة بعد صاحبه ويرويه الناس عنه فيصبح أثرا .

ومن الواضح أن كل ما فى القرآن من سخرية إنما هو سخرية بالقول ، وأوضح منه أن القرآن يختلف عن سائر القول اختلافا شديدا ، سواء من حيث الانتشار ، أو من حيث البقاء ، أو من حيث مستوى الصياغة .

أهداف السخرية

من الواضح أن السخرية سلاح نفسى ، ولكنه اذا قيس بغيره من الأسلحة النفسية فانه سيكون أشدها تأثيرا اذا أحسنت صناعته ، وأحسن استخدامه ، وصناعته هي دقة الصياغة ، والجاحظ يفيض فى ابراز أهمية الصياغة فى مجال الفكاهة بالذات ، وأن الفكاهة البالغة التأثير قد تفقد روحها وتأثيرها اذا ألقيت بأسلوب آخر غير مناسب أو غير دقيق ، والسخرية هي نقد أو طعن مصوغ فى ثوب فكاهة ، أو فى ثوب فكه .

وغنى عن البيان أن القرآن هو القمة غير المنازعة فى دقة الصياغة ، ومن الأغنى عن البيان أن صانع هذه الصياغة هو العليم بطبائع النفوس ، وبأبلغ الوسائل فى التأثير فيها ، وهو الله سبحانه .

والقرآن حين يستخدم السخرية سلاحا فانه يحقق بذلك هدفين لا هدفا واحدا ، أحدهما ضد الأعداء ، والآخر لخدمة المؤمنين :

أولا :

أما ما يتعلق بالأعداء ، فاذا أردنا أن نعرف مدى تأثير السخرية فى الخصم فعلينا أن نلقى نظرة من الناحية النفسية لنحاول أن نستشف مدى تأثير السخرية فى النفس ، وذلك أننا حين نسخر من شخص انما نكون فى

حقيقة الأمر قد هبطنا بدرجة ومنزلته الى درجة شديدة التدنى ، لأن السخرية ليست الا تحقيرا واستهزاء واستخفافا بالمسخور منه ، وهذه المعانى أشد ما يصيب المرء ذا الكرامة والمروءة ، فهى أشد ايلاما للكريم النفس من أى أذى جسدى أو مادى ، والكريم لا يتردد فى التضحية بمصلحته أو ماله أو حتى بحياته فى كثير من الأحيان ليتفادى موقف هوان يشعر بأنه سيزرى به ويحط من قدره ، لأنه يرى أى ايلام أخف من الايلام فى كرامته وعزة نفسه ، والشاعر النميرى القديم يعبر عن هذا فيقول فى هذا المعنى الرائع :

نعرض للطعان اذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

فالطعن بالسلاح ولو كان فى الوجه أيسر من التعرض للهوان ، بل ان التعرض للهوان غير وارد أصلا فى احتمالات الشاعر ، والسخرية أوجع ألوان الاهانة

وخطورة السخرية أنها تتجه الى جوهر الشخصية ، بما تتضمن هذه الشخصية من كرامة وكيان اجتماعى ، ولو كان اتجاه السخرية اتجاه عداوة تقليدية عادية لكان أخف وطأة مهما يبلغ الضرر ، ولكنه اتجاه احتقار ، والفرق بعيد بين العداوة والاحتقار ، فانك قد تعادى شخصا بأى صورة من صور العداوة ، وقد تبلغ كراهيتك اياه أى مبلغ ، ولكنك مع ذلك فيما بينك وبين نفسك تحترمه ولا تحتقره ، وتجد نفسك تقديرا واكبارا له ، وقد تعترف بفضائل له رغم كرهك اياه ، ورغم تمنيك أن تنزل به أى ضرر أو هزيمة ، ولكنك حين تحتقر شخصا فمعناه أنك نزلت بقدره ، وأنت لا تشعر نحوه باحترام ، وانك لا ترضى بأن يكون ندا لك أو مكافئا ، أما العداوة فان الأصل فيها التكافؤ والتقارب بين الخصمين ، والا لما وصفت بأنها خصومة أو عداوة .

واذن فالعداوة فى حقيقة أمرها ليست الا مشاعر وعواطف لكلا الطرفين نحو الآخر ، ولكنها مشاعر سخط وانعدام مودة ، وهذه المشاعر لا تتضمن حكما على الطرف الآخر ، ولا تقويما له ، أما الاحتقار فهو حكم على الطرف الآخر بأنه لا يحمل من الخلق أو الصفات ما يؤهله للاحترام والتقدير .

واذا نظرنا الى نفسية المسخور منه حين يجد نفسه قد وضع فى هذا الوضع المهين ، سزرى مدى الايلام النفسى له ، وهذا مما تهدف اليه سخرية القرآن ازاء أعداء الله .

فان سخرية القرآن تلاحق أعداء الله فى كل موقع فيحط من قدرهم حطاً مزرياً من شأنه أن يحطم قوتهم المعنوية ، فحينما يكون أعداء الله فى موقع

العقيدة مثلا ، فان سخرية القرآن تصورهم فى صورة مزرية متنوعة التحقير ، تنصب أساسا على الاستهزاء بعقولهم وأفكارهم ، و اذا كانت أساليب القرآن فى بعض ألوانها تجعل من بعض أعداء العقيدة أعداء تحاورهم وترد على أفكارهم ، فان أسلوب السخرية فى القرآن لا يسمح لمن توجه اليهم بأن يرتقوا الى درجة العدا ، بل ولا الى درجة الآدمية فى بعض الأحيان ، انما تصورهم فى صورة الماشية أحيانا ، وفى صور أسوأ منها أحيانا ، ولنا أن نتصور نفسية من يجد نفسه مصورا فى صورة ماشية ، أو ماشية وضعها أسوأ من سائر المواشى ، وحينما يكون أعداء الله فى موقع التعالى والقيادة الضالة ، فان سخرية القرآن تصورهم فى صور شتى ، كلها تنزل بهم ليس الى مرتبة الأشخاص العاديين ، وانما الى مرتبة بالغة السوء ، يأبى أن يكون فيها أقل الناس شأنًا ، كما سنرى من ذلك فى مواضعه وهكذا .

• واذن فالسخرية تحقير وتهوين .

و حينما يكون المسخور منه فى وضع الخصومة كوضع الكافرين مع المؤمنين ، فان المسخور منه سيكون فى الوضع الأدنى والأضعف نفسيا ، وهذه نتيجة بالغة الأهمية فى الحروب النفسية ، فان الهدف الأساسى لأى حرب نفسية هو اضعاف نفسية الخصم ، وجعله يشعر بأنه فى المرتبة الأدنى والأضعف ، وهذه هى الهزيمة فى الحرب النفسية ، وهى بداية الهزيمة ووسيلتها فى الحرب العسكرية .

• وهذه النتيجة هى التى يريد القرآن أن يضع فيها أعداء الله .

ثانيا :

فيما يتعلق بالمؤمنين عرفنا من العرض السابق أن السخرية لا تتبع الا من مصدر قوة ، بل ومن شعور بالقدرة على المقاومة ، لأن السخرية نفسها من المقاومة ، لأن الخلاف فى العقيدة ، أو فى الرأى ، أو فى أى اتجاه ، حتى ولو كان تنافسا بين طرفين ، كل ذلك يعد نوعا من الخصومة بين طرفين أو أطراف ، فالطرف الذى يسخر من خصمه انما يوجه اليه طعنا بسلاح من أسلحة الحرب النفسية ، والطعن بأى سلاح ، وأى أسلوب معناه أن الطاعن لديه قوة وقدرة على المقاومة .

والقرآن يريد لكل مؤمن أن يكون قويا ، كما يقول النبى صلى الله عليه

وسلم :

(المؤمن القوى خير وأحب الى الله من

(المؤمن الضعيف)

وكل اتجاه فى القرآن يحفز المؤمنى الى التشبث بالقوة ، ولا يقال انه يدعوهم الى القوة مجرد دعوة ، لأن القرآن يشير الى المؤمنى فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب أنهم أقوىاء فعلا ، وما عليهم الا أن يتمسكوا بهذه القوة ويستغلوها فى سبيل الله ، والفرق كبير بين أن يدعوهم الى القوة ، بما معناه أن القوة ليست موجودة لديهم ، وبين أن يدعوهم الى التشبث بالقوة ، فان معناه أن القوة موجودة ولكن يمكن أن يفقدوها اذا فرطوا فيها .

والقوة الموجودة لدى المؤمنى حقيقة ، وهى تعتمد على أكثر من أساس ، وليس على أساس واحد ، ومن هذه الأسس :

١ - كونهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فان هذا الشعور يمثل قوة راسخة فى النفس ، تمد صاحبها بمشاعر التفوق والعلو ، ومن المعروف أن شعور أى طرف بأنه يملك حقا يدافع عنه هو السبب الأقوى فى الانتصار ، وهو ما يعبر عنه بالقوة المعنوية فى الحروب والصراعات ، وعلى العكس من ذلك فان فقدان الشعور بالحق يجعل نفسية صاحبه خائرة لأنها لا تركز فى الصراع على أساس ثابت ، وكان هذا الطرف يسائل نفسه حينئذ : علام أصارع ؟ وما الهدف الذى أسعى اليه فى هذا الصراع ؟ واذا كان الهدف باطلا أو زائفا فهل يستطيع هذا البطلان وهذا الزيف أن يصمد امام موقف خصمى صاحب الحق ؟ ونحو ذلك من الخواطر التى لا بد أن تراود هى أو شىء منها نفس صاحب الباطل فتضعف موقفه ، وتضعف مقاومته ، ومن محيط هذا قوله تعالى يخاطب المؤمنى :

[فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم

الأعلون ٠٠٠] (١)

فان علو المؤمنى قد تكون له جوانب كثيرة ، ولكن أقوى هذه الجوانب بل أساسها أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، واذا قيل فان صاحب الباطل قد يعتقد أنه على حق ، فالجواب أن الحق اذا كان واضحا فان وضوحه اظهر لبطلان الباطل ، أو على الأقل تشكيك فى موقف الباطل ، وفى هذا الأسوأ من الفروض وهو الشك فان الحق الظاهر سيكون هو الأقوى لأن ظهوره ووضوحه يجعله حقا متيقنا ، بينما الشك فى أحقية موقف الباطل ضعف وبداية انهيار ، والنتيجة أن الحق هو القوة النفسية ، أو على أهون الفروض هو

الأقوى ، والايمان هو الحق الواضح ، فكان من المنطقي أن يكون المؤمنون كما وصفهم القرآن هم (الأعلون)

٢ - ومن أسس القوة فى موقف المؤمن شعورهم بتأييد الله اياهم ، وقد لا يكون هذا المعنى واضحا أو مقنعا لغير المؤمن ، بل قد يراه الملحد وهما وخيالا ، ولكن الواقع والتاريخ كلاهما يثبت أن قوة الايمان لا تعدلها قوة ، وان قوة الصمود والمقاومة النابعة من الايمان لا تدانيها قوة ، ومن الواضح أن أساس هذه القوة فى نفس المؤمن شعوره بأن الله معه ، وأن موقفه انحياز الى جانب الله ، ومن ذلك نجد المواقف التاريخية المشهورة من المؤمنين فى كل الأديان ، والتي لم يتردد المؤمنون فيها فى احتمال أبشع ألوان العذاب ، وأشد أنواع الألم ، وفى بذل الحياة تمسكا بجانب الله ، وحرصا على رضاه ، ومن أشهر هذه المواقف موقف ايمان السحرة من طغيان فرعون وكفره ، حين هددهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلف ، وبصلبهم على جذوع النخل ، وبالموت ليعودوا الى الكفر ، فاذا هم يجيبونه ساخرين :

[لا ضير انا الى ربنا منقلبون] (٢)

بمعنى أن كل ما تهددنا به وأشقه على النفس الموت لن يضرنا ولن يغير من الواقع ، والواقع أننا لابد أن نرجع الى الله بالموت ، فأنت لن تفعل أكثر من هذا ، وحين يعذبهم فرعون بأى أنواع من العذاب مهما قست ، وحين يقتلهم بأية صورة من القتل مهما بلغت بشاعتها فقد يبدو لبعض السانجين أن فرعون انتصر ، والحقيقة الواضحة عكس هذا ، فان الصراع بين الطرفين ليس حول التعذيب أو الموت ، بمعنى أن هدف فرعون الواضح ليس هو التعذيب أو القتل لذاتهما ، فهما محض وسيلة الى الغاية ، أما الغاية الوحيدة له فهي خضوعهم واستسلامهم لما يطلب منهم وهو الكفر ، والنصر والهزيمة ، انما يدوران حول هذا الهدف ، فاذا خضعوا فانهم يكونون قد انهزموا ، ويكون فرعون المنتصر ، واذا لم يخضعوا فان فرعون هو المنهزم ، وهم المنتصرون ، وقد انتصر السحرة انتصارا مدويا باصرارهم على موقفهم وتحديهم فرعون حتى الموت ، فمن أين جاءت هذه القوة للسحرة الذين أتوا وكل ما يتمنونه ارضاء فرعون بانتصار سحرهم ، واقصاه أن يمنحهم على انتصارهم أجرا ؟ ومن البدهى أنهم لم يكونوا يملكون حينئذ الا الايمان بالله ، ومن بدهيات الايمان استشعار

المؤمن أنه في جانب الله وأن الله في جانبه ، وهذا التجاوب مع القوة الهائلة التي لا تحد وهي قوة الله تنتج عنه لدى المؤمن قوة هائلة لا توصف ، كهذه القوة التي تحلى بها السحرة حين انحازوا الى جانب الله .

وهذا المعنى - وهو قوة المؤمن النابعة من انحيازه الى جانب الله - يتكرر في القرآن كثيرا بأساليب مختلفة يغلب عليها المجاز ، ومن ذلك هذه الاشارة في الآية السابقة :

[فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون

والله معكم] (٣)

فاذا كان أساس هذه القوة وهذا العلو هو كونهم على الحق ، فان هذا الحق هو الايمان بالله ، والايمان بالله معناه أن المؤمن في جانب الله ، ومن كان في جانب قوة الله الذي لا يغالب فلا بد أن يكون هو الأقوى ، ولكن القرآن يزيد هذا المعنى وضوحا في تعبير (والله معكم) .

ومن ذلك أن الله سبحانه حينما أرسل موسى وأخاه هارون الى فرعون ، وهما يعلمان أن فرعون يملك كل أسباب القوة ، وهما لا يملكان من أسبابها المادية شيئا ، فان الله يعطيها قوة تفوق قوة فرعون وكل قوة ، هي الانحياز الى جانب الله ، أو (معية الله) ويضمن لهما التفوق بمجرد هذه (المعية) دون أن يصدر من الله أى شئ مادي ضد فرعون حينئذ ، ففي القرآن عن هذا :

[قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى] (٤)

فمجرد معية الله بما يترتب عليها كاف في تحقيق (لا تخافا)

وهذا الحديث ليس استطرادا ولا ابعادا عن صلب الموضوع ، فان صلب هذا المعنى الذي نتحدث فيه هو أن القرآن يضع المؤمنين دائما موضع القوة ، ويعطيهم من الأسلحة ما يدعم هذه القوة ، ومن هذه الأسلحة سلاح السخرية ، فالقرآن كلام الله ، ولكنه في الوقت نفسه لسان المؤمنين وسلاحهم ضد خصومهم ، فحين يسخر القرآن من أعدائه ، فهي أيضا سخرية المؤمنين من هؤلاء الخصوم ، فيكون المؤمنون حينئذ من الناحية العملية هم الساخرين .

(٣) ٣٥ سورة محمد .

(٤) ٤٦ سورة طه .

ومن تكرار القول أن السخرية لا بد أن تتبع من قوة ، واذن فالساخرون وهم المؤمنون أقوياء ، وهذا مما يستهدف القرآن أن يحققه للمؤمنين في خصومتهم مع الشرك والمشركين ، ومع كل من يعاديهم .

النتيجة :

مما يعرفه علماء الاجتماع أن السخرية من أنجح الوسائل في تغيير العادات والتقاليد ، ومعنى ذلك أن أسلوب السخرية يتضمن قوة هائلة في التأثير النفسي والاجتماعي ، لأنه من المعروف أن للعادات والتقاليد سلطانا اجتماعيا يصفونه بأنه أقوى من سلطان الدين والقانون معا ، ويضربون مثلا لهذا السلطان بعادة الثأر ، فان المجتمع الذي يزاولها يعلم أنها مخالفة للدين وللنانون ، ومع ذلك لا يستطيع التخلي عن مزاولتها لأن سلطانها أقوى من أى مؤثر آخر ، وكون السخرية تبلغ من قوة التأثير أن تنتصر على العادات والتقاليد فانها تكون في درجة هائلة من القوة ، رغم أنها تبدو في صورة فكاهة أو مرح ، ولكن الواقع أن صورة الفكاهة أو المرح لا تقلل من تأثيرها ، بل لعلها من أهم عوامل تأثيرها ، حيث تدفع النفوس الى تقبلها ، ثم الى تداولها ، ثم عدم الملل من تكرارها والمحافظة عليها ، كالطبقة الحلوة المذاق التي تغلف بها أقراص الدواء المر ، فان هذه الطبقة لا تقلل من تأثير الدواء ، بل هي التي تجعل المريض يتقبل هذا الدواء ، وهناك معنى بالغ الأهمية في تأثير السخرية ، وهو أن الفكاهة محببة بطبيعتها الى النفوس وصوغ النقد أو الهجوم بروح الفكاهة كالسخرية مما يجعل النفوس تسرع الى تقبله ، ومن هذا تنتشر السخرية وتتداولها الألسنة على نطاق واسع بمقدار مقدرة صانع السخرية على حسن صوغها ونسجها ، وعلى سبيل المثال لو وازنا بين الهجاء بأسلوب عادى ليست فيه صياغة فنية طريفة ، أو بين اهانة أو شتائم توجه الى شخص لتحقيره والاساءة اليه ، وبين المعنى الذي هجا به الشاعر هذا الشخص ، أو الشتائم التي وجهت الى هذا الشخص ، فس نجد الفرق هائلا من حيث التأثير ودرجته ، فان الهجاء أو الشتائم مهما تبلغ من الاساءة الى شخص أو جهة ، فانها لا تنتشر الا بين الذين يعينهم هذا الشخص المهجو ، أو يعينهم الموقف نفسه ، أما حين يصاغ المعنى نفسه في أسلوب سخرية ، فان كل النفوس تحرص على سماع هذه السخرية اذا كانت مصوغة في صورة فنية جيدة ، لأن النفوس حينئذ لاتعنيها الاساءة الى هذا الشخص ، ولا يعينها الموقف ، اذاته ، وانما يعينها أن تستمتع بطرافة صياغة هذه السخرية ، فتحرص على سماع السخرية لذاتها بصرف النظر عن قائلها ، أو عن توجه ضده .

وتطبيق هذا بالقياس الى سخرية القرآن ، أن القرآن الكريم هاجم أعداء بأساليب عديدة ، بأسلوب الاستنكار العادى ، وأسلوب التسفيه

لمواقفهم وسلوكهم ، وأسلوب القصة التي تحكى مواقف منكسة تماثل
مواقفهم ، وهكذا ، ولكننا نستطيع أن نتصور أن كل هذه الأساليب انما
يتدبرها ويقف عند مضمونها المؤمنون بالقرآن ، والذين هم منحازون الى
حزبه ، أما حين يصاغ الهجوم على أعداء الله فى صورة سخرية ، فان
انتشار هذه السخرية ، والحرص على سماعها وتناقُلها سيكون على وجه
البقين أوسع كما وأعقق كيفا من أى أسلوب آخر ، بل ان كثيرا من أعداء
الله أنفسهم سيحرصون على سماع هذه السخرية لطرافتها ، ثم ان الذى
يسمع الهجاء العادى أو الشتم يمل سماعه مرة أخرى ، بينما لا يمل
تكرار سماع طرائف السخریات .

ولكن الأهم من هذا كله فى تأثير السخرية هو جانبها النفسى داخل
نفسية من توجه اليه السخرية ، فلا شىء يهز كيان الشخص ، ويحطم من
قوته المعنوية كما يهزه شعوره بأنه أصبح سخرية لأحد ، ونستطيع أن
نوازن بين شخصين ، أحدهما يتعرض للموت فى موقف حرب أو مبارزة ،
وشخص يتعرض لسخرية الآخرين من حوله ، ولا شىء غير السخرية ، فان
الذى يتعرض لمواجهة الموت قد يظل قويا متماسكا لشعوره بأن الناس من
حوله ينظرون اليه برضا أو اعجاب بموقفه ، بل ان هذا الشعور قد يزيده
قوة واستهانة بمواجهة الموت ، بينما الشخص الذى يتعرض للسخرية يزداد
ضعفا وانهيارا فى أغلب الأحيان لجرد شعوره بازدياد الناس اياه
واستخفافهم به ، واذن فتأثير السخرية أقوى من أى تأثير آخر مهما يكن
مظهره ، ومن هذا القبيل كان تأثير السخرية فى تغيير العادات الراسخة ،
فان معتنق أى عادة يتشبث بها ، ومهما نصح أو تحامل عليه أحد لتغيير
عادته فلن يتزحزح غالبا عن عادته ، ولكن اذا شعر بأن مزاوله هذه
العادة ستجعله سخرية للناس فانه سيقلع حينئذ عن هذه العادة .

وعلى سبيل المثال ، فانه كان من عادة الزعماء الاجتماعيين ورؤساء
القبائل اتخاذ مظاهر معينة تدل على مكانتهم فى المجتمع ، منها طول الثياب
حتى يجرها خلفه ، ومنها اتخاذ وضع معين للرأس والعنق ، بحيث يبدو
صاحبهما وكأنه معوج العنق ، أو كأنه حين يمشى يمشى بوجهه الى ناحية
أخرى ، اعلانا عن تعاليه عن حوله ، وعن أنه متميز أو متسلط متجبر ،
وهذا المظهر معروف فى كل المجتمعات قديما وحديثا ، ومعروف أنه تعبير
عن الغرور والكبرياء والتعالى على الناس .

والقرآن ييغض كل خلق ينحرف عن الخلق السوى ، فييغض خلق
الغرور والتعالى وينهى عنه بأساليب كثيرة ، ولكن أشد هذه الأساليب

تأثيرا فى النفوس هو أسلوب السخرية الذى يصوغ به النهى عن هذا الخلق ، كقوله تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ابنه :

[ولا تصعر خدك للناس] (١)

فان لفظ (تصعر) سخرية بالغة بالمتكبر المتعالى ، وهى سخرية مصورة فى صورة ، فان الصعر يعرفه العرب مرضا من أمراض الابل ، ويصيب العنق منها فيجعله معوجا بحيث يمشى البعير المصاب به ، صدره الى امام وعنقه الى جهة أخرى ، فيرسم القرآن هذه الصورة للمتكبر المتعالى ، الذى يمشى معوج العنق ، مشيحا بوجهه عن الناس تكبرا وتعاليا .

ويمكن أن نتصور أساليب أخرى للنهى عن خلق التكبر والتعالى ، ولكن شيئا منها مهما يبلغ فلن يبلغ التأثير النفسى لهذه السخرية ، فان عامة الناس وأتباع هذا السيد المتكبر كانوا بطبيعة الحال يعجبون بهذا المظهر على أساس أنه دلالة على الزعامة والسيادة ، ولكنهم بعد سماعهم هذا التصوير الساخر ، وان هذا المظهر ليس دلالة على السيادة ، وانما هو أشبه بمرض الصعر الذى يصيب الابل ، فانهم حينئذ سيتبدل اعجابهم استخفافا وتفكها وضحكا من هذا المظهر ، وصاحب المظهر نفسه حين يشعر بأن مظهره أصبح ماثارا للسخرية والاستخفاف فانه لن يستطيع بعد ذلك اصطناع هذا المظهر ، وهكذا لن نجد وسيلة أو أسلوبا يبلغ من التأثير مبلغ السخرية .

ولهذا استخدمها القرآن الكريم .

مجالات السخرية

ومجالات السخرية لا يمكن بداهة حصرها ولا تصنيفها ، لأن السخرية ليست الا تعبيراً عن عدم الرضا مصوغاً بأسلوب فكه طريف ، وكلا الأمرين ، عدم الرضا ، وطرافة التعبير عنه لا حدود لتفاوتهما ولا لمتنوعهما ، فعدم الرضا قد ينصب على شخص فى شكله أو سلوكه أو خلقه أو صلاته ، أو أى شىء يتعلق به ، وقد ينصب على شىء معين أيا كان هذا الشىء ، لأن هذا الشىء مبعث ضيق أو نفور أو سخط فى أى جانب من جوانبه وقد ينصب على عادة من العادات الشائعة فى المجتمع ، أو سلوك منتشر ، سواء أكان سلوكاً قديماً أم طارئاً على المجتمع ، وهكذا لا نستطيع أن نحصر المجالات التى توجه اليها السخرية .

وكذلك صياغة السخرية نفسها ، من البداهة أنه لا قواعد لها ، ولا حدود لدرجة تأثيرها ، وأقصى ما قد يقال فى ضوابطها أن حدة أسلوب السخرية أو لينه يتناسب مع درجة السخط فى نفس الساخر ، فكلما كان أشد سخطاً كانت صياغته للسخرية أشد ايلاًما ، وبالتالي أشد تأثيراً ، هذا إذا افترضنا أنه يملك القدرة الفنية على التحكم فى الصياغة ، لأن اللبنة الأولى فى الأساس الذى تبنى عليه صياغة السخرية هى مقدرة الساخر واستعداده الفطرى لصياغة السخرية ، فليس كل انسان مهتماً بلغ من الذكاء أو من السخط يستطيع أن يصوغ سخرية ، بل وليس كل أديب أو شاعر مهتماً بلغ من المقدرة الأدبية أو الشعرية يستطيع أن يكون ساخرًا ، وإنما هو استعداد فطرى ، قد تنميه الملابس الاجتماعية أو الثقافية أو غيرهما مجرد تنمية وصل .

ولتقريب هذه المعانى غير المحددة نستطيع أن نضرب بعض الأمثلة التطبيقية ، فعلى سبيل المثال تعد النزعة المعروفة عالميا عن الشعب المصرى ، وهى التعبير عن أحواله أو آلامه بالفكاهة نوعا من أسلوب السخرية ، فكل وضع لا يرضى عنه الشعب المصرى نجد تعبيرا شعبيا عنه فى صورة فكاهة أو ما يسمى (نكتة) وهى فى حقيقة أمرها تعبير أو تصوير ساخر عن عدم رضاه عن هذا الوضع ، ومن المعروف أن الشعب المصرى يجيد التعبير عن مشاعره وخصوصا فى حالة السخط بالأسلوب الساخر الذى يصاغ غالبا فى صورة تجسيد وإبراز لموضع السخط ، ولو أن أحدا أو جهة استطاعت أن تجمع هذه السخرية لكانت ثروة فنية نادرة .

وعلى سبيل المثال فإن الشعب المصرى كان يضيق بتعالى الأتراك وتعاضلهم خلال الاستعمار التركى ، فخرجت فكاهات كثيرة تعبر عن هذا الضيق ، منها ما ذهب مذهب الأمثال العامة ، كقولهم (حسنة وأنا سيدك) يعنون أن التركى حتى وإن ساءت حاله الى درجة التسول وطلب الصدقة فإنه لا ينسى أن يذكر من يطلب منه الصدقة بأنه سيده ، وليس كل الذين يصوغون السخرية متدينين أو يراعون الآداب الدينية ، بل كل همهم إبراز موضع السخرية ، ومن ذلك فى السخرية من تعالى الأتراك عليهم ما يصورونه فى صورة قصة مؤداها أن موظفا تركيا كان له اشراف على عمل ما ، ففى أثناء مروره على العمال وجدهم يحتفون بواحد منهم يتميز بأنه يلبس عمامة خضراء ، وكانت العمامة الخضراء شعار الذين ينتمون فى نسبتهم الى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة ، فضاق هذا الموظف التركى بأن يجد من هو أشد حظوة منه بالتبجيل والتعظيم كصاحب العمامة الخضراء ، فسأل : لماذا يلبس هذا الرجل عمامة خضراء؟ قالوا لأنه من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ يفكر فى أية وسيلة تجعله أعلى من ذلك ، فإذا هو يقول بدون تفكير : ولكنى من سلالة الله .

وما من حاكم فى مصر قديما وحديثا الا صيغت فى شأنه سخريات من الشعب ، لأنه لا يخلو مجتمع من تناقضات واختلافات فى الطبائع والاتجاهات ، فإذا ارضى طائفة فستسخط الطائفة المضادة لها ، وهكذا ، فضلا عن أن فى طبائع كثير من الحكام وسلوكهم ما يثير السخرية ، وفى بعض أحكامهم ونظمهم أحيانا ما يثير السخط والاستنكار ، وحيث كان الحاكم دائما محط الأنظار فإن كل ما يصدر عنه من كل صغيرة وكبيرة مرصود ، وقد تعجز بعض الشعوب عن التعبير عن سخطها ، وقد يثور بعض آخر منها للتعبير عن سخطه ، ولكن الشعب المصرى اتخذ سبيلا وسطا ، فهو عادة لا يثور ثورة الهياج والغضب المفتعل ، وفى الوقت نفسه

يجد لديه من الشعور بالعراقة والقوة ما يمنعه من السكوت على ما ينكر
فيلجأ الى السخرية معبرا بها عن سخطه أو انفعاله بصفة عامة .

ومن أمثلة ذلك أنه صدرت ذات مرة قرارات برفع أسعار كثير من
السلع فسرت موجة من التذمر والسخط بين الشعب فخرجت من ثنايا
الشعب فكاهات كثيرة ساخرة منها ما صيغ فى صورة قصة مؤداها أن
الحاكم ولدت له حفيدة سموها (هالة) ثم سمع جدها الحاكم أنها مريضة
فذهب ليعودها ، وكان حارس العمارة (البواب) التى فيها الحفيدة نوبيا
ممن ينطقون الحاء هاء ، فسأله الحاكم : كيف هاله ؟ مستفسرا عن صحتها
فطن الحارس أنه يسأل عن الحالة ، فأجابه الحارس منفعلا : (هالة زفت)
يعنى (حالة سيئة جدا) .

ومن ذلك أن الشعب كان يتهم أحد الحكام بالغباء ، وأنه لا يدرى
بما يديره أعوانه من حوله ، فصيغت السخرية منه فى صورة قصة مؤداها
أن وفدا هنديا طلب مقابلة هذا الحاكم للتفاوض حول بعض المشروعات ،
وذهب الوفد ومعه السفير الهنذى لمقابلة الحاكم ، وما إن مثل أعضاء
الوفد أمام الحاكم حتى خروا ساجدين وأخذوا يزاولون طقوس العبادة
له ، فتعجب الحاضرون وسألوا السفير الهنذى : لماذا يفعل أعضاء الوفد
هذا ؟ فأجاب بأنهم من الطائفة التى تعبد البقر فى الهند .

ومن ذلك أيضا أن الشعب كان يتهم أحد الحكام بالجبروت وسعة
الأطماع فى السلطة بغير حدود ، فصيغت السخرية من هذا المعنى فى
مشهد خيالى لم يراع فيه جلال الله سبحانه ، ومضمونه أنه حين انتقل
الذين انتقلوا الى الدار الآخرة جلس الله ليستقبل الملوك والرؤساء ، وحين
دخلوا عليه وقف يصافحهم واحدا واحدا ، حتى جاء دور هذا الحاكم
المتجبر ، فاذا الله سبحانه يجلس على عرشه ويسلم عليه جالسا ، وحين
سئل الله سبحانه لماذا سلم عليه جالسا دون غيره ؟ أجاب سبحانه بأنه
خشى أن يجلس هذا الحاكم مكانه ، وكأنهم بهذه السخرية يقولون ان هذا
الحاكم يريد أن ينازع الله فى ملكه .

ومن الأمثلة أيضا أن السياسة المنظورة للشعب بعد قيام ثورة سنة
١٩٥٢ م كانت هى تحطيم كل مصادر السلطة السياسية والاقتصادية
والدينية لتركين السلطة فى قبضة واحدة ، وتمثل هذا فى حل كل الأحزاب
السياسية ، والغاء كل مظاهر الملكية الاقتصادية الكبيرة ، وهى ذات النفوذ
ثم شل السلطة الدينية الممثلة فى نفوذ الأزهر بعدة وسائل ، منها التزام
اسناد مشيخة الأزهر الى أشخاص ضعاف ، وغالبا ما يختارون قصدا
من المصابين بالقالج (الشلل) مع وجود شخصيات لامعة من علماء الأزهر

الأكفاء لهذا المنصب ، فظهرت سخريات شعبية من هذا الوضع حينذاك ،
منها ما صيغ فى صورة أن الحاكم سئل : لماذا لا تولون فلانا مشيخة الأزهر
وهو شخصية عظيمة تناسب هذا المنصب ؟ فأجاب بأنه لا يصلح ، فقالوا :
لماذا ؟ قال : لأنه غير مشلول .

وهكذا ما من شىء يصطدم بمشاعر الشعب المصرى الا ويعبر عنه
بسخرية ، وهذه السخرية تليق وتقسو حسب الانفعال النفسى للشعب ، ولو
أن جهة من جهات البحث استطاعت أن تجمع هذه السخريات لكانت ثروة
من النقد السياسى والاجتماعى لا مثيل لها فى أسلوبها وتصويرها
وطرافتها .

ولئن كانت قد تغيرت بعض أساليب أو أماكن ظهور هذه السخريات
اليوم فذلك لأنها أصبحت تزاول فى أماكن محددة كالمسارح ، بالإضافة
الى التغيرات الثقافية والاجتماعية التى طرأت على حياة الشعب .

والذى يعنينا من هذا كله هو أن السخرية أسلوب واضح ومحدد من
أساليب النقد ومواجهة عوامل السخط والاثارة ، أى أنها سلاح من أسلحة
المقاومة والدفاع ، وليست أسلوبا من أساليب الفكاهة لذات الفكاهة
والطرافة كما قد يبدو فى ظاهر الأمر .

سخرية أعداء الله

واستخدام القرآن أسلوب السخرية انما كان فى الجانب الأهم والواضح منه ردا على سخرية أعداء الله من الايمان والمؤمنين ، فهو سلاح دفاع من هذه الواجهة وليس سلاح هجوم ، والقرآن يسجل فيضا واسعا من أساليب السخرية التى استخدمها أعداء الله ضد كل ما يتعلق بالايمان والمؤمنين ، فقد سخروا كثيرا وبأساليب متنوعة من ذات الله سبحانه ومن رسله وأنبيائه ، ومن القرآن بالذات ، ومن الدين بصفة عامة ومن مظاهر العبادة فى الدين ، وقد صبوا على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم كما سنرى وابلا من السخرية الشديدة الايلام للنفوس ، وكل هذه الألوان من سخرياتهم موجهة الى الرسول ، اما الى شخصه مباشرة ، واما الى دعوته ، وكلاهما جزء من شخصه .

والنبي صلى الله عليه وسلم بشر ، يؤله ما يؤلم سائر الناس ، غاية الأمر أن حلمه وقوة احتماله أعظم منها لدى سائر الناس ، ولكن الاشكال ليس فى شخصه أو ما يصيبه هو لذاته ، وانما الاشكال الأكبر أن سخرية المشركين كانت حربا حقيقية خطيرة ضد دعوة النبي الناس الى الاسلام ، فبينما ينشر الرسول دعوته ، وبينما يبدأ الناس فى التفكير فيها ، أو الاتجاه الى الاستجابة لها ، اذا هم يجدون دعوة مضادة تشوه دعوة الرسول وتنفر الناس منها ، وهذه الدعوة المضادة صادرة من أشخاص لهم مكانهم وقدرهم فى أعين الناس ، ومن ثم فهم فى موضع الثقة والقدوة معا فى المجتمع ، واذن فسيستمع غالبية الناس فى القبائل ويستجيبون لهم ، ويضربون صفحا عما يقوله الرسول الذى لم يعرفوه بعد ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد ظل الرسول يدعو الى الاسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة ،

ويبذل جهده هو وأصحابه أن ينشروا دينهم فى القبائل ، ومع ذلك لم يكذب
يبلغ عدد المسلمين فى ثلاث عشرة سنة فى مكة وما حولها من القبائل التى
بلغتها دعوة الاسلام نحو ثمانين رجلا ، ولا شك أن محور السبب فى هذا
كان هو الدعوة المضادة للاسلام ، وأهمها أسلوب السخرية والاستهزاء
الذى استخدمه أعداء الاسلام فى حربهم ضده .

والقرآن يوضح فى جلاء خطورة سلاح السخرية الذى استخدمه
أعداء الاسلام ، وخطورة تأثيره فى النفوس ، وخصوصا نفوس المسلمين ،
ولا أدل على ذلك من أن يحدث ضيقا فى صدر الرسول نفسه ، صاحب اللحم
العظيم ، الذى هو صفة من صفات خلقه العظيم الذى وصفه به القرآن :

[وانك لعلى خلق عظيم] (١)

حيث يقول تعالى عن هذه الخطورة :

[انا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع

الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم

انك يضيق صدرك بما يقولون] (٢)

وتعبير القرآن يتضمن فيما يتضمن أمرين بالغى الأهمية من حيث
تأثير سخرية الأعداء واستهزائهم :

١ - وأحد الأمرين أن تعبير (انا كفييناك المستهزئين) يتضمن أن قوة
تأثير سلاح الاستهزاء والسخرية كانت أقوى من مقاومة الرسول
والمؤمنين ، فهى فى حاجة الى قوة أكبر ، وهى قوة الله ، لأن الله شرع
الجهاد فى الاسلام ، وما يستطيع المسلمون أن يفعلوه فهم مطالبون
به ، ولا يمددهم الله بمدد خارجى الا اذا كان الهجوم فوق طاقتهم ،
كما أمددهم بالملائكة المسومين فى القتال الذى كان فوق طاقتهم ، وكما
كفاهم الله رءوس المستهزئين وقادتهم ، وكانوا كما فى الروايات عددا
معينا من وجوه مكة والبارزين فيها .

٢ - والأمر الآخر أن تخصيص صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بالضيق
يتضمن أن خطر تأثير الاستهزاء والسخرية كان بالغا ، وانه من باب
أولى سيكون أشد بلوغا وعمقا فى نفوس غير الرسول من سائر
الناس ، سواء من المسلمين الذين قد يتزعزع ايمان بعضهم ، أو من

(١) سورة القلم .

(٢) سورة الحجر ٩٥ - ٩٧

غير المسلمين الذين يريدون أن يتجهوا الى الاسلام ، ولم يترك أعداء الله فى الدين معلما أو جانبا الا وسخروا منه ، ومن ذلك :

السخرية من ذات الله سبحانه :

والذى يعنينا من ذلك هنا ليس الكفر لذاته فى أى لون من ألوانه ، وإنما يعنينا ما يدل عليه العنوان من سخرية أعداء الله من ذات الله سبحانه ، والقرآن يسجل هذا فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب ، وهذا أبعد وأوغل فى الكفر ، أن يتجاوز مرحلة الإنكار أو الإشراك أو غيرهما الى مرحلة الاستخفاف والاستهزاء بفكرة وجود الله ، ومن ذلك فى القرآن :

[وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما

الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا] (٣)

فقولهم (وما الرحمن ؟) انكار منهم لوجود الله ، وصوغهم لهذا الإنكار فى صورة سؤال يتضمن نوعا من الاستخفاف والسخرية بمن يقول هذا الكلام ، ثم قولهم (أنسجد لما تأمرنا) يتضمن أن فكرة وجود الله فى رأيهم ليست الا خيالا أو ادعاء من قائل هذا لهم ، ورغم أن القائل لهم مجهول فى تعبير القرآن (وإذا قيل لهم ٠٠) الا أن بقية الآية تشير الى أن القائل هو الرسول الذى يدعوهم الى الايمان بوجود الله ووحدانيته ، ولذلك يردون عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) وينفرون من دعوته هذه (وزادهم نفورا) .

ولئن كانت سخريتهم من ذات الله سبحانه غير مكشوفة فى مثل هذه الآية ، فانها صريحة فى مواضع أخرى كقوله تعالى :

[٠٠٠ قل استهزئوا ان الله مخرج

ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا

نخوض ونلعب قل أباالله وآياته ورسوله

كفتم تستهزئون] ؟ (٤)

فهم يستهزئون بالله ، وبكلامه ، و برسوله الذى أرسله اليهم ، والاستهزاء بأى شىء يتعلق بالشخص لابد أن يتضمن فى جانب منه استهزاء بالشخص نفسه ، هذا فضلا عن أن ما استهزءوا به من كلام الله ورسوله مرتبطين ارتباطا مباشرا بالله سبحانه .

(٣) سورة الفرقان ٦٠

(٤) سورة التوبة ٦٥

واذن فقد وصلوا بسخريتهم من الله سبحانه واستهزأهم به الى قمة الكفر ، بل قمة السوء فى أسلوب الكفر ، فان الأسلوب الذى يزاوُل به الشئ قد يكون أبلغ فى الدلالة من الشئ نفسه ، سواء أكان خيرا أم شرا ، ففي الخير على سبيل المثال قد يأتيك ضيف فتقدم له طعاما مصحوبا بترحاب منك وبشاشة ومودة بينما يأتيك ضيف آخر ، أو يأتي شخصا آخر ضيف فيقدم اليه الطعام نفسه ولكن مصحوبا بضيق ونفور وعبوس ، والطعام واحد ، ولكن أثره فى النفس يختلف فى الحالين اختلافا شديدا ، وفى الشر على سبيل المثال أيضا لو أريد قتل شخص ، ففرق كبير فى الأثر النفسى للمقتول وللمشاهدين بين أن يقتل بضربة واحدة قاضية ، وأن يقطع وهو حى قطعة قطعة حتى يموت ، فالنتيجة فى كلا الحالين واحدة وهى الموت ، ولكن الأسلوب المؤدى اليه يختلف فى الحالين اختلافا شديدا ، فالوسيلة لذاتها قد تكون أبلغ وأعمق أثرا من الغاية ، ووسيلة هؤلاء الكافرين فى كفرهم أسوأ من الكفر نفسه ، حيث كانت وسيلتهم هى الاستهزاء بالله .

السخرية من كلام الله :

يتردد فى القرآن كثيرا الحديث عن سخرية المشركين من آيات الله ، والمراد بها حينئذ كلام الله وهو القرآن ، والآية قد يراد بها المعجزة التى يأتي بها المرسل من الله لتكون مدعاة الى تصديقه ، ولكنه من المعروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم تكن له معجزة يتحدى بها كما تحدى الرسل بمعجزاتهم الا القرآن ، فسخرية المشركين من آيات الله المراد بها سخريتهم من آيات القرآن ، وقد ركز المشركون سخريتهم فى القرآن ، وهذا يدل على فهمهم لأهمية القرآن ، فانه كان ولا يزال وسيظل هو قاعدة الاسلام ، ولسان دعوته ، وحصنه الحصين ، فمن ذلك القرآن :

[أفمن هذا الحديث تعجبون ،

وتضحكون ٠٠٠] (٥)

فهم يتعجبون من القرآن تعجبهم من الشئ الغريب ، ولكن هذا العجب لا يدعوهم الى فكر أو تأمل ، وإنما يدعوهم الى السخرية والضحك من القرآن .

ولخطورة الأثر النفسى لسخرية المشركين من القرآن ، وتحاشيا لأن تؤثر هذه السخرية فى نفس أحد من المؤمنين فان الله سبحانه يحذر المسلمين من مجالسة الساخرين من القرآن حين يسخرون ، بمثل قوله تعالى :

[وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم

آيات الله يكفر بها ويستهزا بها فلا تقعدوا

معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم

انذرتهم ۰۰۰] (٦)

لأن مجالستهم حينئذ كأنها رضا باستهزائهم من القرآن فضلا عما تتضمنه من الدعاية بأن المسلمين أنفسهم راضون عن هذا الاستهزاء أو مشاركون للمستهزئين بهذا الرضا ، فأدنى ما يجب على المسلم حينئذ أن يغادر هذا المجلس مغادرة الساخط المستنكر ، وهذه الصورة من السخط والاستنكار الواضح هو أضعف الايمان فى النهى عن المنكر بالقلب كما فى الحديث النبوى المشهور :

[من رأى منكم منكرا فليغيره ، بيده ، فان

لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ،

وذلك أضعف الايمان]

لأن السخط والاستنكار اذا لم يكونا ظاهرين لمرتكب المنكر ولغيره فلن يكون لهما أثر ، والاستهزاء بآيات الله أسوأ أنواع المنكر .

ويتكرر فى القرآن اثبات سخرية المشركين واستهزائهم بالقرآن فضلا عن انكار نسبه الى الله ، ومن ذلك قوله تعالى :

[واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا] (٧)

فهم يجعلون من آيات الله ما ينذرهم به الرسول مادة للتندر والاستهزاء والاستخفاف .

(٦) ١٤٠ سورة النساء .

(٧) ٥٦ سورة الكهف .

ويبين القرآن مدى مبلغ الاستهزاء بآيات الله من السوء ، موضحا أنه قمة السوء ، وأن سوءه يتجاوز مرحلة الكفر فى الترتيب ، حيث يقول فى هذا البيان الرائع :

[ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوءى ان

كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون] (٨)

فحين يتحدث القرآن عن عاقبة أعداء الله وما ينتهى اليه حالهم فان السامع يتوقع الحديث عن العقاب فى الآخرة مهما يكن نوعه ، أو الدمار فى الدنيا مهما تكن صورته ، ولكن القرآن لا يتحدث عن هذا ولا ذاك ، وإنما يقول ان عاقبتهم ونهاية أمرهم ان وصلوا الى أسوأ ما يتصوره عقل ، وهو أن يستهزئوا بآيات الله فضلا عن تكذيبهم بها ، فالتكذيب كفر ، وهو غاية فى السوء ، ولكن هناك غاية أوغل منها فى السوء ، وهى الاستهزاء والسخرية بآيات الله .

فتكذيب المشركين بآيات الله ، وادعائهم أن القرآن ليس الا شعرا أو سحرا أو جنونا ، وأنه فى كل الأحوال ليس من عند الله ، هذا يتكرر تسجيل القرآن اياه على المشركين ، وهو فى كل صورة كفر ، ولكن الاستهزاء والسخرية بالقرآن مرحلة أسوأ من الكفر ، لأنها تتضمن الكفر ، وتزيد عليه الاساءة بالسخرية والاستهزاء .

السخرية من البعث :

والايمان ببعث الموتى يوم القيامة لحسابهم هو من أسس العقيدة الدينية ، كما أن أنكاره من أسس الكفر ، وقد أنكره المشركون انكارا شديدا ، وأقسموا على ذلك بكل ما يملكون من الحلف ، كما فى القرآن الكريم :

[وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله

من يموت ٠٠] (٩)

لأنهم لو آمنوا بأنهم سيبعثون ويحاسبون ويجازون لدعاهم هذا الى الايمان بالله ، ولكنهم ينكرون الله سبحانه ذاته ، أو ينكرون ألوهيته فى صورتها الصحيحة وهى الوجدانية ، فمن باب أولى أن يذكروا البعث أو غيره مما يترتب على الايمان بالله .

(٨) ١٠ سورة الروم .

(٩) ٢٨ سورة النحل .

ولذلك فانهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا ، وانما يعتقدون أنه لا حياة بعد حياتهم الدنيا ، كما ينقل القرآن عنهم :

[وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن

بمبعوثين] (١٠)

لأن اعترافهم بالبعث والحساب تترتب عليه مسئوليتهم عن كل ما يصدر عنهم .

ولكن الذى يعنينا هنا ليس انكارهم لذاته ، وانما سـخريتهم واستهزأؤهم ، فقد اتخذوا من البعث مدعاة للسخرية منه وممن يقول به ، والقرآن ينقل لنا هذه الصورة من سخريتهم من البعث وممن يحدثهم به ، فى قوله تعالى :

[وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل

ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق

جديد ، افترى على الله كذبا ام به

جنة ٠٠٠] ؟ (١١)

وكانهم كلما قابلوا شخصا أو جماعة يقولون لهم : هل سمعتم بأغرب ما يتصوره عقل ؟ ان هناك رجلا يزعم أن الواحد منكم بعد أن يموت ، ويتفرق عظاما مبعثرة ، أو ذرات متناثرة يعود مخلوقا جديدا مرة أخرى ، وهذا الرجل يزعم أن الله هو الذى أخبره بهذا ، فما تقولون فى هذا الرجل الا أحد أمرين : اما أنه يفترى على الله الكذب ، واما أنه مجنون يتخيل خيالات وأوهاما لا تقرها العقول ، ولا ينطق بها العقلاء ؟ ويعنون بالرجل شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا قمة الاستخفاف والاستهزاء بفكرة البعث ، وبالنبى الذى يحدثهم بها .

(١٠) ٢٩ سورة الأنعام .

(١١) ٧ ، ٨ سورة سبأ .

وكذلك سخر الأقسام السابقون من حديث البعث ، ومن أنبيائهم حين حدثوهم به ، ومن هؤلاء قوم نوح ، كما ينقل القرآن عنهم في حديث بعضهم البعض عن نوح عليه السلام :

[أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما
أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توقعدون ،
ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
نحن بمبعوثين ، ان هو الا رجل افترى على
الله كذبا وما نحن له بمؤمنين] (١٢)

ومن الغريب أن المشركين العرب يعترفون أن حديث البعث الذي أخبرهم به الرسول ليس جديدا ، وإنما أخبر به الأنبياء السابقون أقوامهم ، وبدا أن يتخذوا من هذا دليلا على صدق رسولهم ، وأن ما جاء به ليس الا نأبيدا لمن سبقوه ، اذا هم يتخذون من ذلك دليلا في زعمهم على كذب الرسول ، متصورين أو متوهمين أن الأنبياء السابقين ماداموا قد أخبروا الأجيال السابقة بأنهم سيبعثون بعد الموت فقد كان ينبغي أن تبعث هذه الأجيال السابقة بعد موتها ، ولكن أحدا منهم لم يبعث فاذن حديث البعث هي زعمهم وهم وخيال وكذب على الله ، واذن فأحاديث الأنبياء السابقين عنه ليست الا أساطير وخرافات ، واذن أيضا فحديث رسولهم عن البعث ليس الا ترديدا لأساطير الأولين (ان هذا الا أساطير الأولين) والاشارة في (هذا) تعنى حديث رسولهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والقرآن يسجل ان ما قاله الأقسام السابقون عن البعث قاله مشركو العرب لرسولهم ، ففي القرآن الكريم :

[بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا
مقتنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون ، لقد
وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا
الا أساطير الأولين] (١٣)

ومثل هذه الأساليب لا تعنى مجرد انكار البعث ، وإنما تعنى السخرية ، واثارة العجب من فكرة البعث ، وممن يتحدث بها ، وكأنهم يقولون متعجبين ساخرين : كيف يعود التراب خلقا سويا ؟ وكذلك كيف

(١٢) سورة المؤمنون

(١٢) ٣٥ - ٢٨ سورة المؤمنون .

(١٣) سورة المؤمنون

(١٣) ٨١ - ٨٣ سورة المؤمنون .

تعود العظام المتفرقة ، أو الأجزاء المبعثرة من الأجساد بعد الموت أناسا مرة أخرى ؟ ان من يقول هذا فى زعمهم حقيق بأن يكون محطا للسخرية والاستهزاء به .

السخرية من الدين والعبادة :

ومما سخر منه أعداء الله واتخذوه هزوا هو اعتناق الاسلام ، وبصفة خاصة ما يدل عليه ويميزه عن الأديان الأخرى وهو الصلاة ، فقد كانت أيضا مدعاة لسخريتهم ، ولكن القرآن يشير الى أن الذين تولوا كبر هذا النوع من السخرية بالاسلام وبالصلاة هم اليهود ، ثم من شايعهم من غيرهم ، ولذلك يتجه خطاب القرآن فى هذا المجال الى فريق من أهل الكتاب من الواضح أنهم اليهود ، لأن القرآن يصفهم حينئذ بما تكرر وصفهم به فى مواضع أخرى من القرآن صراحة ، ثم يصفهم بالنفاق ، وقد كانوا هم أساتذة النفاق ومعلميه (١٤) ولذلك ظهر النفاق واضحا فى المدينة وما حولها كما سجل القرآن فى قوله تعالى :

[وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن

أهل المدينة مردوا على النفاق] (١٥)

ولم يظهر فى مكة ، لأن المدينة كانت المركز الرئيسى لمواطن اليهود فى الجزيرة العربية ، ويزيد القرآن اشارته الى اليهود وضوحا حيث يتحدث عن الأحزاب ، وهم أحبار اليهود ، فيقول تعالى محذرا المسلمين من الانخداع باليهود وصلاتهم بهم :

[يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا

دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من

قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم

مؤمنين ، واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها

هزوا ولعبا ذلك بانهم قوم لا يعقلون ، قل

يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمننا بالله

وما انزل الينا وما انزل من قبل وان أكثركم

فاسقون ، قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة

عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل

(١٤) انظر كتاب أسلوب السخرية فى القرآن للمؤلف فصل السخرية واليهود طبع

الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٥) سورة التوبة ١٠١

منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك
 شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ، وإذا
 جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم
 قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ،
 وترى كثيرا منهم يسارعون فى الأثم
 والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا
 يعملون ، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار
 عن قولهم الأثم وأكلهم السحت لبئس
 ما كانوا يصنعون ، وقالت اليهود يد الله
 مغلولة [٠٠٠] (١٦)

فهم اتخذوا دين المسلمين (هزوا ولعبا) وكذلك اتخذوا صلاة
 المسلمين (هزوا ولعبا) وكل ما سبق فى الآيات انما هو صفات صريحة
 لليهود ، تكرر التصريح بها فى مواضع عديدة أخرى من القرآن .
 وسخریتهم من دين الاسلام معناه سخریتهم من كل ما جاء به ،
 وخصوصا الصلاة .

السخرية من الرسول :

والقرآن يؤكد فى مواضع عديدة منه أن رسل الله كانوا بصفة دائمة
 وملتزمة موضع سخرية أقوامهم ، وقد يبدو هذا فى المنطق العقلى أمرا
 غريبا ، فالأنبياء والرسل (١٧) صفوة مجتمعاتهم دون شك خلقا وعقلا ،
 فضلا عن أن ما يدعون اليه انما هو نهوض وتقدم ، سواء بالادراك العقلى
 أو بالسلوك ، فيما يعبر عنه القرآن باخراج الناس من الظلمات الى النور ،
 أى من ظلمات الضلال والتهيه أو الحيرة العقلية الى وضوح الطريق
 وطمأنينة العقول ، فهم ليسوا متفوقين فحسب على أقوامهم ، وانما هم
 قمم متميزة منفردة لا يناقسه فى هذا أحد الا فى الاقتداء والتأسى بهم ،
 ولن تكون هذه منافسة ، وانما هى محاولة للذنو منهم ، والتشبه بهم .

(١٦) ٥٧ - ٦٤ سورة المائدة .

(١٧) الفرق بين النبى والرسول أن النبى من كان يوحى اليه من الله ولكن الله لم
 يكلفه تبليغ ما يوحى اليه الى الناس ، أما الرسول فهو الذى يوحى اليه ويكلفه الله تبليغ
 ما يوحى اليه الى الناس فالنبوة أعم ، والرسالة أخص ، وقد يطلق النبى على الرسول
 على أساس أن الرسول لا بد أن يكون نبيا .

فكيف اذن يكونون موضع السخرية والاستهزاء وهم بهذه الصفة ؟
والواقع أن تمييزهم أو تفردهم هو الذى يصنع الفجوة بينهم وبين
أقوامهم ، وذلك من ناحيتين :

١ - احدهما أن التميز والتفرد يثير ضدهم الخاصة من المجتمع ،
وهم السادة والقادة الاجتماعيون ، فهؤلاء يرون أنهم هم أصحاب
التميز والتفوق عن سواهم وخصوصا عامة الناس ، وهم فى
العادة يتنافسون فيما بينهم على التفوق ، فيما يعرف بالتنافس على
السيادة والزعامة ، وقد يختلفون أو يتصارعون فيما بينهم ، ويكون
هذا أمرا مألوفا ، بل متوقعا ، بل قد يوجد قدر أو نوع من الروابط
فيما بينهم رغم اختلافهم أو تصارعهم ، لأنهم يتنافسون على أمور
مشتركة بينهم ، كل منهم يريد أن ينفرد بها ، أو أن يكون نصيبه منها
أكبر من نصيب خصمه ، ولكن حينما يظهر شخص يكون تمييزه فى
مجال الرسالة الدينية فانه يكون غريبا على الجميع ، لأنه خارج
نطاق هذه الخصومات ، وليس بينه وبين أحد منهم قدر مشترك فيما
يتنافسون عليه من أعراض الدنيا ومظاهرها ، وليست بينه
وبينهم أصلا أية رابطة أو علاقة ، سواء اكانت علاقة اتفاق ، أم
علاقة اختلاف ، أم علاقة تنازع .

فبيدأ المتميزون فى المجتمع كالأغنياء والسادة ينفرون من هذا
الدخيل على ميدان تمييزهم وتفوقهم ، وهو صاحب الدعوة الدينية ،
الذى ينظرون اليه بطبيعة الحال على أنه دخيل يريد أن يسلبهم جميعا
ما يتنافسون عليه وهو التفوق أو السيادة ، لينفرد به هو ، ثم يتحول
نفورهم منه الى خصومه له وحيث ان الموقف يجمعهم جميعا ، فانهم
يبدأون فى العادة فى توحيد صفوفهم وتناسى خصوماتهم حتى
يتخلصوا من الخصم الجديد الطارئ ، كما يحدث فى الصراعات
والحروب العادية .

ومن هنا تتحول الطبقة المتفوقة فى المجتمع الى خصوم للنبي
المرسل ، سواء اكان مصدر شعورهم بالتفوق هو المنصب كالسيادة
أو الزعامة ، أو هو المال ، أو هو النسب ، أو غير ذلك ، حسب
ظروف كل مجتمع .

وهؤلاء جميعا لا يحسون بخطورة النبي الجديد ، أى نبي ،
الا عندما يدعو الناس الى الدخول فى دعوته ، فانهم حينئذ لا يركزون
اهتمامهم فى دعوته ، أو فى شخصه ، وانما فى شيء واحد ، هو أنه

يريد أن يجتذب الناس اليه ليكونوا أتباعا له ، فالذين سيتبعونه يخرجون من سلطان السادة ، ونفوذ الأغنياء ، وسطوة أصحاب النسب ، ولن يكون خضوعهم أو انقيادهم الا لهذا النبي الجديد ، أو هذا الدخيل فى رأيهم على مجال الزعامة والسيادة .

واذن فهو خطر فى نظرهم على كل هذه الطبقة التى تنظر اليه أصلا على أنه دونهم جميعا ، لأن الأنبياء المرسلين لا يملكون فى العادة تلك المظاهر الاجتماعية ولا يسعون اليها ، فهم ينظرون الى النبي نظرة مهانة واحتقار ، وهذا هو السبب الأصلي فى أن كل رسول لابد أن يواجه بالاستهزاء والسخرية من حيث ان هذه الطبقة تنظر اليه باستخفاف ، كيف أنه مع كونه لا يملك شيئا من مقومات السيادة والتفوق الاجتماعى يريد أن ينتزع هذا التفوق من كل المتطلعين اليه ، والمتنافسين فيه وهم الذين يملكون مقوماته وأسبابه التى توصلهم اليه .

٤ - والناحية الأخرى مما يصنع الفجوة بين الأنبياء وأقوامهم ناحية العادات والتقاليد ، فانه من المعروف أن للعادات والتقاليد الموروثة سلطانا قاهرا شديدا للسيطرة على المجتمعات ، لا ينافسه فى سيطرته على المجتمعات شيء آخر .

ومن الواضح أن كل مجتمع له عاداته وتقاليده الموروثة ، وحينما ياتى نبي بدعوته وشريعته ، فان أول ما تتجه اليه دعوته هو عدم الاعتراف بالعادات والتقاليد ، بل سيكون المبدأ الذى لا محيد عنه ولا جدال فيه عند النبي أن كل شيء لابد أن ينظر اليه من خلال المنظار الدينى ، فالدعوة الدينية الجديدة هى التى تحدد الحكم على كل شيء ، ان كان خيرا أو شرا ، مقبولا أو مرفوضا ، ومؤدى ذلك الغاء سلطة العادات والتقاليد ، وحينئذ يحدث الاصطدام الرهيب بين قوتين لا مرونة فيهما ، حيث ان كلا منهما تريد أن تنفرد بالسلطة والتوجيه ، وهما قوة الدعوة الدينية التى تريد أن يكون الحكم على كل شيء من خلالها ، وبالتالي أن تكون هى القوة الوحيدة الموجهة لكل السلوك ، وقوة العادات والتقاليد التى تعودت عبر أجيال وعصور أن تكون هى القوة الوحيدة التى لا تستطيع قوة أخرى أن تنافسها أو تعارضها .

ولكن المقيم أرسخ قدما من الدخيل الطارئ ، والعادات هى المقيمة عبر أجيال وعصور ، والمجتمع مؤمن بها كل الايمان ، خاضع لها كل الخضوع ، حتى انه لا يستطيع فرد فى العادة أن يشذ عليها أو يتمرد ، وان فعل جحظت اليه كل العيون تعجبا واستنكارا .

والأنبياء لا يتمردون على العادات محض تمرد ، وانما يمقتونها

مقتنا ، ويحاربونها حربيا لا هدنة ولا هوادة فيها ، لأن فى مقدمة عادات المجتمعات وتقاليدها عبادة آلهة غير الله سبحانه ، وهذا الموقف هو ميدان الصراع بين كل الأديان السماوية والمجتمعات فى كل العصور ، وعلى أيدي كل المرسلين من الله الى البشر ، فلا بد اذن أن يواجه رسل الله من هذه المجتمعات فى مجموعها بكل العداوة والاستنكار .

والقرآن حافل بما يؤكد أن العقبة الأولى والأهم أمام كل الأديان السماوية هى تمسك المجتمعات بالعادات والتقاليد الاجتماعية فى صورة التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد ، لأن العادة لا تكون عادة اجتماعية الا اذا كانت قديمة وعامة فى المجتمع ، أما ما يستحدثه الأفراد من عادات فى حياتهم الشخصية فهى عادات فردية وليست اجتماعية ، وليس لها من السلطان ما للعادات الاجتماعية ، فهم لا يريدون أن يتزحزحوا عن عاداتهم ، ولا أن يستبدلوا بها شيئا أو دينا آخر ، لأنها فى رأيهم كافية لهم وليست فى حاجة الى تغير أو تزيد ، كقوله تعالى عن مثل ذلك :

[واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا] (١٨)

وحتى الفاحشة التى لا ينكرون أنها منكر وفاحشة لا يدخلون منها ولا ينفرون طالما كانت عادة اجتماعية ، كقوله تعالى :

[واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا] (١٩)

فكونها عادة موروثه يجعلها فى نظرهم أمرا مباحا ومقبولا ، وكذلك الشرك بالله يرونه من حقهم ما دام موروثا عن آباءهم ، كقوله تعالى :

[أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم] (٢٠)

فهم متشبثون بعاداتهم الموروثة مهما كانت منافية للعقول ، كقوله تعالى فى التعقيب على رفضهم الدين الحق تمسكا بالعادات الموروثة عن آباءهم :

[أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون] ؟ (٢١)

(١٨) ١٠٤ سورة المائدة .

(١٩) ٢٨ سورة الأعراف .

(٢٠) ١٧٣ سورة الأعراف .

(٢١) ١٧٠ سورة البقرة .

بمعنى أن يتمسكوا بهذه العادات الموروثة ولو كانت منافية للعقول ؟
وكذلك هم متشبثون بهذه العادات مهما بلغت من الجهل وعدم المعرفة ،
كقوله تعالى :

[٠٠٠ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً

ولا يهتدون] (٢٢)

والعامة من الناس هم أشد المجتمعات تشبثاً بالعادات والتقاليد ،
لأن الخروج على العادات يتطلب أمرين لا بد منهما :

١ - العقل الناذج الذى يستطيع أن يكشف سوء العادة أو ضررها أو
تقاهة التمسك بها ان كانت عادة سيئة .

٢ - قوة الارادة التى تمكن صاحبها من المقدرة على تحدى مشاعر
المجتمع فى نظرتة الى التمرد على العادة ، فليست المعرفة وحدها
كافية لنبد العادة ، حيث يمكن أن يتضح لشخص سوء عادة ما ،
ولكنه مهما تبلغ معرفته لسوئها لا يجرؤ على نبذها أو الخروج
عليها خوفاً من نظرة المجتمع اليه ، وعلماء الاجتماع يمثلون لسيطرة
العادات ولكون سلطانها أقوى على المجتمعات من سلطان الدين
والقانون بعادة الأخذ بالثأر ، فان الفرد فى هذه المجتمعات يجد
نفسه مرغماً نفسياً على مزاولة هذه العادة مع يقينه بمخالفتها الدين
والقانون .

والأمران معا ، نضوج العقل ، والقوة لا يتوافران للعامة ، لأن
من يتوافران فيه سيكون من الخاصة وليس من العامة .

وإذن فالعامة فى مجموعهم لا يستطيعون الخروج على العادات
حتى وان أدركوا سوءها أو ضررها ، لأنهم لا يجرؤون على تحدى مشاعر
المجتمع .

ونخرج من هذا كله بأنه من الواضح حينئذ أنه حينما يأتى نبي يدين
جديد الى قومه ، فان قومه بصفة عامة سيواجهونه بالرفض والتحدى
والعداوة ، سواء الخاصة منهم والعامة ، فأما الخاصة فيمنعهم من اتباع
النبي الجديد خوفاً على سيادتهم ونفوذهم ، واستكبارهم أن يكونوا
تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وأما العامة فيمنعهم من اتباع النبي
خضوعهم للعادات الموروثة عن آباؤهم وأجدادهم ، ومن هذه العادات
الموروثة خضوعهم للسلادة والزعماء .

وكل من الفريقين ، الخاصة والعامه ، سيستخدم كل أسلحته ضد النبي الجديد ، ولكنه لايد أن يكون ضمن أسلحة الفريقين السخرية والاستهزاء ، وان اختلف المصدر النفسى للسخرية لدى كل منهما ، او اختلفت طبيعة السخرية ونوعها وأسلوب صياغتها ، ومن امثلة سخرية العامة بانبيائهم قول القوم لنبيهم شعيب عليه السلام :

[أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد أبأؤنا او

أن تفعل فى أموالنا ما تشاء انك لأنت

الحليم الرشيد] (٢٣)

وأوضح ما تكون السخرية فى الآيه فى تعبيرين :

١ - أحدهما تعبير (أصلاتك تأمرك) فلامهم ولا أحد غيرهم يعتقد أن الصلاة يصدر منها فعل أو قول ، فلا هى تأمر ولا هى تنهى ، وهم لا شك موقنون بهذا ، ولكنهم يسخرون ، من حيث أنهم لا يعترفون بالله سبحانه ، فشعيب يقول لهم الله يأمرنى بهذا ، وكأنهم يقولون له ، لا يوجد شيء اسمه الله ، وبالتالي لا يوجد من يأمرك الا أصلاتك التى نراها .

٢ - والتعبير الثانى (انك لأنت الحليم الرشيد) فهم فى ظاهر التعبير يؤكدون أن شعيبا حليم بمعنى أنه عاقل عقلا متميزا ، ورشيد بمعنى أنه حسن السلوك مهتد فى عمله الى الخير ، ومن البداهة بمكان أنهم لو كانوا يقصدون حقيقة هذين المعنيين لآمنوا به وصدقوه ، ولكنهم لا يقصدون هذا ، وانما يقصدون السخرية من شعيب ، بمعنى هل ما يصدر منك يا شعيب من هذه الدعوة يليق صدوره من عاقل رشيد ؟ أو بمعنى عهدناك قبل ذلك عاقلا رشيدا ، فكيف صار بك الحال الى ما تدعوننا اليه مما لا يليق بعاقل أو رشيد ؟

والذى يدل على أن الذين صدرت منهم هذه السخرية هم عامة القوم وليس خاصتهم أمران :

١ - أحدهما أن خطاب شعيب عليه السلام كان موجها الى القوم عامة ، والرد صدر أيضا من القوم عامة ، وليس من (الملأ) وهم السادة والخاصة فى مواضع كثيرة من القرآن .

٢ - أن الذين كان شعيب يحاورهم وهم يردون عليه قالوا فى نهاية
المجاورة كما ينقل عنهم القرآن :

[قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما
تقول] (٢٤)

فاعترفهم بأنهم لا يفهمون أكثر كلامه دليل واضح على أنهم من
العامة وليس الخاصة .

وأما سخرية الخاصة فان القرآن يورد كثيرا منها مما واجه به
السادة كل الأنبياء فى كل العصور .

وفيما يتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تكرر كثيرا فى القرآن
للحديث عن السخرية منه ، بل ان عددا معيناً من زعماء مكة كأنهم اتخذوا
السخرية من الرسول عملاً وحرفة لهم ، هؤلاء الذين تحدث عنهم القرآن
فى قوله تعالى :

[انا كفيفاك المستهزئين] (٢٥)

والروايات تذكر أسماءهم وتحدث عن أشخاصهم ، ومن أمثلة
السخرية البالغة الايلام لأى شخص توجه اليه ، هذه الصورة من السخرية
التي كانوا يصوبونها نحو الرسول صلى الله عليه وسلم :

[واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا
الذى بعث الله رسولا] (٢٦)

فالإشارة فى لفظ (أهذا) وما بعدها تتضمن قمة التحقير ، وغاية
الاستهزاء ، فان تعبير الآية يتضمن كأنهم لا ينكرون الله ، ولا ينكرون ارسال
الله الرسل ، ولكنهم ينكرون صلاحية هذا الرسول لحمل رسالة الله اليهم ،
وكأنه لا مانع لديهم من قبول هذه الرسالة والايمان بها لو كان من يحملها
ممن يرونه أهلا لها ، كما قالوا :

[لولا نزل هذا القرآن على رجل من

القريتين عظيم] (٢٧)

• (٢٤) سورة هود

• (٢٥) سورة الحجر

• (٢٦) سورة الفرقان

• (٢٧) سورة الزخرف

فهم يوضحون أنه لا يصلح في رأيهم لحمل هذه الرسالة إلا أحد زعيمين ، الوليد بن المغيرة في مكة ، وعروة بن مسعود في ثقيف ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فلا يصلح في رأيهم لحملها لأنه ليس زعيما ولا غنيا ولا أتباع من حوله ، ولكنهم لو قالوا هذا أو ما هو أسوأ منه كما وصفوه صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والشعر لما كان داخلا في نطاق موضوعنا وهو السخرية ، أما موضع الاستشهاد فهو السخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التعبير البالغ التحقير والتهوين والذي تبرزه الإشارة في (أهذا الذي بعث الله رسولا) ؟ وكأنهم يقولون انها مفاجأة بالغة العجب أن نتبين أن هذا الشخص المهين الذي لا شأن له هو الذي بعثه الله رسولا بعد أن كنا نتوقع أن يكون زعيما مجلجبل الصوت .

ومن سخريتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ما ينقله عنهم القرآن في قوله تعالى :

[وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل
ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق
جديد ، أفقرى على الله كذبا أم به
جنة ٠٠٠] ؟ (٢٨)

بمعنى أن بعضهم يقول لبعض أتريدون أن تعرفوا رجلا تبلغ به الغرابة أن يزعم أن الميت يخلق من جديد بعد أن يتمزق جسده كل التمزيق؟ فما تظنون بهذا الرجل الا أحد أمرين ، اما أنه مجنون ، واما أنه يفترى على الله الكذب حيث يقول ان الله أرسله ليبلغ الى الناس هذا ، فان الله لا يمكن أن يقول هذا .

ومركز السخرية هو تعبير (هل ندلكم) ؟ فان مقتضى هذا التعبير انهم يبحثون عن شخص أو عن شيء بالغ الغرابة أو الطرافة أو العجب لأنك لا تقول لشخص أنا أدلك الا اذا كان يبحث أو يطلب ما تدله عليه ، ثم جوهر موقف السخرية أن ما يقوله الرسول من حديث البعث بعد الموت هو الغرابة أو الطرافة التي يريدون أن يتسلوا بها ، والتي يريد بعضهم أن يدلهم عليها في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومهما يكن حلم الرسول ، ومهما تكن قوة احتمالها فهو بشر يتألم كما يتألم البشر ، ويتأذى كما يتأذى البشر ، بل المفروض أن تكون النفوس

الكبيرة أشد تأذيا ، وأعمق احساسا بالاهانة والاذلال ، والقرآن يكشف
ما يجول فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من احساس بالالم والضيق ،
وما يحاول أن يكظمه ويخفيه عن الناس من هذا الاحساس فى مثل قوله
تعالى :

[ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما
يقولون] (٢٩)

وحتى يمحو القرآن من نفس الرسول أثر سخرية الأعداء به ، فإنه
يؤكد له أن هذه السخرية ليس مقصودا بها هو لذاته ، وإنما هى سنة
اتبعها المشركون وأعداء الله عامة تجاه رسل الله أن يجعلوهم دائما موضع
السخرية والاستهزاء ، ولكن الأعداء يفاجأون بأن رسل الله فى النهاية
هم المنصورون ، وأنهم هم الخاسرون ، كقوله تعالى :

[ولقد استهزئء برسول من قبلك فحاق
بالذين سخروا منهم ما كانوا به
يستهزئون] (٣٠)

وهذا المعنى يتكرر بلفظه أيضا فى آية أخرى (٣١) ويتكرر صدر
الآية أيضا (٣٢) .

بل يؤكد القرآن للرسول أن الاستهزاء لم يوجه نحو رسل معينين ،
أو الى بعضهم دون بعض ، وإنما كان أسلوبا متبعا من الكافرين نحو
جميع رسل الله على الاطلاق ، وبدون استثناء ، كقوله تعالى :

[وما يأتيهم من رسول الا كانوا به
يستهزئون] (٣٣)

وكذلك قوله تعالى :

[وما يأتيهم من نبي الا كانوا به
يستهزئون] (٣٤)

ويسوق القرآن هذا المعنى فى أسلوب آخر بالغ التأثير النفسى ، حيث
يتضمن التحسر على البشر فى هذه السنة العجيبة الغريبة التى التزموها

(٢٩) ٩٧ سورة الحجر .

(٣٠) ١٠ سورة الانعام .

(٣١) ٤١ سورة الانبياء .

(٣٢) ٣٢ سورة الزمر .

(٣٣) ١١ سورة الحجر .

(٣٤) ٧ سورة الزخرف .

«رأى رسل الله وهى أن يجعلوهم دائماً موضع سخريتهم واستهزائهم ، فى قوله تعالى :

[يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول

الا كانوا به يستهزئون] (٣٥)

فالنداء على الحسرة لتدركهم (يا حسرة) ثم العطف والاشفاق عليهم فى وصفهم بأسمى وأوثق ما توصف به العلاقة بين الله ومخلوقيه وهو وصف (العباد) ، ثم هذه السخرية الضمنية التى يتضمنها أن الاستهزاء برسول الله أصبح عادة وهواية عند البشر ، كل ذلك يبرز أهمية المضمون ، ويزيد من لفت الأنظار اليه .

السخرية من المؤمنين :

الذين يتجهون الى الايمان بدعوة الأنبياء انما يكونون فى العادة من عامة الناس وفقرائهم ، وهذا أمر واضح ، ومن أوضح أسبابه :

١ - أن عامة الناس ليست لهم مزايا أو أوضاع اجتماعية يخافون فقدانها ، فنفسهم وعقولهم ليس فيها ما يثقلها ويشدها الى أوتاد معينة ، فيتاح لعقولهم حينئذ أن تفكر وتقدر دون خوف أو تأثر بعوامل اجتماعية خاصة بهم ، وسترى الحق واضحاً فى الايمان بالله ، فنتجه اليه ما لم تصدها عوامل اجتماعية أخرى كالخوف من سلطان السادة ، أو من آثار التمرد على العادات ، ولكن العامة حتى مع وجود هذه العوامل فهم أقرب الى الدين من الخاصة ، لأن الموانع من الدين عند الخاصة أمور شخصية تتعلق بذواتهم مباشرة ويشعرون بأنهم مستفيدون منها ، كشعورهم بالسيادة التى سيفقدونها حينما يتحولون الى اتباع للنبي ، أما موانع العامة من الدين فهى أمور خارج ذواتهم كروابط بينهم وبين المجتمع ، مثل رابطة الخوف من المجتمع .

٢ - أما أن المتجهين الى دعوة الأنبياء لا يكونون فى العادة من الأغنياء فلأن الغنى أيضاً هالة تحيط بصاحبها فتحول بينه وبين التجرد العقلى والنفسى للتفكير فى الدين وفى الاتجاه اليه ، فهو يخاف حينئذ من فقدان النفوذ أو الجاه الذى يتيحه له المال ، ثم ان الغنى يبعث فى نفسه عادة من التعالى والغرور ما يمنعه من أن يضع نفسه موضع التابع للنبي ،

أو موضع المؤاخى لأتباع النبى من الفقراء فلا يشعر لنفسه حينئذ بميزة عليهم ، والقرآن يؤكد أن الغنى يبعث فى النفوس مشاعر من الزهو والتعالى تصل الى حد الطغيان :

[أن الانسان ليطفى ، أن وآه استغنى] (٣٦)

فحينما يرى الانسان نفسه استغنى يبدأ فى الطغيان ، الا من تعصمه عوامل أخرى ، والشاعر الجاهلى يعبر عن هذا المعنى بقوله :

والظلم من شيم النفوس فان تجرد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

فالظلم من طبيعة النفوس القادرة عليه ، وأقدر الناس عليه الأغنياء ، لأن فى أيديهم وفى أموالهم حقوق الذين يتعاملون معهم ، ولديهم من أدوات الطغيان الكثير . والذى يدعو الى التمهيد السابق أن القرآن يؤكد أن المؤمنين بالأنبياء كانوا دائما موضع سخرية أقوامهم واستهزائهم ، فالواقع أن سخريتهم ليست من ايمان المؤمنين لذاته ، وانما من فقرهم وهوانهم ، غاية الأمر أن انحياز المؤمنين الى النبى ، واعتناقهم ديننا يخالف تقاليد المجتمع يعد فى نظر المجتمع تمردا وتحديا ، فهم يسخرون من هذا التناقض بين ضعف هؤلاء المؤمنين فى المجتمع ، ثم مقدرتهم على التحدى والتمرد ، ولو كان المؤمنون من السادة أو الأغنياء ما كانوا موضع سخرية ، وما تعرضوا لايذاء ، ومن هذا القبيل كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ربه أن يعز الاسلام بأحد العمريين ، عمر بن الخطاب وعمر بن هشام (أبى جهل) ، بل مضمون الدعوة أنهما لن يمنعا عن نفسيهما الأذى فحسب ، بل سيمنعانه عن غيرهما من المؤمنين .

وإذن فاجتماع الأمرين ، الفقر والايمان هو مصدر سخرية الأقسام من المؤمنين ، وان كان الفقر يعد سببا بعيدا والايمان هو السبب القريب المباشر ، لأن الايمان لذاته فى نظر الأقسام أمر شان خارج على عرفهم وتقاليدهم فهو موضع سخريتهم .

وأما أساس سخريتهم من الايمان بالله ، وعدم اقتناعهم بالدين كله فهو نظررتهم المادية الى الدين ، حيث يقيسونه بالمقياس المادى الحسى فلا يجدونه موافقا لهذا المقياس ، ولو استخدموا عقولهم مجردة عن الأهواء والأثقال المادية والاجتماعية لكانوا أقرب الى الهداية وأوضح بصيرة ، ولكنهم يلغون عقولهم ، ويستخدمون الأثقال المادية والاجتماعية ممثلة فى

(٣٦) ٦ - ٧ سورة العلق . والطغيان مجاوزة الحد فى أى شىء ، ومنه قوله تعالى

(انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ١١ سورة الحاقة ، ومنه الظلم لأنه مجاوزة

النظرة الحسية ، والنظرة من خلال التقاليد فيوغلون في الضلال ، فحينما يحدثهم نبي عن الله لا يستخدمون عقولهم في التفكير في الكون وفي أنه دائما متجدد ، وفي ان كل موجود لا بد له من موجد ، وكل حادث لا بد له محدث ، وانما يستخدمون حواسهم التي تصور لهم أن كل موجود لا بد أن تدركه الحواس ، فاذا لم تدركه حاسة من الحواس فهو غير موجود ، ولذلك طلب الكافرون أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا بوجوده ، كما قال اليهود لموسى عليه السلام :

[لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً] (٣٧)

وكل شيء ينظر اليه الكافرون نظرة حسية ، بينما الدين يقوم أساسا على الغيبيات ، فالله سبحانه لا تدركه الحواس ، وليس كمثله شيء يشبهه به أو يقاس عليه ، وكذلك البعث والجنة والنار والملائكة والوحي من الله كل ذلك غيب ، ومع ذلك فهو جوهر الايمان ، فالكافرون يرفضونه لأنه لا يخضع للحواس ، وهم لا يؤمنون الا بما تدركه حواسهم ، والقرآن يعرض صورا من تفكير المشركين ونظراتهم الحسية الى كل شيء في الدين كقوله تعالى ناقلا عن مشركى العرب بعض ما قالوه لمحمد صلى الله عليه وسلم في هذا المجال :

[وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِئًا تَفْجِيرًا ، أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَسُفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤَهُ] (٣٨)

فالله الذى يحدثهم عنه النبى لا يتصورون وجوده الا اذا رآوه أمامهم وكذلك الملائكة ، والجنة التى يحدثهم عنها لا يتصورونها الا اذا رآوها أمامهم جنة من جنات الدنيا ، وكذلك العذاب الذى يحدثهم عنه لا يتصورونه الا اذا رآوه فى صورة سقوط السماء أمامهم أو عليهم جهرة ، والوحي الذى يحدثهم عنه لا يتصورونه الا اذا عرج النبى الى السماء بجسده أمامهم ، بل يزيدون على ذلك أنهم لن يصدقوا بأى وحى اليه أو بأى كلام ينقله عن الله خلال رقيه الى السماء الا اذا كان أمرا حسيا فى صورة كتاب ينزل من السماء أمامهم فيقرءوه .

(٣٧) ٥٥ سورة البقرة .

(٣٨) ٩٠ - ٩٣ سورة الاسراء .

أما إذا لم يفعل الأنبياء ذلك فانهم سيكونون موضع سخرية أقوامهم
كما كانوا فعلا .

والقرآن يوجز هذا التفكير المادى من الكافرين فى تعبير :

[زين للذين كفروا الحياة الدنيا]

بمعنى أن التفكير المادى الدنيوى سيطر على نفوسهم ، وحيث لم
يتحقق لهم ذلك جعلوا المخالفين لتفكيرهم وهم المؤمنون موضع سخريتهم ،
كقوله تعالى :

[زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون

من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم

القيامة ٠٠٠] (٣٩)

بمعنى أن سخريتهم من المؤمنين نابعة من سيطرة المقاييس المادية
الدنيوية على نفوسهم فهم يرون المؤمنين بما يعتقدونه من الغيبات بصفة
عامة شاذين يستحقون السخرية والاستهزاء ، مع أن حقيقة الأمر أن
المؤمنين هم أصحاب الفكر السليم والنظرة الصحيحة ، وسيتبين للجميع
هذا يوم القيامة ، وهو معنى (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) .

يعرض القرآن صورة عملية من واقع سخرية أعداء الله بالمؤمنين
يدعوة الاسلام ، حيث يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم طلب من المسلمين
جمع الصدقة فى مناسبة التجهز للقتال ، فجاء أحد المهاجرين وهو
عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله ، بأربعة آلاف درهم ، وجاء أحد
الأنصار وهو أبو عقيل الانصارى بصاع واحد من التمر ، وقال انى قضيت
ليلتى أعمل أجيرا بصاعين ، فجنئت بأحدهما وتركت الآخر لعيالى ، فأخذ
أعداء الله يسخرون من الرجلين معا ، متهمين اياهما بالرياء والتظاهر ،
مع أن الرجلين مختلفان فى موقفهما المعيشى ، وان جمع بينهما الايمان
العميق ، ولكن أعداء الايمان لا يرضون عن شىء يتعلق بالايمان ، حتى
وان كان من باب الشىء ونقيضه ، ويروى أن هذا سبب نزول هذه
الآية :

[الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى

الصدقات والذين لا يجهدون الا جهدهم

فيسخرون منهم سخر الله منهم] (٤٠)

٠ (٣٩) سورة البقرة ٢١٢

٠ (٤٠) سورة التوبة

واللمز ليس عداوة مباشرة في صورة المواجهة ، وإنما هو نوع من السخرية والاستهزاء .

والقرآن يوضح في مواضع عديدة منه أنه كان من أسباب نفور السادة والملأ من الدخول في الأديان السماوية أنهم يأنفون من أن يجتمعوا مع الفقراء والعامّة الذين اعتنقوا الدين ، ويرون هذا نزولا بأقدارهم ومكانتهم الاجتماعية ، وقد كان هذا منهجا دائما للمشركين في كل العصور ، ومن ذلك قول قوم نوح له :

[أفؤمن لك واتبعك الأرذلون] ؟ (٤١)

وكأن وجود هؤلاء الفقراء المستضعفين من المؤمنين حول النبي هو المانع الوحيد لهم من الايمان .

والقرآن يعرض أيضا صورة من واقع الاسلام ضمن صور كثيرة في هذا المجال ، فان النبي صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على توسيع نطاق الاسلام وعلمه بنفور الخاصة من النزول الى مصاحبة العامة ، شغل عن عبد الله بن شريح المعروف بابن أم مكتوم وكان من فقراء المسلمين وكان كفيف البصر ضاق به ، وشغل عنه باستقبال عدد من سادة قريش راجيا أن يكون حسن تودده اليهم شارحا صدورهم للاسلام ، ولكن الله سبحانه يلوم رسوله لوما شديدا في هذا ، حتى كان هذا اللوم اسما لسورة مستقلة في القرآن ، في قوله تعالى :

[عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ٠٠] (٤٢)

فكان كلما قدم ابن أم مكتوم على رسول الله بعد ذلك يستقبله قائلا:
أهلا بمن عاتبني فيه ربي .

والقرآن ينوع عرض مشاهد السخرية من المؤمنين ، ومشاهد ذكريات هذه السخرية ، فكما عرضها في مشاهد الدنيا في عدة مشاهد فكذلك يعرض ذكريات هذه السخرية في الآخرة وعواقبها .

ومن هذه المشاهد مشهد في جهنم ، حيث يتلظى أعداء الله عذابها ، ويرى بعضهم بعضا ، ولكنهم يجولون بأبصارهم يبحثون عن هؤلاء

(٤١) سورة الشعراء .

(٤٢) سورة عبس .

القلّة من المؤمنین الذین كانوا یرونهم أرائل الناس وشرارهم ، والذین یوقنون بأنهم الیوم أسوأ الناس حالا كما كانوا فی الدنیا فی نظرهم أسوأ الناس حالا بفقرهم وهوانهم ، ویظنون ینحسرون ویتساءلون عنهم فلا یجدونهم ، ویتعجبون من ذلك لأنهم لا یشكون فی أنهم فی أسوأ الأحوال ، وجهنم الیوم هی أسوأ الأحوال ، وكأنهم لا یجدون حینئذ الا احد احتمالین لعدم رؤیتهم المؤمنین فی جهنم ، فاما أن یشكون المؤمنون قد تعددوا أن یختلفوا عن الأنظار خزیا وخجلا لعدم تحقق ما كانوا یحلمون به فی الدنیا من الكرامة والنعم فی الآخرة ، واما أن یشكون لقلّة عددهم تائهین بین هذا الزحام الشدید فلم تستطع العیون أن تتبین مكانهم ، ولكنهم فی كل حال لابد أن یشكون فی جهنم كما یتصور أعداء الله ، والقرآن یشیر فی هذه الصورة فی قوله تعالى :

[وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، اتخذناهم سخريا أم زاجت عنهم الأبصار] ؟ (٤٣)

وتعبیر (اتخذناهم سخريا) ؟ بمعنى لعل المؤمنین خجلوا من سخريتنا بهم فتواروا عنا حتى لا نراهم فنكرر سخريتنا منهم ، وشماتتنا فيهم حيث لم یتحقق لهم ما كان يعدهم به النبی ، وهذا على افتراض أن المؤمنین لابد أن یشكون حینئذ فی جهنم فی رأى المشركین .

ومن مشاهد الآخرة أيضا مشاهد تستعاد فيها ذكريات السخرية من المؤمنین ، ولكن من زاوية أخرى ، هی اظهار النتيجة ، نتيجة سخرية أعداء الله بالمؤمنین فی الدنیا ، وهى خزی الساخرین ، وقوز المسخور منهم فی الآخرة ، ولذلك يسوق الله سبحانه مثل هذه الصورة عن طريقه هو ، وبكلامه هو سبحانه ، كقوله تعالى للذین كانوا یشخرون من المؤمنین فی الدنیا ، وهم الیوم فی جهنم :

[قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، انه كان فريق من عبادی یقولون ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمین ، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ، انى جزيتهم الیوم بما صبروا انهم هم الفائزون] (٤٤) .

(٤٣) ٦٣ سورة ص .

(٤٤) ١٠٩ - ١١٢ سورة المؤمنون .

ففى المشهد السابق كان أعداء الله هم الذين يستعيدون ذكرى سخريتهم بالمؤمنين ، ولكن فى هذا المشهد فان الله سبحانه هو الذى يذكرهم بهذه السخرية ، مذكرا اياهم تذكيرا مؤلما بنتيجة سخريتهم بالقياس اليهم هم ، والى المؤمنين ، فاما هم فكانت النتيجة هذا العذاب الذى يصطلونه اليوم ، وأما المؤمنون فكانت نتيجة صبرهم على الايذاء والسخرية أنهم اليوم هم الفائزون بالجنة والنعيم ورضوان الله ، ومن الواضح أن ايراد مثل هذا المشهد فى القرآن يتضمن انذارا وتحذيرا للذين يسخرون من المؤمنين بالمصير الذى ينتظرهم يوم القيامة ، كما يتضمن سلاحا نفسيا للمؤمنين ، يعينهم على احتمال ما يلقون فى سبيل الايمان من سخرية وايذاء ، حين يعلمون الوضع الذى سيكونون فيه هم ، والوضع الذى سيكون فيه الساخرون منهم .

وتنتقل مشاهد القرآن من جهنم الى مشاهد فى الجنة ، يسوقها الله سبحانه من جهته هو ، من باب التحذير والانذار أيضا للساخرين من المؤمنين ، وكذلك لتثبيت ايمان المؤمنين وتقوية احتمالهم لما يلاقون من سخرية وأذى ، ومن ذلك هذا المشهد فى الجنة ، فى سياق وصف النعيم الذى يتمتع به المؤمنون فى الجنة ، والكرامة التى رفعهم الله اليها بعد أن كانوا موضع سخرية الناس فى الدنيا ، ومن ذلك هذا المشهد فى قوله تعالى :

[٠٠٠ عينا يشرب بها المقربون ، ان الذين أجمعوا
كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم
يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ،
واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لمضالون] (٤٥)

فالمشهد يستعيد ذكرى سخرية أعداء الله من المؤمنين بالله . مصورا كيف كانوا يحولون مجالسهم الى تسلية وتندر بالمؤمنين ، وكيف أنهم يتغامزون حين يمر بهم أحد المؤمنين ، ولا يكتفون بذلك ، وانما ينقلون هذه التسلية من المجالس الى البيوت ، فيكملون بقية أوقاتهم فى البيوت ساخرين مستهزئين بما عليه المؤمنون من الايمان ، موقنين بأن الايمان بالله ضلال وجهل .

ولكن المشهد يبرز النتيجة التي تطعن صدور الساخرين ، بينما تملأ صدور المؤمنين ثباتا و يقينا ورضا ، وهذه النتيجة هي :

[فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينتظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون] ؟ (٤٦)

فالمشهد يقلب الوضع الى ما هو أحسن بالقياس الى المؤمنين المسخور منهم ، فكما كان المشركون يتخذون مجالس يسخرون فيها من المؤمنين ، فالمؤمنون اليوم في مجالس خير من مجالس أولئك ، مجالس على الأرائك في الجنة ، وهم يسخرون من أعداء الله الذين كانوا في الدنيا هم الساخرين ، وكما كان أعداء الله ينتظرون الى المؤمنين حين يمرون بهم ساخرين منهم ، فكذلك المؤمنون في الجنة (ينتظرون) الى أعداء الله وهم يصطلون من عذاب الله في جهنم ، وحينئذ يبرز هذا السؤال البالغ السخرية من الكفار (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ؟ بمعنى هل أعطاهم الله ثواب ما كانوا يفعلونه في الدنيا من السخرية بالمؤمنين ، ومن أبرز مواضع السخرية في الآية لفظ (ثوب) المبنى للمجهول ، فان العذاب الذي هم فيه ليس ثوابا لهم ، وانما هو عقاب ، فالتعبير من باب السخرية والتهمك ليكون مجازاة لهم على سخريتهم بالمؤمنين ، والسخرية تنبع من أن القرآن يشبه سخرية الكافرين من المؤمنين بالعمل الحسن ، وكل عمل حسن له ثواب مادي أو معنوي ، وكأن الكافرين كانوا ينتظرون ثواب سخريتهم من المؤمنين ، فيقال لهم في عذاب جهنم هذا ثوابكم ، أو هل ترون هذا ثوابا مناسباً لعملكم ؟

سخرية القرآن

من الواضح أن أعداء الله هم الذين يبدعون الحرب والهجوم على الدين ممثلاً في شخص النبي ودعوته وأتباعه من المؤمنين ، لأن دعوة الأنبياء جميعاً دعوة سلم ، تقوم على اللين والحسنى ، ولا يتجاوزون الدعوة باللسان والمنطق العقلي الى الايمان بالله وحده ، وهذا هو جوهر كل دعوات الأنبياء على الاطلاق ، ولكن الأنبياء دائماً يواجهون بنوعين من الكفر ، أحدهما انكار وجود الله ، والآخر الاعتراف بالله ولكن مع وجود شركاء له من الآلهة التي يعبدونها من دون الله أو مع الله ، فكل دعوات الأنبياء تنحصر أساساً في وحدانية الله التي تتضمن الشقين ، الايمان بالله ، وبأنه واحد لا شريك له ، وعندما يتخطى الانسان هذه العقبة فكل شيء في الدنيا أيسر ، وهذا معنى الحديث الشريف :

[خير ما قلته أنا والنبليون من قبلي لا اله الا الله]

فعندما يؤمن الانسان بوحدانية الله ، فسيؤمن بالرسول الذي أرسله ، وينقاد لله فيما يأمره به وينهاه عنه ، وحتى اذا عصى الله ، فانه اذا كان صادق الايمان بالله فسيخاف من غضب الله وعقابه ، وهذا الخوف نفسه توبة الى الله تنتج مغفرة الله ورضاه ، بخلاف الذي وضع بينه وبين الله سدا هو الكفر ، ولهذا يتكرر في القرآن مثل قوله تعالى :

[ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك

لمن يشاء] (١)

(١) ٤٨ سورة النساء وأيضا ١١٦ سورة النساء .

فكل نبي لا يطلب من قومه أساسا غير وحدانية الله ، ولكن الغالبية العظمى من الناس ترفض هذه الدعوة ، ثم لا تكتفى بالرفض ، وإنما تبدأ في إيذاء النبي وتابعيه بأساليب ووسائل مختلفة حسب اختلاف البيئـة والملابسـات ، مما هو معروف ، حتى ان بعض الأنبياء كان يقضى حياته يدعو قومه الى الايمان فلا يستجيب له بضعة أفراد ، والباقيون يعلنون الحرب النفسية على النبي ودينه وأتباعه ، ومن أهمها حرب السخرية ، وكذلك كان الحال فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل لا زال الحال حتى اليوم . وسيظل كذلك الى ما شاء الله ، فالصراع بين الايمان والكفر ، والخير والشر صراع ملازم للبشرية منذ وجدت ، وسيظل حتى تزول . ومن الواضح اليوم أن الدين بصفة عامة ، وخصوصا الاسلام موضع سخرية أعداء الله فى العالم كله ، بل موضع سخرية المنافقين من بين المسلمين أنفسهم ، وغالبيتهم من المثقفين الذين تغذت عقولهم مما يديسه أعداء الله من سموم فكرية ، فأثمرت هذه السموم الحادا عميقا فى نفوسهم ، لا يستطيعون اعلانه لأنهم فى نظر المجتمع مسلمون ، فيحولونه بدورهم الى سموم يبتونها من خلال ما يقدمونه فى ثوب ثقافى ، سواء الى طلابهم أو فى وسائل الاعلام المختلفة ، وهؤلاء المنافقون ليسوا قلة ، بل هم كثرة منتشرة بطريقة كأنها مدروسة ومقـسـدرة فى كل أنحاء الأمة الاسلامية ، وبالذات فى مجالى الثقافة والاعلام ، وهما أخطر مجالين للتوجيه الفكرى والنفسى .

والاسلام دين حى ، وقد تعهد الله سبحانه باستمرار حياته ، من خلال حياة القرآن ، فان القرآن دستور الاسلام ، بل هو روح الاسلام ، وقد تعهد الله بحفظ القرآن فى قوله تعالى :

[انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون] (٢)

وبمنطق التلازم أو التعاقب بين الأضداد أو ما يشبهها ، فانه ما دام الخير موجودا فلا بد أن يكون الشر أيضا موجودا ، وما دام الايمان موجودا فلا بد أن يكون الكفر أو الالحاد أيضا موجودا ، ومقتضى وجود الاسلام حيا أن يكون مقابله وهو الكفر به أو الالحاد فيه موجودا ، ولست أعنى بمقابله المجتمعات غير الاسلامية ، فمن البدهى أن غير المسلمين أعداء للاسلام صراحة أو حكما ، ولكنى أعنى المجتمع الاسلامى نفسه ، فالمجتمع الاسلامى لا نستطيع أن نعد كل أفراده مؤمنين بالاسلام ، لأن هناك فرقا

كبيرا وشاسعا كما هو معروف بين معنى الاسلام وهو الطاعة والانقياد ، ومعنى الايمان وهو الاقتناع واليقين النفسى والعقلى ، والاسلام يورث ، ولكن الايمان لا يورث ، بمعنى أن المولود فى مجتمع اسلامى أو غيره ينشأ عادة وهو معتنق عادات هذا المجتمع وتقاليده ، ومنها دينه ، لأن أى دين يتحول فى المجتمع الى ما يشبه العادات والتقاليد فى عباداته ومظاهره ، ولكن الأفراد ذوى التفكير كالمثقفين حينما يحتكون بفكر غير الفكر الاسلامى لابد أن تحدث فى نفوسهم ولو بدون قصد موازنة بين فكر الاسلام وغيره ، ولابد أن يتردد هذا فى داخل نفوسهم ، فيصبح الاسلام فى جوهره الدينى كأنه معروض عليهم من جديد ، كما كان معروضا على الناس فى بدء الاسلام ، فالنفوس التى يلقى الله فيها التهيؤ للايمان واليقين الدينى تزداد تمسكا بالاسلام ورسوخا فيه ، والنفوس التى لا يلقى الله فيها هذا التهيؤ تمتلئ بالوساوس والشكوك ، فتنتهى الى أى لون من ألوان الالحاد ، كالشيوعية أو الوجودية أو البهائية أو النزوع الى أى دين أو مذهب آخر غير الاسلام ، ويكفى للالحاد فى الاسلام أو فى أى دين أو مذهب عدم الاقتناع به ، فان الايمان هو اليقين النفسى والعقلى ، فاذا نزل عن هذه الدرجة الى أية درجة من الشك أو الظن أو الاحتمال لم يكن ايمانا ، وهذا ما حدث لكثير من المثقفين فى كل أنحاء الأمة الاسلامية الذين يعلنون انتماءهم الى مذاهب أو عقائد غير الاسلام ، وأغلب الظن أن الذين لم يعلنوا علانية انتماءهم الى مذاهب أخرى أكثر عددا من العلنيين ، وهؤلاء هم المنافقون فى الاسلام ، ولكنهم لنشاطهم فى مجتمع اسلامى ، وارتباط مصالحهم ومنافعهم بهذا المجتمع لا يستطيعون اعلان انسلاخهم من الاسلام ، ثم لا يكتفون بحمل الالحاد فى نفوسهم ، وانما يلتمسون كل سبيل لبثه ودسه فى وسائل كثيرة متنوعة كما نشاهد من واقع الحياة اليوم (٣) .

واذن فاعتناق الاسلام شيء ، والايمان النفسى والعقلى به شيء آخر ، ومن روائع القرآن فى هذا قوله تعالى :

[قالت الأعراب آمنا قل لم يؤمنوا ولكن قولوا

أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم] (٤)

(٣) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة

للكتاب .

(٤) سورة الحجرات .

بمعنى أنكم يصدق عليكم وصف الاسلام بمعنى الطاعة والانقياد ، ولكن مرحلة الايمان واليقين النفسى والعقلى لا تتحقق لكم فور اعلان اسلامكم ، فاذا داومت على الطاعة ، وتفهمتم الدين ، واقتنعت به نفوسكم وعقولكم ينتظر لكم وصف الايمان الذى هو اليقين النفسى والعقلى ، وهو معنى (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ، ولكنهم وان لم يستحقوا بعد وصف الايمان الا أنهم فى الطريق اليه ، أما الذين نتحدث عنهم فى المجتمعات الاسلامية اليوم فليسوا فى طريق الايمان ، وانما فى الطريق المضاد للايمان ، ورغم أنهم يتزيون بزى الاسلام ، وينطقون شهادة الاسلام ، بل كلما شعر أحدهم بأن ضوء الدين اتجه اليه ليكشف نفاقه سارع الى الذفاخر بشدة تمسكه بالاسلام ، وبما يؤديه من عباداته ، ليتخذ من هذا غطاء يحاول ستر الحاده به .

والأسلحة التى يستخدمها أعداء الله ضد الاسلام لا تكاد تحصى فى كثرتها وتنوعها ، ولكن الذى يعيننا منها هنا سلاح السخرية الذى استخدموه ضد كل شىء فى الدين كما رأينا فى النبذة السابقة ، وكما نرى اليوم فى السخریات المرسومة والمقدرة التى تصوب نحو الدين من كل وجه من أوجه أعداء الله الظاهرين ، وأعداء الله المنافقين .

وعلى سبيل المثال فان أعداء الدين يصوغون شعارات فى صورة مصطلحات للسخرية من الذين يتمسكون بالدين ، وفى الوقت نفسه للتفجير من التمسك بالدين ، وحينما يصوغون مصطلحا يركزون كل وسائل الاعلام لابرازه والتشهير بمن ينطبق عليه ، والسخرية الشديدة ممن يلصق به ، فاذا خبا بريق هذا المصطلح يكوذون قد أبرزوا مصطلحا جديدا تنقل رسائل الاعلام أضواءها وأبواقها اليه ، ولناخذ من هذه المصطلحات على سبيل المثال ثلاثة ألفاظ تداولها هذا القرن العشرون بالترتيب فى أحقاب متوالية ، وهى :

التعصب :

انطلق دوى هذا المصطلح فى الحقبة الأولى من هذا القرن ، وجلجلت أصدائه فى أنحاء المجتمع بتركيز شديد من وسائل الاعلام ، فى تصوير أن الذى يظهر أى تشبث بالدين أو تمسك به أو دفاع عنه فهو يستحق أن يوصف بهذا الوصف وهو التعصب الذى تصوره وسائل الاعلام فى صورة بالغة القبح والشذوذ ، وكأن المتعصب شخص منطو على نفسه وعلى ديقته ، شديد النفور بل الكراهية لكل الناس وكل الأديان ، بل كأنه امرؤ يعيش فى الحياة وبين الناس مغمض العينين ، أصم الأذنين ، موثق اليدين والرجلين ، لا يرى ولا يسمع ولا يتحرك الا فى صومعة محكمة الاغلاق عليه ، لا تتيح

نه أن يحس بشيء مما حوله بأية حاسة من حواسه ، لأن أبواق أعداء الدين تصور مجرّداً من كل حاسة الا حاسته الدينية السطحية ، وقد لا يكون هذا الذى يصفونه بالتعصب شديد التمسك بدينه ، ولا شديد التوافق فى سلوكه مع مقتضيات دينه ، ولكنهم يريدون أن يجعلوا من مجرد الانتماء الى الدين سبة ينفر منها كل انسان .

وحيث ان أعداء الدين يكونون عادة جماعات منظمة ذات أهداف محددة ، وهم يحرصون دائماً حرصاً شديداً على أن يملكوا أزمة التوجيه الفكرى فى المجتمع ، وخصوصاً زمام الثقافة بما تشتمل عليه من وسائل التعليم والتأليف وغير ذلك ، وزمام الاعلام بكل ما يشتمل عليه من وسائل الصحافة والاذاعة ووسائل الترفيه الهادف المعروف بالفن فى كل صورته ، فحينما يطلق هذا الوصف وهو التعصب على شخص فى خلال حديث أو جملة قد يبدو هذا شيئاً عابراً أو عادياً ، ولكن أعداء الدين لا بد أن يجعلوا ذلك فى سياق يجعل من هذا الوصف كأنه قذيفة قاتلة اجتماعياً لمن توجه اليه ، وتترتب على ذلك أمور كثيرة منها الحيلولة غالباً دون من يوصف بالتعصب والوصول الى أى منصب أو ميزة ، فان أعداء الدين عادة يكونون كما سبق جماعات منظمة يجمعها العداء للدين ، والشعور بأنهم يواجهون عدواً مشتركاً وهو المؤمنون ، وقد ترددت فى القرآن الكريم الإشارة الى هذا المعنى كقوله تعالى :

[المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ٠٠] (٥)

فانهم حينما يكونون فى مجتمع مؤمن يجمعهم الشعور بالخطر فيصبحون كأنهم شخص واحد (بعضهم من بعض) يديرون أمرهم فيما بينهم بتنظيم وتقدير كما يشير القرآن الى نحو ذلك فى كثير من مواضعه كقوله تعالى :

[واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى

شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون] (٦)

وشياطينهم هم مركز قيادتهم ، وقيادة تجمعهم ، والذى يعيننا من هذا هنا أن تجمعهم المتغلغل فى كل مكان وخصوصاً فى الأماكن الهامة فى المجتمع يستطيع أن يحارب من يوصف بالتعصب فيحول بينه وبين الوصول الى أى مكان ذى قيمة ، ويضع العقبات أمامه فى كل طريق يسير فيه ، ليكون عبرة للمتمسكين بالدين ، وتنفيروا لكل راغب فى الاتجاه الى الايمان .

(٥) ٦٧ سورة التوبة .

(٦) ١٤ سورة البقرة .

ولكن اليسير من التأمل فى هذا المصطلح وهو التعصب يكشف لنا مدى التضليل والتزييف فى دلالاته التى يريدونها ، فان التعصب للدين بمعنى التمسك والتشبث به والدفاع عنه هو أمر من صلب الايمان نفسه ، فلا يعد المرء مؤمنا بعقيدة أو بأى شىء الا كان متمسكا به ومستعدا للدفاع عنه ، والمؤمن الذى لا يتشبث بعقيدته ولا يدافع عنها لا يعد أصلا مؤمنا ، بل مدعيا ادعاء كاذبا أو خادعا ، وأعداء الدين يعرفون هذا ويقرونه فى كل شىء الا فى الدين ، فحينما يتحدثون مثلا عن الوطنية يؤكدون بل ويبالغون فى أن المواطن لابد أن يتشبث بانتمائه الوطنى ، وأن يدافع عن وطنيته بكل ما يملك ، بل حينما يتحدثون عن الموقف أو الرأى يؤكدون أن صاحب الموقف أو الرأى لابد أن يتمسك بموقفه أو رأيه ، ولا بد أن يدافع عنهما ، ويكون هذا هو الوضع الصحيح المحمود فى كل شىء الا فى العقيدة فان التشبث بها أو الدفاع عنها فى زعمهم هو الشىء القبيح المذموم ، وهم ولا شك أعلم الناس بأنهم فى هذا كاذبون ومخادعون ، فان العقيدة هى القيادة الحقيقية التى صاغت فكر البشرية وحضارتها وثقافتها فى كل العصور والأجيال ، سواء أكانت عقيدة صحيحة أم باطلة كالحضارة الفرعونية التى نبعت كلها من العقيدة ، وكل مهمة الدين أن يصحح هذه القيادة حتى لا يضيع الانسان حياته فى طريق خاطيء ، وحتى لا تضيع البشرية أيضا حياتها على الأرض فى ضلال الطريق .

الرجعية :

وحيثما خبا بريق مصطلح (التعصب) أبرز أعداء الدين مصطلحا آخر فى الحقبة الثانية من هذا القرن ، وهو اصطلاح (الرجعية) ليكون سلاحا للسخرية أشد ايلاما وأوسع شمولاً ، ويصوب ليس نحو المتمسكين بدينهم فحسب ، وانما أيضا نحو كل من يهتم بالتراث ، أو يحاول احياؤه أو الدعوة اليه ، أو يرى فى الماضى كله ما يستحق أن يرجع اليه ، أو ينظر اليه ، سواء أكان ماضيا دينيا أم علميا ، ولكن هذا الخطر فى الرجوع الى الماضى ينتهى عند ماضى الاسلام الدينى والعلمى والحضارى ، أما اذا تجاوز الرجوع ذلك الى الايغال فى الماضى البعيد كالرجوع الى ماضى الفراعنة أو الاغريق أو أى أمة ، فانه رجوع حسن مفيد ، بل هو رجوع عظيم النفع والعون على التقدم الحضارى والعلمى ، فان العثور على حجر أثري ، أو كلمة هيروغليفية فرعونية ، أو جملة تنسب لمفكر اغريقى مهما تكن دلالتها أو قيمتها صغيرة أو كبيرة فانها فى رأيهم تدفع البشرية درجة أو درجات فى سلم الحضارة والترقى ، أما العيب فى رأيهم كل العيب ، والجهل كل الجهل والسفه كل السفه ، وقل ما شئت من ألفاظ الامانة والسخرية فهى لمن ينظر الى أى شىء من ماضى الاسلام أو ما يتعلق

به ويتصل بحضارته ، سواء من اللغة ، أو العلم أو النهضة المعمارية أو الفنية أو أى شئ يرتبط بالاسلام وتاريخه ، فقد وجدوا أن الاسلم له جذور تغذيه ، وله فروع أثمرها فى حضارته ، ومن جذور الاسلام اللغة العربية التى اذا ندرت تقطعت الجسور الموصلة الى الاسلام بطريق مباشر ومما يتصل باللغة العربية الآداب العربية ، سواء من الجاهلية والاسلام ، وأما فروع الاسلام فكثيرة منها النهضة الفكرية والعلمية التى غمرت العالم فى القرون الأولى من الاسلام ، وأعداء الاسلام لا تعنيهم هذه التفاصيل لذاتها ، وانما يعنيهم أن يحاولوا تقطيع كل الخيوط التى تربط المسلمين بالاسلام ، وتشويه كل ما أثمره الاسلام من حضارة فى أية صورة ، ليحاولوا زعزعة عقيدة الاسلام فى نفوس المسلمين ، وليحاولوا قطع الطريق على من يريد الاتجاه الى الاسلام من غير المسلمين .

وحشدوا كل وسائل الاعلام بأقلامها وألسنتها وأفانينها المسموعة والمصورة لتصب سيلا دافقا من السخرية على الرجعية والرجعيين ، حتى أصبحت كلمة (الرجعية) سبة من أقبح السباب ، بل ان كثيرا من السباب المؤلمة ، والسخريات المزرية قد يشار بها الى شخص فلا تبلغ به من الهوان ما يبلغه وصفه بأنه (رجعى) .

وحيث كان أبناء الأزهر بحكم ثقافتهم هم حراس التراث ودعاة الاسلام ، فقد نالوا من سخرية أعداء الاسلام باسم الرجعية الكثير من السخريات ، وعلى سبيل المثال كانت تصدر فى أواسط هذا القرن مجلة فكاهية أسبوعية تسمى (البعكوكة) تصوغ كل موضوعاتها وآرائها فى أسلوب فكاهى يأخذ صورة النقد الساخر ، وفيها باب ثابت للشعر الفكاهى ، يؤخذ فيه بيت من الشعر الذائع ، ثم تنسج على منواله قصيدة فكاهية ، تطرق الموضوع نفسه بوصفه عنوانا ، ثم تسوق ما تريد من معان وآراء فى هذا الموضوع ، فأخذوا ذات مرة مطلع قصيدة شوقى فى تحية الأزهر وتمجيده ، وهو :

قم فى قم الدنيا وحى الأزهر
وانثر على سمع الزمان الجـوهرا

فصاغوا كما يلى :

قم فى قم الدنيا وحى الأزهر
قوم اذا قيل أقدموا رجـعوا ورا

ثم ساقوا بقية القصيدة فى سخرية شديدة من الأزهريين الذين يخالفون فى رأيهم سنة الحياة ، فبينما الحياة تدعو الى التقدم والحضارة

هم يسعون الى التأخر والتخلف بشعار الرجعية الذى أبرزوه فى المطلع (رجعوا ورا) وكل جريمة الأزهر عند أعداء الاسلام أنه (يرجع) الى الاسلام وشريعته وتراثه ، فهو اذن (رجعى) ولكنها عندهم جريمة لا تعدلها جريمة أخرى .

التنوير :

و حين خبا أيضا بريق مصطلح الرجعية أبرزوا فى الآونة الأخيرة بيننا مصطلحا آخر ، هو مصطلح (التنوير) بمعنى الانارة والاضاءة ، وهم يعنون به أن عقول الشعب تحتاج الى انارة واضاءة لازالة الظلام الذى خيم عليها ، والمصدر الوحيد فى رأيهم لهذا الظلام هو الاسلام ، الذى يروونه محض خرافات وأساطير ، وهذه الخرافات والأساطير هى التى أفسدت تفكير الشعب وأظلمت عقوله فهى فى حاجة الى (تنوير) وقد هياهم الله سبحانه هم لينيروا عقوله كما يزعمون فى أنهم هم الذين يحملون أمانة (التنوير) ومسئوليته .

وقد بدأت أيضا وسائل الاعلام تحشد أبواقها وألسنتها وأقلامها ورسائل وسائلها لابرار (التنوير) ومحاولة جعله هو القضية القومية التى يجب أن تحشد لها كل الامكانات ، وتتقدم على غيرها من القضايا ، وقد راينا دوى حملة (التنوير) فى أرجاء المجتمع .

فهذه هى المعارض الثقافية العامة تخصص كل ندواتها الثقافية اليومية لتكون تحت شعار (التنوير) اضافة الى ما يتوالى من ندوات ومحافل ثقافية ، ومقالات عديدة متتالية فى هذا الموضوع ، وهذه هى الجامعات ، سواء فى القاهرة أو الأقاليم تتخذ من ذكرى طه حسين مناسبة أو ستارا لحملة (التنوير) ، بشعار أن طه حسين هو قائد (التنوير) أو هو من أبرز قادته ، حيث كان من أشد أئمة التنوير تلميحا وتصريحا بأهداف دعائه ، ومن أمثلة ذلك أنه يتحدث عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول الاسلام فيصرح بما مضمونه ان ذلك كله ليس الا خرافات وأساطير أراد أن يسلى بها عواطف الناس ووجدانهم ، وذلك فى مقدمة كتابه (على هامش السيرة) ، وأيضا من المعروف أن طه حسين ظل طوال حياته يعلن عداوته البالغة للأزهر ، ويطالب علانية بالغاء التعليم الدينى الذى يمثله الأزهر ، وقد كتب فى ذلك مقالا مشهورا بعنوان (الخطوة الثانية) ومضمونه أنه حيث نجحت الثورة فى الغاء القضاء الشرعى ، فعليها الخطوة الثانية وهى الغاء التعليم الدينى ، وهكذا ، فهو اذن جدير بأن يحتفل دعاء (التنوير) بذكراه ، وأن يجعلوه اماما لدعوتهم الى انارة العقول من خرافات الاسلام التى ملأت العقول ظلما كما يزعمون .

وهؤلاء المنافقون الذين يتحدثون باسم الاسلام ويتزيفون بزيه وفى الوقت نفسه يهدمون فى قواعده ، ويطعنون فى صرحه خطورتهم أن كثيرا من صغار الثقافة الاسلامية ، أو صغار الادراك العقلى قد ينخدعون ببعض تولهم ، كما يقول تعالى فى سياق الحديث عن المنافقين :

[وفيكم سماعون لهم] (٧)

خصوصا وأن المنافق لن ينجح فى نفاقه ، بل لا يستطيع أن يكون منافقا الا اذا كانت لديه مهارات تحدث عنها القرآن بتوضيح فى مواضع كثيرة منه وخصوصا فى سورة (المنافقون) ومن هذه المهارات اجادة الحديث ، كقوله تعالى :

[ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا

ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ،

وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها] (٨)

ومن هنا كان النفاق أخطر من الكفر الصريح الظاهر ، وبالتالي فان جريمته أكبر وأشد ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

[ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار] (٩)

والعقاب يتحدد بمقدار الجرم ، فكأنهم فى الدرك الأسفل مبنى على أن جريمتهم وهى النفاق أسوأ جريمة على الاطلاق ، بما فى ذلك الشرك والكفر الظاهر الصريح ، وهذا واضح فى واقع المسلمين اليوم وفى كل عصر ، فان الهجوم على الاسلام حينما يأتى من غير المسلمين فانه يثير حمية المسلمين للدفاع عن دينهم ، فينبغى للدفاع عنه حتى ذوو الايمان الواهى ، أما الهجوم على الاسلام من شخص يؤكد أنه مسلم ، وأنه لا يريد الا رفعة الاسلام والنهوض به ، وان ما يعيبه على الاسلام أو المسلمين انما هو من باب محاولة تنقية عقيدة المسلمين مما يكون سببا فى ضعفهم او تخلفهم كما يزعم المنافقون اليوم من أمثال دعاة (التنوير) لعقول المسلمين فهذا هو الخطر الدايم ، لأن هذا التغرير والخداع سينطلى على بعض غير قليل من عامة الشباب والمتقنين ، ثم يصبح هذا التشكيك كالداء الذى يسرى فى داخل الجسد الاسلامى سواء بسرعة أو ببطء .

(٧) ٤٧ سورة التوبة .

(٨) ٢٠٤ سورة البقرة .

(٩) ١٤٥ سورة النساء .

موقف القرآن :

وننتهى من هذا كله الى أن القرآن حين يستخدم السخرية لا يستخدمها للهجوم ، وانما للدفاع ، حيث ان أعداء القرآن منذ بدء الاسلام حتى اليوم استخدموا ولا زالوا وسيظلون يستخدمون كل أسلحتهم ضد الاسلام ، ومن أبرز أسلحتهم سلاح السخرية ، بل هو السلاح الذى يؤكد القرآن كثيرا أنه ما من رسول من رسل الله الى البشر الا وعانى من هذا السلاح الذى يواجهه به قومه وهو السخرية والاستهزاء ، كقوله تعالى :

[يا حسرة على العباد ما يأتيتهم من رسول الا

كانوا به يستهزئون] (١٠)

ومن آثار اعجاز القرآن ، وكونه من عند الله أن يكون كاملا فى الوفاء بكل ما يتعلق بالاسلام وتحتاجه شريعته بوصفه ديننا يجمع بين مقتضيات الدين والدنيا ، ومن ذلك :

أولا :

القرآن يحتوى على كل أساليب الدعوة الى الاسلام ، فان للدعوة أساليب متعددة متنوعة بتنوع عقليات الناس ونفسياتهم وطبائعهم ، ومن المعروف حتى فى التعامل بين الناس أن بعضهم يؤثر فيه الاحسان ويجتذبه به ، بينما بعض آخر لا يؤثر فيه الا التخويف والوعيد ، وبعضهم يفهم حتى بالاشارة ، وبعضهم لا يفهم الا باطناب وبسط ، وبعضهم لا يحسن الاصغاء الا للقصص وأسلوب الاثارة العاطفية والوجدانية ، بينما بعضهم يكفيه الأسلوب العادى أو الخبرى ليلقى اليه بكل سمعه ، وهكذا يتنوع الناس ويختلفون اختلافا شديدا ، ولهذا نجد القرآن تتنوع أساليبه تنوعا كبيرا ، بين أساليب الوعد والاغراء ، وأساليب الوعيد والتخويف ، وأساليب القصة والحوار ، وأساليب المنطق والتفكير ، وأساليب العبرة والموعظة وغير ذلك ، بحيث نجد القرآن مستوعبا وشاملا كل الأساليب التى تحتاجها الدعوة الى الاسلام ليكون القرآن بذاته دعوة كاملة الجوانب والفروع ، وليكون مدرسة كاملة شاملة لكل ما يحتاجه الدعاة الى الاسلام من أسس التوجيه اذا أحسنوا فهم القرآن والاستفادة من تركيزه وايجازة ، وشعار هذا فى القرآن :

[ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة] (١١)

• (١٠) سورة يس

• (١١) سورة النحل

فان من حكمة الدعوة مراعاة أن الناس يختلفون فى الأسلوب والطريقة التى يمكن أن تستميلهم الى الاسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم هو امام الدعاة ، لأنه أفهمهم للقرآن ، وأكملهم فى تطبيق توجيهه ، كما قالت عائشة حين سئلت عن خلق النبي (كان خلقه القرآن) بمعنى أن خلقه كان تطبيقا عمليا كاملا للقرآن ، وقد بلغ من حكمته فى الدعوة أنه كان فى مكة مصارع رهيب يسمى ركانة ، لا يصمد أمامه فى المصارعة البدنية أحد ، فقال له النبي (أرأيت يا ركانة ان صرعتك ، أتسلم ؟) قال : نعم ، ثقة فى أن أحدا لا يستطيع أن يغلبه ، فصارعه ، فصرعه النبي ، فقال ركانة : لقد أخذتني على غرة ، فلو أعدت المصارعة مرة أخرى ، فصارعه مرة أخرى ، فصرعه النبي أيضا ، ولعل النبي بطبيعة الحال كان قد دعاه بالمنطق العقلى فلم يستجب ، فوجد أن مثله لا يفهم ولا يستجيب عن طريق عقله ، وانما عن طريق قوته البدنية التى ملأته غرورا ، والنبي يملك هذه القوة البدنية ، فجعلها أسلوبا من أساليب الدعوة ، وفى نطاق (الحكمة) لأنها أسلوب سلمى بناء على اتفاق الطرفين ، وليس أسلوب بطش أو بغى .

ومن أساليب الدعوة فى القرآن السخرية ، فان الشرك بالله كان يقوم على دعائم راسخة فى المجتمع ، منها تقديس الآلهة ، ومن أصلب قواعد تقديس الآلهة أن عبادة الآلهة انتهت الى صورة عصبية قبلية ، حيث كان لكل قبيلة اله تعبد ، ولكن أهم ما فى هذه العبادة أن هذا الاله أصبح رمزا وشعارا للقبيلة ، ومن قواعد الشرك أيضا تراث الآباء والأجداد فى عبادة هذه الآلهة ، فان ذكرى الأجداد من السادة كان لها عندهم نوع من القداسة ، فما داموا كانوا يعبدون هذه الآلهة فان مخالفتهم تعنى تخطئتهم وتسفيهم ، وهذا أمر غير متصور فى مقابل تقديس الآباء والأجداد ، ولكن القرآن جعل آلهتهم موضعا ومجالا للسخرية ، كما جعل تقديس الآباء مع ضلالهم أيضا مجالا للسخرية ، وكانت هذه السخرية من أبلغ الوسائل لدعوة العقول الى التفكير الموضوعى المحايد فى حقيقة الآلهة التى يعبدونها .

ثانيا :

القرآن يتضمن كل جوانب التشريع الاسلامى مجملا ومفصلا ، ولم تكن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم الا أنه بمثابة (الشارح) لمجمل القرآن ليفصله ، والمطبق لمفصله تطبيقا عمليا كاملا ، ليكون القدوة للمؤمنين ، وهذا أيضا معنى قول عائشة عن خلق النبي حين سئلت عنه (كان خلقه القرآن) وكل ما جاء به النبي من زيادة أو تفاصيل زائدة عما فى القرآن

مما يوصف بالسنة أو المستحبات فهى أمور كمالية فى الاسلام ، لا يخل نقصانها بايمان مؤمن أو تدينه •

فالقرآن تضمن كل الأسس الاسلامية ، سواء فى الجانب الروحى فيما يتعلق بالصلة بين العبد وربّه من سائر العبادات المعروفة ، وفى الجانب الاجتماعى ، سواء أيضا ما يتعلق بتعامل الفرد مع غيره من الأفراد ، أو فى تعامله مع الجماعة والدولة ، أو فى تعامل الجماعات والدول بعضها مع بعض •

وقد كانت نعمة الله الكبرى التى خص بها الاسلام أن تعهد سبحانه بحفظ القرآن كما فى قوله تعالى :

[انا نحن نزلنا الذكر وانما له لحافظون] (١٢)

وقد ترتبت على ذلك مزايا للاسلام بالغة الأهمية ، بل مزايا يتعلق بعضها بحياة الاسلام نفسه بوصفه ديناً ، ومن أهم هذه المزايا :

١ - حفظ الدين الاسلامى نفسه بوصفه تشريعاً من التغيير والتبديل والتناقض ، فالوضع الطبيعى الذى يمكن أن يحدث فى أى دين سماوى أو مذهب بشرى ، أنه يوضع فى بدء أمره سليماً محمداً فى الصورة التى أريد بها ، ويظل كذلك طوال حياة النبى ان كان ديناً سماوياً ، أو منشئ المذهب ان كان مذهباً بشرياً ، سياسياً أو اصلاحياً ، ولكن بعد وفاة النبى أو صاحب المذهب يبدأ أتباعه فى الاختلاف ، تبعاً لاختلاف وجهات النظر فى التطبيق ، ونتيجة لتنافس قادة الاتباع وزعمائهم على أن يكون لكل منهم الوضع الأعلى ، فيبدأ كل منهم فى محاولة أن يجعل لنفسه وفكره طابعاً يميزه عن غيره حتى يمكن أن يتميز أتباعه عن غيرهم فى أن لهم أحكاماً وشعارات خاصة ، وهذا يستلزم بالضرورة أن يلجأ هذا الزعيم الى اضافة شىء الى الدين أو المذهب ، أو الى تغيير وتبديل فى الدين أو المذهب ، والا لما ساغ أن يكون له أتباع يختص هو بقيادتهم ، فالزعماء الدينيين الذين يخلفون أى نبى مثلاً فى دينه لو ظلوا محافظين على الدين كما هو فلن يكونوا قادة أو زعماء بالمعنى الصحيح للقيادة والزعامة ، وانما يكونون فى أحسن أحوالهم قدوة دينية لغيرهم ، أما تبعية الأتباع جميعاً فستكون للنبى ودينه فحسب ، بمعنى أن الأتباع حينئذ مهما تعددت القدوة أو العلماء فانهم انما يدينون للنبى ودينه الذى تركه ، بحيث اذا صدرت من الشخص الذى يقتدون به مخالفة للنبى فى دينه فانهم يرفضون الاقتداء

به فى هذه المخالفة ، بل ان ثققتهم فيه بوصفه قدوة لهم يحدث فيها خال
واهتزاز ، لذلك يحاول الزعيم الدينى أن يحدث فى الدين اضافة أو تغييرا ،
ويحاول بمهارته أن يجعله فى نظر الاتباع جزءا من الدين ، ثم بعد حين
يحدث تغييرا أو اضافة ، حتى يصبح هو ذا مذهب أو منهج فى الدين خاص
به ، ومن ثم يكون له أتباع متميزون بمذهبهم ومنهجهم عن غيرهم ، وفى
الوقت نفسه يكون للزعيم أو الزعماء الآخرين مذهبهم ومنهجهم ، وهكذا
قد يتحول الدين الأصلى ليس الى مذاهب فحسب ، بل الى أديان مختلفة ،
وقد تصل فى اختلافها الى التعاوض والتناقض .

ولكن حفظ القرآن من التغيير والتبديل وهو مشتمل على أسس التشريع
الاسلامى كاملة حمى الدين الاسلامى من تحويله الى أديان أو اتجاهات
متعارضة متضاربة ، وقد تعددت فى الاسلام المذاهب والفرق والاتجاهات ،
ولكنها لم تستطع أن تصل الى حد التضارب والتناقض لوجود المرجع
الأصلى وهو القرآن كاملا وسليما ، وأصبح وضع المذاهب الاسلامية
على تعددها بين أمرين ، اما أن تتفق مع القرآن فتكون فى محيط الاسلام ،
واما أن تختلف معه فتخرج من دائرة الاسلام كله ، ولذلك انحصرت معظم
خلافات المذاهب الاسلامية فى الفروع والسنن التى لا تخل بالاسلام ، والقلة
التى خالفت أسس القرآن كان واضحا ومعروفا أنها ضالة عن الاسلام
وخارجة عليه ، مع مراعاة أن تعبير الخروج هنا لا يعنى الاصطلاحات
التاريخية فى الاسلام كجماعة الخوارج ، فان اصطلاح الخوارج لا يراد به
الخروج على التشريع الاسلامى أو القرآن ، وانما يراد به الخروج
على وحدة المسلمين وجماعتهم .

ويترتب على هذا أمر بالغ الأهمية الدينية ، وهو ان كل مسلم واع
فى أى مذهب من المذاهب الاسلامية يدرك أن تبعيته الحقيقية انما هى
للقرآن والرسول ، وأن زعماء مذهبه مهما يكن شأنهم فلن يزيدوا عن أن
يكونوا قدوة له بشرط أن يستمدوا وضعهم من القرآن وهدى الرسول ، فان
حادوا وجب عليه أن يخالفهم ، بل أن يواجههم بأنهم أخطأوا ، من باب الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى لا عذر لمسلم قادر فى أن يتجاهله ،
كما حدث من زيد بن على حينما كان فى مجلس الخليفة عبد الملك بن
مروان فسمع من عبد الملك ما لا يتفق مع الدين فقال له اتق الله يا أمير
المؤمنين ، فغضب عبد الملك قائلا أتأمرنى بتقوى الله يا زيد ؟ قال : يا أمير
المؤمنين ، ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ، وليس أحد دون أن يأمر
بتقوى الله .

٢ - وكان من أهم مزايا حفظ القرآن من الله رسوخ الانتماء الى
الاسلام فى نفوس المجتمعات الاسلامية بحيث يستعصى فصم هذا الانتماء ،

أو احلال أى انتماء بديل له ، وقد كانت هذه ميزة سياسية لحظها الباحثون والمؤرخون ، حيث لوحظ أن المجتمعات الاسلامية هى الوحيدة التى استعصت على الذوبان فى غيرها من الأمم الفاتحة والمنتصرة ، فكثير من الأمم حتى من ذوات الحضارة العريقة كالحضارة الفرعونية ، والحضارة البابلية ذابت فى الأمة الغازية ، فانمحت عاداتها وتقاليدها ولغتها ومعالم شخصيتها لتذوب فى حضارة الأمة العربية الفاتحة ، ولكن المجتمعات أو الشعوب الاسلامية هى التى لم تستطع قوة فاتحة أن تمحو شخصيتها ومعالمها ، وكان السبب فى ذلك هو وجود القرآن ، فان كل مسلم ، وكل مجتمع اسلامى يشعر بأنه مشدود الى القرآن وأن مخالفته اياه أو خروجه عليه أو انفصاله عنه يمحو عنه صفة الاسلام ، ولا يوجد بديل لذلك يحقق له الصفة الدينية التى سيفقدها .

ثالثا :

من جوانب التكامل فى القرآن أنه يشتمل على كل مقتضيات الدعوة الدينية وآثارها ، ومن ذلك أنه يتضمن أسلحة الهجوم وأسلحة الدفاع معا ، فأما أسلحة الهجوم فهى أسلحة عقلية بحتة ، لا تتجاوز دعوة الناس الى الدين الحق ، والعبادة الصحيحة متضمنة ابراز خطأ ما عليه الناس حينئذ من ضلال العقيدة والعبادة ، وهذا هو جانب الهجوم ، وأما جانب الدفاع فلم يكن عقليا بحتا ، وانما كان من نوع ما يستخدمه الناس من أسلحة ، وذلك أن المشركين لو بادلوا القرآن موقفه العقلى لما كان هناك داع لتجاوز الموقف العقلى ، ولكن ردهم على الدعوة العقلية من القرآن كان هجوما على النبى ومن شايعه فى دعوته من الناس بكل ما لديهم من أسلحة اعلامية كاستخدام الألسنة فى السب والتشهير والاهانة بكل صورها ، واستخدام الاقتصاد كالمقاطعة والمحاربة فى التعامل بكل صنوفه ، واستخدام الحرب بكل صورها النفسية كتاليب القبائل وحشد الحشود وتنفير الناس من الاسلام بكل وسيلة ، وصورها العسكرية كاستخدام الأسلحة العسكرية فى قتال .

وقد رد القرآن عليهم فى كل سلاح استخدموه بسلاح مماثل فى النوع ، ولكنه أمضى وأنفذ ، ومن الواضح أن القرآن قد وجه المسلمين الى استخدام كل الأسلحة التى لوح أو يمكن أن يلوحوا بها فى أى عصر وأى مكان ، ويمكن أن تكتب بحوث مستقلة فى كل نوع من هذه الأنواع ، وعلى

سبيل المثال فإن القرآن يحشد كل الوسائل فى الحرب النفسية والعسكرية للرد على أعدائه ، ولحماية دعوته وأتباعه من طمع الطامعين فى قوله تعالى :

[وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم
لا تعلمونهم الله يعلمهم] (١٣)

ففى هذه الكلمات القليلة حشد هائل لكل أنواع الحرب النفسية والعسكرية ، ولكن اعجاز القرآن يصوغها فى هذه الكلمات الموجزة .
وذلك أن الآية لا تتحدث عن السلاح العسكرى مباشرة ، وإنما تجعله نوعا من أنواع القوة ، فالأمر منصب على اعداد (القوة) فى كل صورها الممكنة سواء فى صورة القوة الاقتصادية ، أو القوة العلمية ، أو القوة الصناعية ، أو القوة السياسية ، وبصفة عامة (ما استطعتم من قوة) ثم كأنه قيل وبصفة خاصة رباط الخيل الذى هو رمز القوة العسكرية ، وكل هذه القوة فى كل صورها ليست للاستخدام المباشر ، فلم يقل فقاتلوا أو حاربوا بها وإنما (ترهبون به) وإثارة الرهبة فى العدو هى ثمرة أية حرب نفسية ، والآية تشير الى ثلاثة أنواع من الأعداء كلهم تردعه الرهبة من هذه القوة التى يملكها المسلمون ، وهم :

١ - الأعداء الذين يوجهون عداوتهم لحرب الدين نفسه بالتشكيك فيه أو بتغيير الناس منه بأية وسيلة ، وهم فى الآية (عدو الله)

٢ - الأعداء الذين يوجهون عداوتهم لحرب المسلمين بوصفهم كيانا اجتماعيا أو سياسيا بأية وسيلة من وسائل الحرب النفسية أو العسكرية وهم فى الآية (عدوكم) .

٣ - أنواع من الأعداء غير ظاهرين للمسلمين ، سواء أكانت عداوتهم هى المختلفة رغم ظهور أشخاصهم كالمنافقين ، أم كانوا هم غير ظاهرين للمسلمين فى كيانهم كالأعداء فى أماكن أو أقاليم تبعد عن أعين المسلمين أو آذانهم ، سواء من القبائل أو الشعوب المحيطة بالمسلمين ، وهم فى الآية :

[وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم]

والذى يعنى هذا الحديث من موقف أعداء الاسلام وأسلحتهم هو سلاح السخرية الذى استخدمه أعداء الله ضد كل ما يتعلق بالدين ، كما

رأينا من أمثلته فى الفصل السابق ، فان القرآن يرد عليهم بسلاحهم نفسه ، وهو السخرية ، وهو العدل فى المعاملة بالمثل ، كما قال نوح عليه السلام لقومه :

[ان تسخروا منا فانا نسكر منكم كما

تسخرون] (١٤)

وكما قال الله لرسوله محمد عليه السلام

[الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات

والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر

الله منهم] (١٥)

ولهذا نلاحظ أن القرآن سخر من أعداء الله وأعداء الاسلام فى كل مجال استخدم فيه أعداء الله السخرية .

ولكن هناك فارقا جوهريا فى الهدف بين سخرية القرآن وسخرية أعداء الله ، فان سخرية أعداء الله تنصب على تحقير من توجه اليه واهانته ولا تكاد تعدو ذلك ، بينما سخرية القرآن ترتبط بأهداف الدين وغاياته ، وقد يبدو بعضها منصبا على اهانة شخص أو طائفة ، ولكن اليسير من التأمل سيظهر لنا أن الهدف ليس مجرد التهوين أو التحقير ، وانما الهدف خدمة قضية من قضايا الدين ، فسنجد مثلا أن السخرية من شخص انما تهدف الى ازالة نفوذ هذا الشخص من طريق الدين ، حيث أنه عقبة فى طريق نشره ، لأن نفوذه وجاهه يخيفان العامة والضعفاء من أن يتجهوا الى الدين ، وسنجد أن السخرية من طائفة معينة ليس لمجرد تحقيرها أو لمجرد الرد على ما يصدر منها ، وانما الهدف متعلق بالدين ، فان ما يصدر من هذه الطائفة قد يتضمن تنفييرا من الاسلام أو تشكيكا فيه ، أو تأكيدا له ، فسخرية القرآن تكشف كل ذلك ، وتعين المسلمين على مقاومة شرهم ، أو تكفيهم اياه ، كما أنها تبعث فى نفوس الراغبين فى الاسلام القوة والجرأة على الاتجاه اليه ، وعدم التأثر بما ينبعث من حنايا هذه الطائفة ، وهكذا نجد سخرية القرآن انما هى معالجة لقضايا من صلب الدين وأهدافه ، غاية الأمر أنها صيغت بأسلوب ساخر ، بينما صيغت هذه المعالجة نفسها فى القرآن بأساليب أخرى . حتى يكون تنوع هذه الأساليب مستوعبا لكل طبائع الناس فى استعدادهم للتقبل والفهم والاستيعاب .

(١٤) ٣٨ سورة هود .

(١٥) ٧٩ سورة التوبة .

سخرية القرآن والعقيدة

حيث كانت العقيدة بكل أسسها وقواعدها هي جوهر الايمان ، وهي التي يدور حولها كل صراع الأنبياء مع أقوامهم فان أعداء الدين ركزوا فيها سخريتهم كما رأينا فيما سبق من سخريتهم بكل شيء في الدين من الايمان بالله وبالبعث وبالرسل وبما جاء به الرسل ، كما سخرُوا من وحدانية الله التي هي اللبنة الأولى في الايمان ، كقولهم ساخرين من محمد صلى الله عليه وسلم كما ينقل القرآن عنهم :

[أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب] (١)

فهم يؤمنون بالهة متعددة ، ولكن الشيء الغريب الذي يتعجبون ويسخرون من ادعائه هو جمع الآلهة المتعددة لتصبح الها واحدا ، فهذا شيء يملأ نفوسهم بكل معانى التندر والتعجب ، بل كأنهم يقولون اننا نتعجب من أمور كثيرة ، ولكن عجبنا من هذا الأمر يختلف عن كل عجب ، ولذلك صاغوه في لفظ (عجاب) في قولهم (ان هذا لشيء عجاب) ولو أنهم قالوا مثلا نحن ننكر أن تكون الآلهة الها واحدا ، أو أنه مخطيء في هذا الادعاء ، أو أن ادعاء محمد أن الآلهة اله واحد أمر عجيب أو غريب أو نحو ذلك فان شيئا من هذا لن يكون سخرية ، وانما هو رفض وانكار ، أما السخرية فهي في مضمون الاستفهام من تعبير (أجعل الآلهة الها واحدا) آ

(١) ٥ سورة ص .

بمعنى كيف يبلغ به السفه أو الجنون حتى يقول هذا ؟ ولذلك وصفوه فى هذا السياق نفسه بأنه ساحر وكذاب فى قوله تعالى عنهم :

[وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، اجعل الآلهة

الها واحدا ان هذا لشيء عجاب]

السخرية والعقول :

من تكرار القول أن سخرية القرآن لا تهدف الى التحقير والتهوين لذاته ، فكلام الله أجل وأحكم وأسمى هدفا ، وانما الهدف فى كل ما جاء فى القرآن يرتبط دائما بالدعوة الى الله ، سواء بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، وحيث كان المحور هو الدعوة الى الله فان القرآن يوضح بل يكرر كثيرا التنبيه الى استخدام العقول ، لأن الاسلام مبنى على العقل ، وطريقه المباشرة هو استخدام الفكر ولو فى أيسر صورته ، فان الايمان بالله لا يحتاج الى فلسفة أو عبقرية ، وانما يحتاج الى التجرد من المؤثرات النفسية والاجتماعية ثم مجرد الاتجاه العقلى الى الله ، ومن آثار اعتماد الاسلام على العقل أن الله سبحانه لم يجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كالأنبياء السابقين ، وانما كانت معجزته الوحيدة عقلية وهى القرآن ، فكل من يستخدم عقله مجردا من المؤثرات لابد أن يهتدى الى الله ، ولهذا يركز القرآن اهتماما واضحا فى الدعوة الى استخدام العقول بأساليب عديدة كتعبير التدبر والتفكر والتعقل والتذكر وغير ذلك .

ومن أساليب الدعوة الى استخدام العقول النعى على الذين آتاهم الله عقولا ولكنهم يلغونها ، ويتكرر هذا النعى فى القرآن كثيرا ، كقوله تعالى :

[بل أكثرهم لا يعقلون] (٢)

وقوله تعالى :

[ذلك بأنهم قوم لا يعقلون] (٣)

ولكن القرآن لا يكتفى بالنعى على عدم استخدام العقول بأسلوب الإنكار العادى ، وانما يستخدم أسلوب السخرية للفت الأنظار الى مدى عرابة وضعهم العقلى ، والغائهم نعمة أنعم الله عليهم بها وهى العقل ، وهذه النعمة هى التى فضل الله بها الانسان على سائر الحيوان الأعجم ، فحين

(٢) ٦٣ سورة العنكبوت .

(٣) ٥٨ سورة المائدة ، ١٤ سورة الحشر .

لا يستخدمون عقولهم ينزلون بأنفسهم عن مرتبة الانسان التي رفعه الله اليها بالعقل ، الى منزلة الحيوان الذي لم يحظ بهذه النعمة .

وحين ينزلون عن مرتبة الآدمية الى محيط الحيوان يعقد القرآن موازنة بينهم وبين الحيوان الأعجم فيتضح تفوق الحيوان الأعجم عليهم ، لأن كل أنواع الحيوان تؤدي ما خلقت من أجله أداء كاملا ما عدا الانسان، وهذا أمر واضح ، فان الحيوان الذي خلق للركوب يؤدي عمله في طاعة وانقياد ، والذي خلق للخدمة كالحرث والسقى كذلك ، وهكذا كل مخلوقات الله تؤدي كلها ما خلقت من أجله الا الانسان ، فان أقلهم هم الذين يؤدون ما خلقوا من أجله أما أكثرهم فهم متمردون على خلقتهم وبالتالي فانهم متمردون على خالقهم سبحانه ، وهذا المعنى يتكرر في القرآن ، كقوله تعالى :

[ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبـال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ٠٠] (٤)

فكل المخلوقات في الكون أحياءها وجمادها وظاهرها وخفيها تؤدي ما خلقت من أجله ، وشعاره السجود لله بمعنى الطاعة والانقياد الكاملين في كل ما خلقت له ما عدا بنى آدم ، فان بعضا منهم هم الذين يطيعون الله فيؤدون ما خلقوا له ، وهم كثرة في ذاتهم ، ولكنهم قلة بالقياس الى المتمردين على الله ، كما توضح ذلك مواضع كثيرة في القرآن كقوله تعالى :

[وقليل من عبادى الشكور] (٥)

ويحدد القرآن الهدف الذى خلق الجن والانس من أجله وهو ذات الهدف الذى خلقت كل المخلوقات من أجله فى قوله تعالى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون] (٦)

فان العبادة فى لغة العرب هى الطاعة ، وهو المراد فى الآية ، بمعنى أن الله خلقهم ليطيعوه فى كل ما خلقوا من أجله ، ولهذا كان كل ما أمر به

(٤) ١٨ سورة الحج .

(٥) ١٢ سورة سبأ .

(٦) ٥٦ سورة الذاريات .

الدين من العمل والسعى على الرزق وانتناسل والتعارف والتعاون وغير ذلك عبادة لله بمعنى أنه طاعة لله فيما أَرادَه وأمر به .

ومن هذا تنضح نتيجة الموازنة بين الانسان وسائر المخلوقات ، فإن سائر المخلوقات تؤدي ما خلقت له ، أما الناس فقليل منهم العابدون ، وكثير منهم العاصون ، غير أن الطائعين من الناس أفضل من سائر المخلوقات المعروفة على الاطلاق بمن في ذلك الملائكة ، لأن الطائعين من الناس يؤدون الطاعة لله عن اختيار منهم ومقدرة على العصيان ، أما الطائعون من المخلوقات الأخرى ومنهم الملائكة فانهم يؤدون الطاعة عن تسخير لا يتيح لهم الخروج عليه ، وليس في طبيعتهم ما يدعوهم الى مخالفة هذا التسخير ، بخلاف الانسان الذي ركزت في طبيعته غرائز وشهوات وطبائع تدعوه دائما الى مخالفة العبادة التي هي الطاعة بمعناها الواسع ، وفي مقابل هذا فان المتمردين على طاعة الله يكونون بدهاة أسوأ مخلوقات الله ، وهذان المتقابلان ، واضحان في القرآن الكريم كقوله تعالى :

[لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه

أسفل سافلين]

فأما فضل الطائعين العابدين من بنى آدم على سائر المخلوقات المعروفة فشعاره في القرآن سجود الملائكة لآدم العابد لله ، وأما نزول المتمردين على الله من بنى آدم عن درجة سائر المخلوقات التي تدب على الأرض فواضح في مثل قوله تعالى :

[ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ٠٠] (٧)

فكما كان آدم بوصفه عابدا لله أفضل من سائر المخلوقات المعروفة فضلا كبيرا يستدعى سجود الملائكة له ولزاياه ، فكذلك كان المتمردون على عبادة الله وطاعته من بنى آدم ، يبلغون من السوء أن يكونوا شرا من كل ما يدب على الأرض ، والسبب في هذا أنهم لم يستخدموا عقولهم في التفكير في أمور بدهية لكل عقل متجرد من الهوى والمؤثرات ، فلم يفكروا فيمن خلقهم ، وفي طبيعة الصلة التي يجب أن تكون بينهم وبين خالقهم ، وهكذا ألغوا عقولهم فيما يتعلق بالأساس الذي وجدوا في هذه الحياة من أجله كما وجدت كل المخلوقات وهي طاعة الله ، واستخدموها فيما عدا ذلك من أمور فرعية وقتية ليست في حقيقتها ذات قيمة ، وهي أمور الحياة المعيشية في الدنيا .

وقد انصبت سخرية القرآن على هذا الوضع غير المتلائم فى استخدام العقول ، من حيث انهم يلغونها فيما هو أساس واجب وهو الايمان بالله وطاعته ، ثم يستخدمونها استخداما لا قيمة له ، وهو ما يتعلق بأمر الحياة الدنيا ، فهى حينئذ كأنها معطلة ، وكأنهم حينذاك بغير عقول ، لأن الدنيا كلها فى حقيقة أمرها كأنها وهم وسراب لا حقيقة له ، كما وصفها القرآن كثيرا بنحو ذلك ، كقوله تعالى عن كل أعمالهم فى الدنيا :

[والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه
الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ۝۰] (٨)

والوهم مرتكز فى انهم ينتظرون من وراء أعمالهم ثمرة وفائدة فلا يجدون شيئا ، ومن أسس الدين أن كل عمل بدون الايمان مهما يكن فهو عند الله مرفوض ، اذ كيف يقبل الله من شخص شيئا وهذا الشخص لا يعترف به ولا يؤمن له .

واذن فحين لا يستخدمون عقولهم فى الايمان بالله يصبحون كأنهم بغير عقول مهما كانت سبل استخدامها فيما عدا الايمان .

ومن صور سخرية القرآن من هذا الوضع فى عقول الكافرين والمشركين هذه الصورة التى تنبه الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مخاطب الى عدم الاعتراض بما يبدو من عقولهم وحواسهم مهما يكن شأنه ، فان حقيقة وضعهم العقلى والحسى أنهم كالماشية التى تستأنسونها وتعرفون وضعها العقلى كالابل والبقر والغنم ، بل هم أسوأ منها وضعاً ، فان الابل والبقر والغنم تؤدى شأنها فى الحياة وما خلقت من أجله كاملاً ، أما هم فقد ألغوا عقولهم فى أهم جانب ، وهو الغرض الذى خلقهم الله له ، حيث يقول الله تعالى :

[أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم
الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا] (٩)

ووجه السخرية فى الصورة أن المعنى فى الآية منصب على العقول والأسماع بمعنى الأفهام ، فالسمع هو المرحلة الأولى التى توصل الى العقل ما يبحثه ويفكر فيه ليحكم عليه ، فكان المتوقع أن يتجه الانكار والتسفيه الى العقول والأفهام نفسها ، ولو قيل كما ورد فى القرآن كثيرا من نحو أنهم لا يعقلون ولا يفكرون فلن يكون سخرية ، وانما السخرية أن يتحاشى التعبير

(٨) ٣٩ سورة النور .

(٩) ٤٤ سورة الفرقان .

التعقيب على عقولهم وأسماعهم صراحة ليرسم لهم هم صورة ساخرة ، هي صورتهم وهم فى أشكال الحيوانات العجماء ، ويزيدون على ذلك سوءاً أن هذه الحيوانات تائهة أو ضالة حائرة ، أو فى أية حالة تشذ فيها عن حالة جنسها ، ولو أن رساما ماهرا أخذ هذه الصورة نفسها :

[أن هم الا كالأنعام بل هم أضل]

ونقلها الى رسم يدوى بأن يتمثل جماعة منهم بهذا الوضع فيرسم أجسامهم مثلا أجسام حيوانات كالبقرة والثيران وتبقى رعوسهم كما هي رعوس آدميين ، للدلالة على أنهم آدميون شكلا ، ولكنهم حيوانات عجماء موضوعا ، ثم يجعل وضع هذه الحيوانات فى الصورة وضعاً شاذاً عن سائر مثيلاتها ، بأن تكون مثلا هائجة أو تائهة أو مشوهة ، فحين يذيل الصورة بهذا التعبير الكريم (ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) حينئذ سيكون مضمون التعبير ومضمون الصورة شيئاً واحداً .

وليس هذا ابعدا فى توضيح أو تصوير معنى الآية ، بل هو حرفية مضمونها ، والعرب بذوقهم الأدبى واللغوى المعروف كانوا أقدر الناس على تذوق تعبير القرآن وتصويره ، ولذلك لم يكن غريباً أن يملأ أسلوب القرآن نفوسهم وأذواقهم ووجدانهم ، لا لأنهم آمنوا به ، فان المشركين أنفسهم كانوا أول من تمتلئ نفوسهم انفعالا بالقرآن ، وانما لأن ذوقهم الأدبى واللغوى كان يبرز لهم روعة القرآن واعجازه .

على أننا ينبغى أن نلاحظ أن هذه السخرية من القرآن بعقول أعدائه انما كانت رداً على سخريتهم ، فان سياق الآية يؤكد هذا ، حيث ان السياق يعرض صورة من سخرية المشركين بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقصى صور السخرية وأشدّها ايلاماً ، وكان مصدر سخريتهم حرصهم على عقيدة الشرك ، وخوفهم أن يزحزح الرسول الناس عنها ، معترفين بأن دعوة الرسول وحجته أقنعتهم حتى كادوا يعترفون بالايمان ، ويعقب القرآن على ذلك ضمناً بأن نكوصهم عن الايمان بعد وضوح الحق فى نفوسهم لم يكن لشبهة عقلية ، وانما لهوى فى نفوسهم من المصالح الشخصية ، والتراث الاجتماعى ، والسياق فى قوله تعالى :

[واذا رأوك ان يتخذونك الا هزواً لهذا الذى بعث

الله رسولا ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان

صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب

من أضل سبيلا ، أرايت من اتخذ الهه هواه أفأنت

تكون عليه وكيفا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون
أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل
سبيلا] (١٠)

ومن تمام السخرية بهم أن النفي ليس متجها الى عقولهم فحسب ،
بل الى أسماعهم قبل عقولهم ، وهذا مما ينقصون به عن الأنعام ، فان
الأنعام تسمع ، ولكنهم هم كأنهم لا يسمعون ، لأن سماعهم لا يؤدي الى
فائدة •

وفى صورة أخرى نجد سخرية القرآن تضيف عنصرا آخر مما يفقده
الكافرون من معالم الآدمية ، بل الحيوانية المألوفة ، وهو عنصر البصر ،
فهم فى هذه الصورة التالية بدون عقول ، وبدون بصر ، وبدون سمع ،
والانسان يكون عادة ذا عقل مدرك ، وذا عينين مبصرتين ، وذا أذنين
سامعتين ، وبعض الناس من غير الأسوياء يكون بدون عقل فلا يكون هذا
غريبا ، فلا غرابة فى أن نرى مجنونا أو معتوها ، وبعضهم قد يكون أعمى
فلا يكون غريبا ، ولا غرابة فى أن نرى شخصا أعمى أو أكمه (١١) ، وقد
يكون بعضهم أصم فلا غرابة أيضا فى أن نجد شخصا أصم فاقد السمع ،
لأن هؤلاء جميعا يفقدون أدوات الحس وأعضائه ، فالأعمى مثلا يعد بدون
عينين ، لأن العين لا تسمى عينا الا اذا كانت مبصرة ، وكذلك الأذن ،
ففقدان الحواس ليس غريبا •

أما الغريب المثير للسخرية فهو أن تكون الحاسة موجودة ولكنها
لا تؤدي وظيفتها ، والأغرب أن يكون هذا ليس فى حاسة واحدة ، وانما فى
عدة حواس فى وقت واحد ، والأبلغ فى الغرابة أن يكون فقدان هذا العدد
من الحواس ليس فى شخص واحد ، وانما فى جمع أو طائفة من الناس
فى مكان وزمان واحد ، كقوله تعالى :

[لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين
لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك
كالأنعام بل هم أضل] (١٢)

فكلهم ينطبق عليهم الوصف فى فقدان العقول والأبصار والأسماع ،
والشذوذ يكون عادة فى الأفراد ، أما فى الجماعات فغير متصور ، ومن
هنا تكون السخرية أن نرى طائفة أو جمعا من الناس كله بهذا المنظر

(١٠) ٤١ - ٤٤ سورة الفرقان •

(١١) الأكمة الذى يولد أعمى •

(١٢) ١٧٩ سورة الاعراف •

المجيب الغريب ، لهم عقول ولكنها لا تفهم ولا تفقه ، ولهم أعين ولكنها لا تبصر ، ولهم أذان ولكنها لا تسمع .

ومن دقة تعبير القرآن أن الصياغة بهذا الأسلوب تبرز مسئوليتهم وجريمتهم في حق أنفسهم ، فإن التعبير يوضح أن لهم عقولا اعطاهم الله اياها ، ولكنهم عطلوها فلم يفكروا بها في الدين الحق ، وأعطاهم أبصارا وبصائر تدرك مشاهد الكون وآيات الله فيه ولكنهم لم يستخدموها ، وأعطاهم آذانا تنصت وتتأمل وتتيج للعقل أن يفكر ويقدر ، ولكنهم أصموا .

وقد وعد الله سبحانه بأن من يعمى بصيرته في الدنيا يحشره الله يوم القيامة أعمى كما أراد هو لنفسه في الدنيا كما يقول تعالى :

[ومن أعرض عن نكرى فإن له معيشة ضنكا
ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حسرتنى
أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا
فنسيتها وكذلك اليوم تنسى] (١٣)

فهم يظنون أنفسهم في الدنيا مبصرين لأنهم يتمتعون بالبصر الحسى فيرد الله سبحانه عليهم بأن البصر الحقيقى هو البصر المعنوى ، وهو استخدام العقل استخداما قويا مجردا من الهوى والمؤثرات ، وهم قد ألغوا في هذا الجانب عقولهم الغاء فعميت بصائرهم ، فيحشرون في الآخرة كما أعموا أنفسهم في الدنيا ، وكذلك حيث أغلقوا عقولهم وأبصارهم رآذانهم عن الله فان الله يحشرهم على هذه الصورة يوم القيامة ، كقوله تعالى :

[ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما
وصما مأواهم جهنم كلما حبت زنادهم سعيرا ،
ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ٠٠] (١٤)

فحشرهم على هذه الصورة جزاء لكفرهم الذى جعلهم يلغون عقولهم وبصائرهم وانصاتهم للحق ، فيجاء بهم يوم القيامة على الصورة التى أرادوها لأنفسهم فى الدنيا ، وهى صورة واضحة السخرية ، حيث أنها تشويه كامل لهم ، يجعلهم فى غاية الشذوذ والغرابة والهوان شكلا

(١٣) ١٢٤ - ١٢٦ سورة طه .

(١٤) ٩٨ سورة الاسراء .

ومضمونا ، فأما الشكل فحشرهم على وجوههم ، سواء أكان أكبابا اياهم عليه ، أم كان مشيا عليه ، أم كان غير ذلك ، فإن الهدف الأهم ليس التفصيل ، وإنما تصويرهم فى أسوأ صورة من حيث المظهر ، وهو مظهر أناس يقادون جميعا على وجوههم ، وكذلك من حيث المضمون مع المظهر ، حيث يكونون فى هذه الصورة من اجتماع العمى والبكم والصم ، وليس بعد هاتين الصورتين - المجتمعتين شكلا ومضمونا - قبح وهوان .

وأیضا نلاحظ أن السخرية فى هذه الصورة انما هى رد ضمنى على موقف عداء شديد للإسلام ، وفى سياق هذا التصوير نجد فيما سبقه حديثا يشير الى الذين اتاهم الله علما وهديا كان يمكن أن ينتفعوا به ، وحينئذ يسمون بعقولهم وأنفسهم الى الله من خلال الايمان ، وقد وصل اليهم العلم فعلا . فاستوعبته عقولهم وفهموه ، وحملوه فى صدورهم فلم ينسوه ، ولكن ذلك كله لم يغير من حالهم شيئا ، بل ازدادوا بهذا الخير سوءا ، لأنهم رفضوا الانتفاع به ، كانوا جهلة ضالين قبل العلم ، فلم يزدادوا بالعلم عقلا أو هداية ، بل نبذوا هذا العلم فازدادوا حيرة عقلية وضلالا دينيا ، فلم يتغير حالهم بعد أن حملوا العلم عما كانوا عليه قبل حمله ، فأصبح مثلهم كمثل الكلب الذى يلهث باخراج لسانه فى صورته المعروفة ، سواء أكان هناك ما يدعوه الى ذلك أم لم يكن ، فالمفروض فى الحيوان عامة الا يلهث الا مع جهد شاق يبذله ، ولكن الكلب يلهث مع هذا الجهد ، ويلهث أيضا بدون أى جهد ، وهم كذلك يستوى حالهم قبل حمل العلم وبعده ، كقوله تعالى :

واتل عليهم نبا الذى اتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخذ الى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ، من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفتقون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون [(١٥)]

والمسلمون كانوا حين نزلت هذه الآيات يعرفون أن مثل الكلب الذى ضربه القرآن اشارة الى علماء اليهود ، وانما ضرب المثل لشخص واحد ولم يكن التعبير للجماعة نحو آياتناهم أو مثلهم كمثل الكلاب ، لأن العلم دائما فردى ، فيقال فلان عالم ، أو فلان وفلان وفلان علماء ، بمعنى أن كلا منهم عالم وله علمه الخاص فى حجمه أو نوعه ، ولا يقال ان أهل هذه الأسرة أو البلدة أو الطائفة علماء الا تجوزا ، ويتضح هذا فى تعبير (آياتنا آياتنا) فى الآية السابقة ، فان الله عادة لا يمنح أى علم لأى جماعة مجتمعين ، وحتى اذا كان هناك جماعة يطلبون علما واحدا معيننا ، فانهم لا يحصلونه جميعا بصورة واحدة فى نفوسهم ، وانما يكون لكل منهم فهمه وتحصيله الخاص من هذا العلم ، ولم يكن هذا حال عالم واحد من علماء اليهود ، وانما هو حال أحبارهم جميعا تقريبا فى موقفهم من الاسلام ومن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فى التكذيب والسخرية مما لا يحتاج الى توضيح ، ولذلك كان التعبير بالجمع فى عجز الآية اشارة الى نحو هذا فى قوله تعالى :

[ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا]

فالشخص الذى ضرب به مثل الكلب ينطبق مثله على الآخرين .
ومسئولية هذا العالم الذى ضرب مثلا لغيره تتركز فى الانسلاخ من نعمة أسديت اليه كان المتوقع أن يستفيد بها فيهدى ويعلو قدره عند الله

[آياتنا آياتنا فانسلخ منها]

وبدلا أن يسمو مرتفعا بقدره الى أعلى اذا هو يهبط بمنزلته الدينية الى أسفل :

[ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض]

ولم يكن رفضه لآيات الله وهديه لشبهة أو غموض ، وانما لهوى فى نفسه وحرص على منافعتها الدنيوية (واتبع هواه) فكانت نتيجته ونديجة أمثاله أنهم حولوا الهدى فى نفوسهم الى ضلال ، وبدلوا اسلام نفوسهم لله ولدينه الى تكذيب وسخرية من الله ورسوله ودينه واتباعه مما تفيض به الروايات ، ومما سجل كثيرا منه القرآن نفسه كما رأينا فيما سبق .

فالصورة الساخرة التى نحن معها وهى :

[وفحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما]

[وصما]

تتضمن فيما تتضمن ردا على موقف هؤلاء من كل وجوهه ، حيث أنه تصوير ضمنى لموقفهم فى الدنيا ، حيث أعطاهم الله عقولا وبصائر وأسماعا فألغوها وأصروا على رفض كل شىء من الله والسخرية منه ، فيؤتى بهم فى الآخرة فاقدين كل هذا ، ويكون جزاء نزولهم عما رفعهم به الله من نعم العقول والمدارك أن ينزل بهم فى الآخرة الى أسوأ صورة للنزول وهى أن يحشروا على وجوههم .

ومما تنبغى الإشارة اليه أن التشبيه بالكلب لا يبدو منه أى تحقير للكلب ، فليس فى الحيوانات شىء أو نوع حقير ، بل كل منها يؤدى الغرض الذى خلق من أجله أداء كاملا ، فلا شىء فى الحيوانات معيب ، أما المعيب حقا فهو الذى يتخلى من بنى آدم عما خلق من أجله ، ولذلك لو ألقينا نظرة متأملة فى الآية الكريمة للموازنة بين الآدمى الذى ضرب له المثل والكلب الذى ضرب به المثل ، لوجدنا الكلب خيرا منه ، لأنه (انسلخ) مما آتاه الله وهياه له ، أما الكلب فلم ينسلخ ولم يرفض ما هياه الله له ، والتشبيه فى المثال لا يعدو ابراز حال من أحوال الكلب دون التعرض لخلق الكلب اطلاقا ، لأن اللهث مظهر جسدى عضوى ، ومن المعروف أن العيوب الحقيقية هى العيوب فيما يتعلق بالأخلاق ، وليس فى الجسد ، وقد سبق القول أن وجه الشبه منصب على أن حال هذا العالم سواء قبل حمله العلم وبعده فى الضلال والكفر ، كما أن حال الكلب سواء قبل أن يتعرض لجهد ومشقة وبعده .

سخرية القرآن وموقف الكافرين :

وحيث ألقى الكافرون عقولهم وعطلوا وظيفتها فيما يتعلق بالدين فقد اتخذوا بناء على ذلك موقفا من الدين بكل جوانبه ، وقبل أن نتحدث عن هذه الجوانب فى موقفهم من الدين بالتفصيل نشير الى موقفهم الدينى بصفة عامة .

والقرآن حافل بالحديث عن موقفهم من الدين ، وهو يعرض هذا بأساليب مختلفة ، ولكن الذى يعيننا من هذه الأساليب هو أسلوب السخرية الذى صور به القرآن هذا الموقف منهم ، وفى القرآن كثير من الصور الساخرة من موقفهم الدينى .

فمن هذه الصور ما نستشفه من قوله تعالى :

[وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون] (١٦)

فى سياق تكذيبهم أن القرآن من عند الله ، فأصل المعنى أنتم تكذبون
 أن هذا القرآن من عند الله ، وليس هناك معنى مقصود زيادة على ذلك ،
 ولو قيل هذا المعنى بنحو هذا الأسلوب ما كانت فيه سخرية ، ولكن السخرية
 واضحة فى الصياغة التى صيغ بها المعنى وهى [وتجعلون رزقكم انكم
 تكذبون] فالرزق هو النصيب الذى يناله المرزوق ، وهو دائما يطلق على
 على جانب الخير ، فرزق المرء من الله ، أو من غنيمة ، أو من شئ عام ،
 أو غير ذلك انما يوصف عادة بأنه رزق اذا كان خيرا ومنفعة ، فتعبير
 الآية فى صياغتها كأنه يرسم صورة مؤداها فى تصور السامع حينما
 يسمعها لأول وهلة أن هناك أنصبة وأرزاقا وزعت ، فبعض الناس كان
 رزقهم مثلا ذهباً أو فضة ، وبعضهم كان رزقه ابلا أو غنما ، وبعضهم
 كان رزقه منفعة أخرى من أى لون ، ولكن هؤلاء المشركين كان رزقهم دون
 غيرهم هو أنهم يكذبون بآيات الله ، وتتركز السخرية بصورة أوضح فى
 لفظ (وتجعلون) بمعنى أن هذا كان اختيارهم بأنفسهم ، ولم يفرض
 عليهم ، وكأن الأرزاق كانت معروضة من كل نوع من أنواع الرزق العديدة ،
 وكل طائفة من الناس اختارت رزقها من الأموال والمنافع والمصالح
 بصفة عامة ، أما هم فقد أصروا على أن يكتفوا بهذا النصيب الذى اختاروه
 وهو التكذيب ، وهذا المعنى هو المطابق للواقع الدينى ، فان المؤمنين
 يختارون رزقهم مما ينفعهم فى الآخرة ، أما الكافرون فيختارون ما يظنون
 أنه ينفعهم فى الدنيا فحسب ، وقد ظنوا أن حرصهم على الأوضاع التى
 ورثوها عن آبائهم وعلى مصالحهم الدنيوية يقتضى أن يرفضوا دعوة
 النبى حتى لا تتعرض مصالحهم للضياع ، وينبغى أن نلاحظ فى الآية التعبير
 بالمضارع فى لفظ (تكذبون) فان المضارع يختلف فى دلالاته عما لو كان
 التعبير بالماضى نحو وجعلتم رزقكم انكم كذبتم ، فان مثل هذا التعبير
 يقتضى أن التكذيب صدر منهم فى موقف واحد ، أو فى زمن مضى ، وهذا
 يوحي بالأمل القريب فى تغيير موقفهم ، وبصفة أخص لا يوحي باصرارهم
 على موقفهم ، أما المضارع بما يفيد من معنى التجدد والاستمرار فانه
 يعنى أن تكذيبهم مستمر ومتجدد ، وهذا يقتضى اصرارهم عليه .

ومن مجموع الايحاءات التى توحىها جوانب الدقة فى صياغة الآية
 تكتمل الصورة الساخرة من موقف المشركين ، والتى لا بد أن ترتسم بوضوح
 فى خيال كل سامع عربى سليم الذوق من أول وهلة ، وفى نفس كل متأمل

للتعبير • وملابسات الصورة تزيد من وقع هذه السخرية فى النفوس ،
وهذه الملابسات فى قوله تعالى :

[فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون
عظيم ، انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه
الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، افبهذا
الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم
تكذبون] (١٧)

فالله سبحانه يقسم بقسم عظيم هو مواقع النجوم ، أن القرآن كلامه ،
ولكن المشركين لا يقدرّون الله سبحانه ، ولا يقدرّون أنه يحلف لهم مع
أن هذا كان يقتضى أن يملأ نفوسهم خجلا واستصغارا لشأنهم بالقياس
الى الله ، ولكنهم بدل من ذلك لجأوا الى موقفهم المثير للسخرية ، والذى
يتضمن كأنهم يقولون : حسبنا من الرزق التكذيب •

وفى صورة أخرى يعبر القرآن عن موقف الكافرين من الله فى لون من
ألوان مواقفهم فيقول تعالى :

[أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو

خصيم مبين] (١٨)

فخلق الانسان من نطفة حقيقية بوصف النطفة مرحلة من مراحل
تكوينه ، ولكن خصومته مع الله فى صورتها الظاهرة فيها تجوز ، لأن
الخصمين طرفان فى خصومة ، وهذا الوضع ليس متصورا على حقيقته
بين الله وأحد أو شىء من مخلوقاته ، وإنما الوضع الحقيقى أن بعض الناس
كذبوا بالله ، أو بما جاء به الرسل من الله ، فأصبحوا كأنهم خصوم لله
ورسله ، حيث وضعوا أنفسهم موضع الخصم ، وقد يفعل بعضهم ازاء الله
ورسله ما يفعله الخصم ضد خصمه ، وقد يتصور بعضهم نفسه خصما

(١٧) ٧٥ - ٨٢ سورة الواقعة •

(١٨) ٧٧ سورة يس •

حقاً لله ورسوله ، ولكن شيئاً من ذلك لا يعد خصومة بالصورة المألوفة في خصومة الناس بعضهم بعضاً ، لأنها في أقرب الفروض خصومة من طرف واحد هو الانسان ، وقد يكون الرسل وأتباعهم طرفاً في هذه الخصومة ، من لا تستطيع العقول فضلاً عن الألسنة أن تتصور مدى قوته وهو الله سبحانه موقفه في القرآن من أعدائه في صورة الخصم ، فان هذا التمثيل ليس الا تصويراً يقرب الى الأذهان مدى وضوح الحق ، وهو كيف يتصور الانسان أن يكون خصماً عنيدا لله كما يتصور المشركون ، مع أنه مخلوق لله ، وهو ليس مخلوقاً من شيء قوى أو شيء عزيز ، وانما هو مخلوق من أضعف الأشياء وأهونها .

وليس هذا موضع السخرية ، وانما تتركز السخرية في لفظ (فاذا) وفي موضعه من التعبير ، فان لفظ (فاذا) يفيد المفاجأة ، وموضعه يأتي في الانتقال فجأة بين شيئين شديدي التباعد في العقول فضلاً عن استحالة هذا الانتقال في واقع الحياة ، وهذان الشيطان هما النطفة من جهة ، والخصومة القوية من جهة أخرى ، فوجه السخرية كما توحيه الصياغة بوضوح أن الانسان حينما يكون في أولى مراحل خلقه وهي مرحلة النطفة فجأة يصبح خصماً عنيدا لربه ، ولا ينتظر ليمر ببقية مراحل خلقه حتى يصبح آدمياً مكتمل الخلق ، مع مراعاة شيئين ، أحدهما أن الخصومة حينئذ ليست خصومة يسيرة أو عادية ، وانما هي خصومة قوية ظاهرة (خصيم مبین) والآخر أن الخصومة ليست مع طرف عادي ، أو شخص مألوف مهما تكن قوته ، وانما هي مع الله سبحانه على قدرته وجلاله ، فاذا أعدنا تأمل صياغة الآية الكريمة :

[أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين]

نتبين من عناصر السخرية فيها ما يلي :

١ - أولاً : عنصر النطفة ، وهي المرحلة الأولى التي يبدأ فيها تحول الانسان من الطين الى اكتمال النمو ماراً بمراحل عديدة ، يصفها القرآن الكريم في مثل :

[ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة

علقة فخلقنا العلة مضغة فخلقنا المضغة عظاما
فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك
الله أحسن الخالقين [(١٩)]

فالنطفة هي الطور الأول للإنسان قبل أن يتحول الى علة ثم مضغة
ثم عظام ثم بشر سوى .

٢ - ثانيا : المفاجأة البالغة الغرابة أن يحدث التحول والتطور
عقب النطفة مباشرة ، فلا يتحول الإنسان في مراحل خلقه المعتادة من نطفة
الى علة ، وإنما يتحول من نطفة الى خصم ، ولا يمر بمراحل خلقه
العادية ، وهنا الطرافة والغرابة التي تملأ المشاعر والأذواق احساسا
بالتعجب والتندر ، أن نتخيل في نفوسنا نطفة تصبح فجأة خصما يعرف
كيف يخاصم وكيف يعادى ، أو أن نتخيل النطفة نفسها حينما تكتمل ،
وقبل أن تتحول الى طور آخر من أطوار الخلق تصبح فجأة خصما يخاصم
ويعادى ، ولفظ (الفاء) في تعبير (فاذا هو خصيم) يعد ركيزة أصلية
في معنى المفاجأة والتحول ، ولو كان التعبير مثلا خلق الإنسان من نطفة
ثم اذا هو خصيم لما أفاد التعبير هذا المعنى الرائع للسخرية ، لأن (ثم)
كما هو معروف تفيد الترتيب والتراخي ، فيكون المعنى حقيقة وليس
مجازا ، بمعنى أن الله خلق الإنسان من نطفة ، ثم تدرج الإنسان في مراحل
الخلق حتى اكتملت قوته فوضع نفسه حينئذ موضع الخصم لله ، وهذا
حقيقة ، أما لفظ الفاء فكما هو معروف أيضا يفيد الفورية في الترتيب ، أو
حسب تعبير اللغويين تفيد الترتيب والتعقيب ، بمعنى أن يأتي ما بعدها
عقب ما قبلها مباشرة دون فاصل زمني ، ومؤداه الحرفي في الآية ، أن
الله خلق الإنسان من نطفة فاذا هو عقب ذلك مباشرة ودون أي فاصل من
الزمن أو الأطوار أصبح خصما لله ، وهذا ليس على الحقيقة ، وإنما
هو أسلوب مجاز يهدف فيما يهدف اليه الى إثارة العقول للتفكير في موقف
خصوم الله .

٣ - ثالثا : التحول المفاجيء والفوري للإنسان من النطفة الى
الخصومة لم يكن ليخاصم بشرا مثله ، بل ولا ليخاصم أية قوة على الأرض ،
وإنما ليخاصم الله ذاته سبحانه ، ونلاحظ من هذا المجال في صياغة الآية
أمرين بالغى الدقة ، أولهما عدم ذكر المتعلق في لفظ الخصومة مع وضوحه
فلم يقل خصيم لله ، مع أن السياق يوضح أن خصومة الإنسان موجهة
الى الله ، ولكن عدم ذكر لفظ الله سبحانه يوحى كأن هذا الوضع وهو
الخصومة بين الله وأحد غيره لا تتصور ، ولا تقبل العقول السليمة تخيلها

فلا ينبغي أن تذكر إلا من زاوية تصور أعداء الله ، حيث تصوروا أنهم يستطيعون أن يخاصموا الله بما يفعلونه فى مجال الدين ، والأمر الثانى ما يوحى لفظ الخلق فى تعبير (خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم) فان التعبير بلفظ الخلق يوحى فيما يوحى بمعنيين وليس بمعنى واحد ، أحدهما تفوق مقدرة الخالق بدهامة عن مقدرة المخلوق ، فمن الغرابة ألا يدرك من يريد مخاصمة الله الفارق بين مقدرته وهو المخلوق ومقدرة الخالق الذى يريد هو أن يخاصمه ، والمعنى الثانى خلقى ، فان من أيسر حقوق الخالق على مخلوقه الوفاء وعرقان الجميل ، والناس يجدون غاية العجب من نكران الجميل فى مثل قول الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم
وكم علمته نظم القوافى
فلما اشتد ساعده رمائى
فلما قال قافية هجائى

فيتعجبون من نكران المتعلم جميل معلمه ومخاصمته بهذه الصورة ، فكيف بنكران الجميل ومخاصمة الذى كان خالقا وليس معلما فحسب ، فتجتمع فيمن يخاصم خالقه خستان وليست واحدة ، احدهما السفه فى تصور المقدرة على الخصومة ، والأخرى نكران جميل الذى تابع خلقه منذ كان نطفة ، وهو الذى منحه هذه القوة التى يخاصم بها ، وليس بعد هذا خسة .

٤ - رابعا :

لفظ (مبين) فى تعبير (فإذا هو خصيم مبين) يوضح أن هذه الخصومة الموجهة الى الله لم تكن يسيرة ولا خفية ، وانما هى خصومة محتدمة عنيدة ظاهرة ، وكأن هؤلاء الكافرين أو المشركين لا يكتفون بمحض الخصومة العادية فى خصومتهم مع الله ، وانما يجعلونها خصومة قوية يحشدون فيها كل امكاناتهم وقوتهم حتى يوصف الواحد منهم بأنه (خصيم) وليس خصما فحسب (٢٠)، ثم ليس خصيما فحسب ، وانما هو خصيم (مبين) فى الخصومة بمعنى أنه قوى عنيد فيها ، وهما مدلول قوله تعالى :

[خصيم مبين]

(٢٠) لفظ خصيم صيغة مبالغة على وزن فعيل والمبالغة تقتضى القوة والزيادة فى الوصف

بالفعل بخلاف خصم .

وفى تصوير حشد الانسان طاقاته بهذه الصورة فى خصومته مع الله نوع من السخرية به ، لأن خصومته فى حقيقة أمرها لا وزن لها ولا قيمة اطلاقا عند الله ، وهنا تختلف نظرة المؤمن ونظرة الكافر ، ومن هذا القبيل ما يروى من أن القرشيين حينما أسلموا كانوا يقولون للمسلمين قبلهم : كنا نرى أهون ما يهجوننا به شعراؤكم رمينا بالكفر والشرك ، فلما أسلمنا عرفنا أن ذلك أشد هجاء لنا ، فالكافر قد يرى خصومته مع الله ورسوله والمؤمنين ذات نفع وفوز له ، ولكن المؤمن يراه على وجه اليقين سفها فى واقعها ، وخسرانا فى نتيجتها حتى وان انتصر الكافرون ماديا أو دنيويا ، لأن الغاية الحقيقية عند المؤمن هى الآخرة وليست الدنيا .

٥ - خامسا :

تعبير (أو لم ير الانسان) يوحى بالقاء نظرة كلية على الصورة لتوضيحها مكتملة ، فالهمزة للاستفهام ، والواو للعطف على محذوف يفهم من السياق ، بمعنى أغفل الانسان أو جهل أو عمى عليه ولم ير هذه الحقيقة الواضحة ؟ وهى أنه يخاصم الله ودينه مع أن الله هو الذى خلقه ، ومهما تخيل الانسان فى نفسه من قوة فيجب ألا ينسى أنه مخلوق من أضعف الأشياء وأهونها وهى النطفة ، وأنه مهما يبلغ من القوة فهو بالقياس الى الله كأنه ما زال نطفة ، فكيف تستطيع النطفة أن تخاصم من لا تستطيع العقول فضلا عن الألسنة أن تتصور مدى قوته وهو الله سبحانه ، فتعبير (أو لم ير) يحفز العقول الى التفكير فى هذه الصورة مجتمعة فى تناقضها وغرابتها على أن لفظ يرى فى (أو لم ير) يوحى بدقة معينة ، وهى أن هذه الحقيقة التى تتضمنها الآية واضحة مرئية حتى للابصار فضلا عن العقول ، فهى فى وضوحها وغرابتها لا تحتاج الى عميق فكر أو تدبر ، وانما الى مجرد نظرة ، وهذا بخلاف ما لو كان التعبير أو لم يفكر الانسان أو نحو ذلك .

سخرية القرآن والنفاق

الحديث عن النفاق والمنافقين واسع مستفيض ، وخطورة المنافقين ، ومواقفهم التي ظهرت ضد الاسلام لا تكاد تحصى ، وما لم يظهر منها كان أدهى وأخطر .

وقد كان المنافقون أخطر عدو للدين بما يتاح لهم من مزاولة حرب الاسلام فى خفية ، ومن أشد أسلحتهم السخرية التى يتفننون فى صوغها وتوجيهها نحو كل شىء فى الاسلام ، ولكن القرآن يرد عليهم فى صور كثيرة منها أنهم يجعلون موقفهم من الدين ومن المؤمنین به مثيرا للسخرية ، حيث قسموا الزمن فى موقفهم من الاسلام قسمين ، قسما يلبسون فيه ثوب النفاق وهو النهار ، وقسما يخلعون فيه هذا الثوب وهو الليل حينما يجنهم الظلام ويطمئنون الى أنهم أصبحوا فى خفية عن أعين المؤمنین ، فى مثل قوله تعالى :

[وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل

على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم

يرجعون] (١)

فالایمان وجه النهار والكفر آخره يعنى كأن النفاق عمل ومهنة لهم ، وكأن ثوب النفاق ثوب العمل الذى يلبسه العامل وقت العمل وهو النهار ، ثم يخلعه حينما يأوى الى بيته ، فالمنافقون يلبسون ثوب النفاق فى النهار ليستروا به حقيقتهم ، ثم يخلعونه آخر النهار عندما يتركون عملهم اليومى

(١) ٧٢ سورة آل عمران .

وهو النفاق ، وتعبير (لعلمهم يرجعون) الضمير فيه يعود على المؤمنين ، فالمنافقون يجعلون الهدف من هذه الصورة فى نفاقهم ارجاع المؤمنين عن ايمانهم ، وذلك لأن خداعهم المؤمنين بادعائهم الايمان مثلهم يجعل المؤمنين يثقون فيهم على أساس أنهم مؤمنون مثلهم ، ومن خلال هذه الثقة يتقبلون ولو شيئاً مما يدسه المنافقون من الشك فى الدين والسخرية به ، أو على الأقل يتشككون ولو بعض الشك فى دينهم ، وكل هذا نجاح للمنافقين فى محاولة ارجاع المؤمنين عن الاسلام (لعلمهم يرجعون) لأن تسرب أى شك الى الايمان هو نوع من الخلل فى العقيدة ، وهنا تكمن خطورة المنافقين .

والقرآن هو الذى كشف للمسلمين المنافقين وأساليب نفاقهم ، وبين لهم العلامات والأعراض التى اذا وجدوها فى شخص فلا بد أن يكون منافقاً (٢) حتى قال المسلمون حين نزلت آيات النفاق فى القرآن لم يخف علينا منافق بعدها . ولكن القرآن فضلاً عن ذلك يتولى الرد على موقف المنافقين وسخريتهم فى صور عديدة متنوعة :

فمن هذه الصور تصوير أسلوب من أساليب التخفى التى يلجأ اليها المنافقون دائماً لمحاولة خداع المؤمنين حتى لا يكشفوا حقيقتهم ، وهو أسلوب الحلف ، فهم دائماً يعتمدون على الحلف بكل الايمان التى يصدقها المؤمنون ، كشأن كل كاذب يشك فى تصديق محدثه اياه ، فيحاول نفي هذا الشك بكل أساليب التأكيد وأبرزها الحلف ، والمنافقون انما ينافقون اذا خافوا من قوة من ينافقهم وهم المؤمنون ، فيحاولون ستر نفاقهم واخفائه بالايمان التى يحلفونها ، ولكن القرآن يصوغ هذا المعنى فى صورة مجسدة ساخرة ، بأن يصور كأن المنافقين جعلوا من الحلف درعا يلبسونها حول أجسادهم فى قوله تعالى :

[اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم

ساء ما كانوا يعملون] (٣)

فالجنة - بضم الجيم وفتح النون المشددة - فى لغة العرب ، وهى لغة القرآن ، الدرع التى يلبسها المقاتل كالقميص حول جسمه لتحميه من طعنات العدو ، وهى تصنع من الحديد ، فهذه الصورة تعنى أن المنافق جعل من الايمان الكاذبة التى يحلفها درعا حوله ليستتر بها جسمه فلا ينكشف لطعنات العدو ، وحين نتخيل فى أذهاننا مقاتلاً كل ما يحميه من خصمه هو درع يلبسها ، ولكنها ليست من حديد ، بل ولا من أى شىء مادى يقى

(٢) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة

للكتاب .

(٣) ٢ سورة المنافقون .

من أى طعن ، وانما هى من الايمان التى يحلفها هذا المقاتل ، وليت هذه
الأيمان كانت صادقة ، اذن يمكن أن يتوهم أنه يستتر بشيء واقعى له وجود
ولو معنوى ، وانما هى أيمان كاذبة زائفة ، فلن تكون هذه الصورة المتخيلة
الا ماثارا للتفكه والتندر والسخرية .

ولكن دقة تعبير الآية يستوجب أن نقف قليلا عند الألفاظ الآتية :

١ - لفظ (اتخذوا)

فان لفظ اتخذوا من جملة (اتخذوا أيماهم جنة) يفيد أن هذه الجنة
لم تفرض عليهم ، أو لم تقدم اليهم من أحد ، وانما هم الذين صنعوها
بأنفسهم ، كقوله تعالى :

[كمثل العنكبوت اتخذت بيتا] (٤)

بمعنى صنعت بيتا بنسجها اياه ، كذلك المنافقون هم الذين صنعوا
الدرع الغريبة العجيبة المثيرة للضحك والسخرية منهم ، حيث نسجوها
من ايمان كاذبة يلفونها .

٢ - لفظ (جنة)

من المعروف أن الجنة لا تلبس الا فى القتال ، وفى القتال المخيف
بالذات ، بمعنى أن المقاتل لا يلبس الدرع الا اذا خاف من طعنات خصمه ،
والمنافقون ليسوا فى قتال مخيف أو غير مخيف ، بل انهم انما لجأوا الى
النفاق ليتحاشوا القتال ، فلماذا يستخدم القرآن لفظ الجنة الذى لا يستخدم
الا فى الحرب ، مع أن المنافقين ليسوا فى حرب ، ولا يريدون أن يدخلوا
حربا ؟ ومن تتمة التساؤل أنه قد يقال : ان ظاهر الموقف أنه لو قيل ان
المنافقين اتخذوا أيماهم اخفاء لحقيقتهم ، أو تضليلا للمسلمين وخداعا
لكان أنسب وأقرب الى التطابق بين الموقف والتعبير ، فاتخاذ الأيمان
للتضليل أوضح من اتخاذها للحرب وأنسب .

والجواب عن السؤال أن استخدام القرآن لفظ الجنة انما هو من باب
التغلغل فى أعماق المنافقين ومشاعرهم ، فغير صحيح أنهم ليسوا فى حرب،
بل هم فى حرب خطيرة ضد المؤمنين ، غاية الأمر أنها حرب من طرف واحد،
هو المنافقون فى حال عدم اكتشاف نفاقهم ، فانهم لا شك يعدون أنفسهم فى
حرب مع المؤمنين ، رغم أن المؤمنين لا يبادلونهم هذا الشعور لأنهم
لا يعرفون حينئذ أن هؤلاء منافقون ، ومن المعروف أن الحرب نوعان ،

(٤) سورة العنكبوت .

حرب عسكرية ، وحرب نفسية أو خفية ، وحرب المنافقين هي الحرب النفسية أو الخفية ، ولذلك كان من دقة تعبير القرآن استخدام صورة الحرب فى التعبير بالدرع (الجنة) ومن غاية الدقة أن يشير الى أنها حرب نفسية وليست عسكرية بأن جعل الدرع منسوجة من الحلف وليس من الحديد (اتخذوا أيمانهم جنة) ، وأما الاجابة عن تنمة التساؤل السابق ، فانه لو قيل انهم اتخذوا أيمانهم تضليلا وخداعا للمؤمنين ، أو اخفاء لنفاقهم أو نحو ذلك ، فان شيئاً من هذا لن يكون أسلوب سخرية ، فلا يدخل فى موضوعنا ، ثم الأهم من هذا أنه لو كان التعبير نحواً من هذه الأمثلة لفقد أهم ما يهدف اليه تعبير القرآن ، فان ظاهر تعبير القرآن بأن درع المنافقين مصنوعة من الحلف الكاذب ومع ذلك يظنونها تحميمهم يتضمن أن هذه الحماية وهم زائف يتخيلونه تخيلاً ، حيث يتوهمون أن هذه الأيمان التى يحلفونها تحميمهم من الله ورسوله والمؤمنين ، والحقيقة أنه لا توجد حولهم جنة ، ولا توجد لهم حماية أصلاً ، وهم مكشوفون ومعرضون لما يصيبهم من الله ورسوله والمؤمنين ، ولو كان التعبير مثلاً انهم اتخذوا أيمانهم خداعاً للمؤمنين أو اخفاء لنفاقهم لكان هذا الأسلوب حقيقة ، ولما تضمن الدقة المشار إليها .

٣ - لفظ (صدوا)

فان لفظ (صدوا) من جملة (صدوا عن سبيل الله) يحتمل معنيين ، أن تكون فعلاً لازماً من الصدود بمعنى التحول والميل ، أى أنهم تحولوا عن طريق الله فمالوا وانحرفوا عنها ، ويحتمل أن يكون فعلاً متعدياً بمعنى المنع أى أنهم منعوا غيرهم عن الاتجاه الى دين الله ، ولكن المعنيين قائمان بالقياس الى المنافقين ، فكونهم هم تحولوا ومالوا عن طريق الله هذا أمر واضح ، وكذلك كونهم يحاولون منع غيرهم عن الدين فهذا هدف واضح لهم ، ونظراً الى القول المأثور من أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فان مواضع أخرى توضح أن هدف المنافقين هو افساد الدين ومنع الناس من الاتجاه اليه ، كما فى الآية المشار إليها فيما سبق :

[وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل

على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم

يرجعون] (٥)

بمعنى لعلنا نستطيع من خلال نفاقنا هذا أن نجعلهم يرجعون عن
إيمانهم ، وكذلك فى مثل قوله تعالى :

[ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا
ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام ،
وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل ٠٠] (٦)

فلفظ (صدوا) يمثل عنصرا أصليا فى دقة التعبير ، حيث يوضح
فيما يوضح أهم أسباب تصدى القرآن لهذه الأنواع من أعدائه ، وهو
كونهم عقبة فى سبيل وصول الاسلام الى الناس ، أو وصول الناس
اليه ، فالقرآن يعطى المؤمنين الأسلحة التى يستطيعون بها أن يزيلوا هذه
العقبات من طريق الاسلام .

ثم كان ختام الآية بمثابة الحكم على موقف المنافقين سواء فى الهدف
وهو الصد عن سبيل الله ، أو الوسيلة وهو النفاق ، وختام الآية هو

[انهم ساء ما كانوا يعملون]

ولفظ (ساء) فيه معنى التعجب ، فهو بمعنى ما أسوأ عملهم ،
والتعجب فى حقيقته يتضمن فى مدلول الوصف بالفعل معنيين ، أحدهما
التفضيل الذى يعنى بلوغ الغاية فى الوصف ، والثانى التعجب من بلوغ
الوصف هذه الدرجة ، فاذا وصف شخص بالسوء بأسلوب التعجب نحو
قولهم ما أسوأ هذا الشخص فان لفظ (أسوأ) بوزن أفعل وهى صيغة
التفضيل لفظا ومعنى أى أن هذا الشخص أسوأ من غيره على الاطلاق ،
بمعنى أنه تجاوز كل درجات السوء عند غيره ، والمعنى الآخر هو التعجب
الذى يترتب على اضافة (ما) الى لفظ (أسوأ) والتعجب معناه فى هذا
المثال وغيره أن هذه الدرجة التى بلغها هذا الشخص من السوء تثير
التعجب فى النفوس ، وعلماء اللغة يعرفون أن لفظ (ساء) فى الآية
السابقة يتضمن معنى التعجب أى أنه يتضمن المعنيين المشار اليهما ، ثم
ان الجمع بين الفعل الماضى (كانوا) الذى يعنى الثبوت والفعل المضارع
(يعملون) الذى يعنى التجدد يعد توضيحا للسوء وللتعجب المملوح فى هذا
السوء ، فالفعلان يعنىان أن هذا السوء فى المنافقين طبيعة ثابتة ، وأن
مزاويلتهم اياه متجددة دائمة التجدد ، كما تحكى عن تاجر مثلا فتقول :
كان يغش ، فان هذا يعنى أنه لم يغش مرة أو مرات ، وانما كانت طبيعته
الغش ، وأنه لذلك كان يزاوله بصفة دائمة ، وهذا تأكيد لما يراه بعض

الباحثين من أن النفاق ليس سلوكا طارئا يقبل التغيير والتحول عنه بسهولة ، وانما هو شذوذ ثابت فى طبيعة بعض الناس وتكوينهم وأن القرآن يشير ضمنا الى هذا فى نحو قوله تعالى :

[فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه] (٧)

أى أن نفاقهم ثابت لا ينتظر لهم تحول عنه (٨)

ولهذه الخطورة للنفاق ، ولأثره فى الصد عن الاسلام كانت حملة القرآن عليه ، ومن هذه الحملة أسلوب السخرية .

عيون المنافقين :

والقرآن يلفت النظر الى ملحظ بالغ الأهمية فى الكشف عن خبايا الشخصية وما يدور داخلها من مشاعر وانفعالات ، وهذا الملحظ هو العين، فانها النافذة المفتوحة التى تطل على أعماق صاحبها ، وكل الجسم يكاد يكون مغلقا ما عدا العين فانها تشف عما وراءها من شخصية صاحبها فى انفعالاته كلها ، من خوف أو قلق أو فرح أو حزن أو غير ذلك ، وقد يستطيع الانسان التحكم فى كل أعضائه فلا تظهر فيها انفعالاته الا العين ، فانها لا يستطيع أن يتحكم فيها طويلا ، بل لابد أن تبدو فيها انفعالاته واضحة لمن يتأملها بدقة لحظ .

والمنافق مهما يبلغ من المهارة فى اخفاء حقيقته فانه لا يستطيع أن يستطيع أن يسيطر على عينيه فى اخفاء انفعالاته ، وقد يستطيع منافق بالغ المهارة اخفاء حقيقته كالجاسوس المحترف مثلا ، فقد يستطيع السيطرة على كل أعضاء جسمه فلا تظهر عليها انفعالاته فى المواقف الصعبة والخطيرة ، ولكننا لو لاحظنا حركة عينيه بدقة فلا بد أن نجد انفعالاته واضحة فيهما .

ولهذه الأهمية للعين فى الكشف عما فى نفس صاحبها من انفعالات فان القرآن يبدى اهتماما واضحا بالاشارة الى هذا الملحظ لتنبيه المؤمنين الى مراقبة نظرات وحركات عيون من لا يثقون فيهم ، أو الدخلاء بينهم . فانهم اذا أحسنوا هذه المراقبة سيكتشفون كل منافق بينهم .

(٧) سورة التوبة .

(٨) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة

للكتاب .

وهذا المجال بطبيعته لا يحتمل سخرية الصياغة ، لأن القرآن حينما يريد أن يرشدهم الى علامة يكشفون بها خبيء صاحبها فان مقتضى ذلك نقل العلامة بصورتها دون تصرف فى تصويرها أو التعبير عنها ، لأن التصرف فيها بالمبالغة أو التهوين أو الاضافة يضل من يلحظ هذه العلامة ويرقبها ، وكلما كان وصف العلامة واقعيا حقيقيا مجردا من أساليب المجاز كان أقرب الى كشفها وكشف حقيقة صاحبها .

فلا ننتظر اذن فى حديث القرآن عن عيون المنافقين سخرية فى الصياغة والتعبير كما فى مواضع أخرى ، ولكن السخرية فى حال المنافقين أنفسهم ، بمعنى أن حالهم نفسه حينما يصفهم القرآن يكون مثيرا للسخرية منهم ، لأنهم لو كانوا فى حال عادية ما كان القرآن ليذكرها ، وانما يكونون حينئذ فى حال غير عادية يكون منظرهم فيها مضحكا أو مثيرا للسخرية منهم ، فينقل القرآن حالهم كما هو .

ففى صورة من حال المنافقين ينقل القرآن وضعين متناقضين بالغى الغرابة فى تناقضهما ، حيث يقول تعالى فى سياق الحديث عن المنافقين :

[أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون
اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا
ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على
الخير ٠٠٠] (٩)

والصورة ذات منظرين ، أحدهما فى حال الخوف ، والآخر فى حال الطمع بعد زوال الخوف ، والخوف هنا هو الخوف من القتال وما يترتب عليه لأن الآية فى سياق الحديث عن القتال فى سبيل الله ، والخطاب موجه الى الرسول والمؤمنين ، ففى المنظر الأول وهو منظر الخوف كأن الله سبحانه يقول لرسوله ولكل متأمل من المؤمنين انظر الى أعين هؤلاء المنافقين تجد الخوف ظاهرا فيها ، فهى تدور من الرعب والفرع كعين الذى يعالج سكرات الموت ، فهى تجحظ مرة ، ويتقلب محجرها بين جفنيه مرة أخرى ، وفى كل حال فهى لا تستقر ، وانما تدور وتتقلب من آثار انفعال الرعب الذى يصرع فى داخله ، وكأن عيونهم حينئذ فى دورانها وجحوظها وشخوصها تستغيث بشخص النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه حينئذ القائد الذى يستطيع أن ينقذهم أو يحميهم أو يعفيهم من هذا الموقف الذى سبب لهم هذا

الرعب الذى يعتمل فى نفوسهم ، ولا شك أن منظر أعينهم ونظراتها واستغاثتها حينئذ مثير للسخرية والتندر ، ولكن منظرهم فى الخوف يشتمل على ما هو أكثر من ذلك ، فإذا تأملنا تعبير القرآن عنه وهو :

[أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون

اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت]

نجد فيه العناصر التالية :

١ - [أشحة عليكم]

بمعنى أنهم يتصنعون المودة لكم والحرص عليكم ، فإن الشح هو الحرص على الشيء ، وتعبير أشحة عليكم أى كأنهم يحرصون عليكم أن يمسكم ضرر أو أن تصيبكم الحرب بخسارة ، والمنافقون لا يشعرون بداهة بهذا الشعور نحو المؤمنين ، وإنما يتكلفون اظهار هذا الشعور خديعة ومبالغة فى كسب ثقة المؤمنين ، فهذا المظهر يتكلفونه فى أثناء الخوف .

٢ - [ينظرون اليك]

بمعنى أنك تلاحظ أن عيونهم متشعبة بك ، وكأنها تستغيث بك أن تنقذهم ، ومن دقة الألفاظ فى الآية لفظ (رأيتهم) فى جملة (رأيتهم ينظرون اليك) بمعنى أن هذا الوضع منهم يحتاج الى تأمل ودقة رصد ، وبدون هذا قد لا يشعر الموجود معهم بأن ذلك صدر منهم .

٣ - [تدور أعينهم]

وهذا الدوران والتقلب فى نظراتهم وعيونهم هو من آثار الرعب والفرع الذى يختلج فى داخل نفوسهم فيظهر فى عيونهم .

ولكن الطريف العجيب أنهم ما ان ينحسر عنهم الخوف ويتحولوا الى الطمأنينة حتى ينقلب حالهم الى ما يشبه النقيض من حالهم الأول ، وحيث كان الخوف فى موقف القتال فان الطمأنينة التى تعقب القتال انما تكون فى حال نصر ، وحينئذ تكون لدى المنتصرين غنائم فازوا بها من عدوهم ، وهنا تظهر الصورة المناقضة للصورة الأولى من المنافقين ، ونلاحظ فى تعبير القرآن عنها ثلاثة عناصر أيضا وهى :

[فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة

على الخير]

١ - الفاء فى جملة (فاذا ذهب الخوف) فانها تفيد انقلابهم المفاجيء والفورى من الذلة والرعب الى بذاءة اللسان والتطاول فور ذهاب الخوف ، وقد كان أيضا هذا الانقلاب المفاجيء والفورى من الحالة العادية الى الرعب ودوران الأعين فور احساسهم بالخوف ، ومعنى ذلك أنهم ليست لهم طبيعة ثابتة أو كيان نفسى محدد ، ولكن التقلب والتلون هو طبيعتهم الثابتة ، فكما أنهم يتقلبون ويتلونون فى صلاتهم بالناس بأكثر من وجه ، كذلك نفسياتهم وانفعالاتهم ليس لها خلق ثابت ، وانما هى متقلبة تدور مع مصالحهم ومنفعتهم الدنيوية .

٢ - [سلقوكم بالسنة حداد]

بمعنى أنهم حينئذ يطلقون فيكم السنةهم ، وكأنهم بحدة السنةهم يريدون أن يسلخوكم أو يشوهوكم أو يمثلوا بكم ، وهذه المعانى من مدلولات لفظ السلق الذى يدور فى اللغة حول تغيير الشئ وتشويهه ، والروايات التاريخية تؤكد ذلك حيث ان المنافقين كانوا فى كل موقف فيه غنيمة يطلقون فيه السنةهم شعرا أو نثرا بلوم الرسول صلى الله عليه وسلم واتهامه بعدم العدل حينما لا يتحقق لهم ما يتمنون من ايثارهم على غيرهم .

٣ - [أشحة على الخير]

الشح هو الحرص والمراد بالخير فى هذا السياق المال كقوله تعالى عن الانسان :

[وانه لحب الخير لشديد] (١٠)

وهذا التعبير تكرر فى المنظرين ، حيث كانوا فى منظر الخوف (أشحة عليكم) وفى منظر الأمن (أشحة على الخير) ولكنه كان منهم فى حال الخوف تكلفا ونفاقا حيث يظهرون الحرص على المؤمنين أما فى حال الأمن فقد كان هو الحقيقة التى تشف عما فى أعماق نفوسهم ، وهو الحرص على مصالحهم ومنفعتهم الشخصية وحدها .

وإذا كان منظرهم فى حال الخوف يثير السخرية فى تعلق عيونهم بشخص النبى صلى الله عليه وسلم وهى تدور مما يصطرح فى نفوسهم من الخوف وفى الوقت نفسه يتصنعون الاشفاق على المؤمنين والرضن بهم على

(١٠) ٨ سورة العاديات ، ويفسره قوله تعالى (وتحبون المال حبا جما) ٢٠ سورة:

المخاطر فان انتقالهم المفاجيء من حالة الرعب وما نتج عنها الى حدة اللسان وبذاءة القول والتطاول أشد اثاره للعجب والغرابة .

.

ومن صور أعين المنافقين كما يرسمها القرآن موضعا نفسياتهم وانفعالاتهم من خلالها قوله تعالى :

[فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت

الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى

عليه من الموت ٠٠٠] (١١)

فالقرآن هنا أيضا يصور المنافقين فى موقف معين ، هو موقف الخوف من اشتراكهم فى القتال ، وملابسات الصورة وعناصرها يتمثل أبرزها فيما يلى :

١ - ملابسات الموقف تتمثل فى قوله تعالى :

[فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ٠٠]

بمعنى أنه حينما تنزل سورة من القرآن وفيها أمر بالقتال فى سبيل الله ، وهذا الأمر محكم صريح لا يحتمل التأويل ، وبالتالي لا يتيح للمنافقين فرصة للتأويل أو التهرب ، لأنهم يدعون أنهم مسلمون ، وهذا الأمر صريح فى تكليف المسلمين القادرين أن يقاتلوا فى سبيل الله ، فسيجدون أنفسهم حينئذ فى مأزق يعرضهم للموت ، وهو اشتراكهم فى القتال الذى ليست لهم فيه مصلحة شخصية ، والمصلحة الشخصية هى كل ما تدور عليه حياتهم ، ولكن الموقف حينئذ ليس فقدان منفعة شخصية فحسب ، وانما هو تعرض مباشر للموت بدون هدف فى تصورهم ، فتمتلىء نفوسهم بالخوف الرهيب الذى يسيطر على كل ذرة فى كيانهم الحسى والمعنوى كما تبدو آثاره فيما يلى من تعبير القرآن عن هذه الصورة .

٢ - يشير تعبير القرآن الى اكتشاف انفعالات المنافقين واستشفاف

نفسياتهم من خلالها ليس متاحا لكل انسان ، وانما هو مرتبط بالتأمل ودقة الملاحظة ، فالذى يراقب حالهم وانفعالاتهم حينئذ يستطيع بدقة ملاحظته ان يدرك بوضوح ما يدور فى دخيلة نفوسهم من خلال مشاهدته آثار انفعالاتهم

إبادية فى عيونهم ونظراتهم ، وهذا كله مستفاد من لفظ (رأيت) بمعنى أن من يراقب حالهم حينئذ مستخدماً بصره وبصيرته فى لحظ ما يبدو عليهم من آثار الانفعال سيدرك فى وضوح ما يعتمل فى نفوسهم من الرعب والفرع . وليست هذه الدقة فى الملاحظة متاحة لكل راء ، لأنها تحتاج فوق المشاهدة الى نكاء ونفاد بصيرة وصحة استنتاج ، ولذلك كان الخطاب فردياً متمثلاً فى مخاطبة شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه النموذج الأعلى لكل صفات التميز ، ومن ثم لم يكن التعبير رأيتم أو نحوه مما يدل على الجمع ، وإنما كان بلفظ (رأيت الذين فى قلوبهم مرض ٠٠) ومن البدهة أن هذا لا يعنى أن النبى وحده هو الذى يكتشف حالهم ، وإنما يعنى أن هذا هو المنهج لاكتشاف المنافقين من خلال ما يبدو عليهم ، وهو دقة الملاحظة ونفاد البصيرة واستقامة الاستنتاج ، ويجتمع هذا فى لفظ (رأيت) الذى يعنى حتى فى دلالاته اللغوية الرؤية البصرية الحسية ، ورؤية البصيرة العقلية والوجدانية ، واجتماعهما لازم لاكتشاف المنافقين .

٣ - لفظ (مرض) من تعبير (فى قلوبهم مرض) لا تقصد به الدلالة الحسية للمرض ، وإنما يعنى أن فى المنافقين شذوذاً على الخلقة السوية لبنى آدم ، ومن الخلقة السوية فيهم النزعة الدينية التى يعبر عنها علماء النفس والاجتماع بغريزة التدين ، بمعنى الاحساس الفطرى لدى الانسان بوجود قوة عليا فى الكون هو ألوهية الله سبحانه مهما تصورهما فى صنم أو غيره والتى يعبر عنها فى الدين بالفطرة ، كقوله تعالى :

[فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر

الناس عليها ٠٠] (١٢)

بمعنى أنها الغريزة أو الطبيعة التى خلق الله الناس عليها ، كما فى الحديث الشريف :

[كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو

ينصرانه أو يمجسانه]

بمعنى أن كل مولود يولد ولديه الاحساس الدينى الروحى المتمثل فى الشعور بهذه القوة العظمى ، وهى قوة واحدة تعبيرها الصحيح (لا اله الا الله) ولكن المجتمع هو الذى ينزلق بالفرد فى متاهات العقائد المتعددة أو المتنوعة ، والأبوان هما المثلان للمجتمع فى تعبير الحديث الشريف .

وإذن فالحس الدينى الصحيح مركز فى طبيعة البشر ، وهى الطبيعة السوية لهم ، ولكن كما يوجد الشذوذ فى كل شىء ، وفى كل قاعدة ، فكذلك يوجد فى هذه الطبيعة البشرية ، والمنافقون يمثلون هذا الشذوذ على الطبيعة السوية ، والقرآن يعبر عن شذوذهم بما هو أدق وهو المرض ، لأن المرض ليست له حدود أو صور معينة ، بل هو شديد التفاوت والتنوع ، وكذلك النفاق ، منه ما هو فى السلوك ، ومنه ما هو فى العقيدة ، فاما نفاق الساروك فيمكن علاجه أو التخلص منه ، كما فى الحديث الشريف :

[ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت

فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى

يدعها ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا

عاهد غدر]

فهذا النوع يمثل المرض الطارئ على الطبيعة البشرية السوية واما نفاق العقيدة فهو يمثل فقدان الطبيعة السوية من أساسها ، بمعنى أننا نتصور بعض الناس يولدون وهم فاقدون الغريزة الدينية ، كما يولد بعض الناس وهم فاقدون السمع أو البصر مثلا ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

[۰۰۰ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم

يلقونه ۰۰۰] (١٣)

بمعنى أن هذا النوع من النفاق ثابت لا يرجى التخلص منه حتى الموت (١٤) .

٢ - وأما تعبير (ينظرون اليك) من قوله تعالى :

[رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك]

فرغم أنه جزء من المشهد أو الصورة المرسومة للمنافقين حينئذ ، إلا أنه يمثل السبب الأسمى لظهور النفاق ، فان المنافق انما ينافق حين يصطدم بقوة يخشاها ولا يستطيع فى وجودها اظهار ما فى نفسه ، والمنافقون حينئذ يخشون قوة المسلمين ، وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم عنوان هذه القوة ، فأبصارهم شاخصة اليه بوصفه القوة التى يخشونها والتى لا يستطيعون معها اظهار حقيقة ما فى نفوسهم .

(١٣) ٧٧ سورة التوبة .

(١٤) انظر فى هذا الموضوع كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع

الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - وأما تعبير (نظر المغشى عليه من الموت) من قوله تعالى :

[فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت
الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى
عليه من الموت ٠٠٠]

فهو يصور المشهد الذى يكون عليه حال المنافقين حينئذ ، وهو صلب الصورة التى يعنىها هذا الحديث ، والمغشى عليه هو الذى انتابه الاغماء ، وحالة الاغماء هى جوهر التشبيه الذى تعتمد عليه الصورة ، فان المغشى عليه يكون فاقد الحركة ، وفقدان الحركة هو الحالة التى تسيطر على المنافقين حينما يجدون أنفسهم فى هذا الموقف من الخوف الذى يبلغ أقصاه بالتعرض للموت فى القتال المطلوب منهم ، وهو مطلوب بأمر لا مجال للمراجعة فيه وهو القرآن ، فالمشهد اذن هو أن الخوف يسيطر عليهم حتى كأنهم فى متناول السيف فعلا ، فاذا كل كيانهم متجمد ، وقد تبدو صياغة هذا التصوير وكأنها مبالغة ، ولكنها حقيقة فى واقع الحياة فيما يتعلق بالخوف ، فانه من المعروف مثلا عن الفريسة حينما يهاجمها حيوان مفترس أنها تحاول الافلات بكل جهدها ، وقد تبذل جهدا قويا طويل الأمد فى محاولة الهروب ، والوحش يطاردها ، ولكنها حينما تشعر أنها أصبحت فى قبضته تستكين وكأنها تستسلم له دون أدنى حركة للمقاومة ، والواقع أنه ليس استسلاما ، ولكن الخوف حينئذ يسيطر عليها فاذا هى مشلولة الحركة ، وكذلك الانسان حينما يفاجأ بخطر داهم ، ويجد أنه أصبح فى قبضة هذا الخطر ، وليس له مفر منه ، يجد نفسه مشلول الحركة عاجزا عن الاتيان بأى مقاومة أو محاولة ، ولا يكون هذا أيضا استسلاما اختياريا وانما هو عجز عن الحركة نتيجة سيطرة الخوف الذى يصل الى سلب كل قدرة على الحركة ، ولقد رأيت ذات مرة فأرا فى سقف حجرة ، وفى الأرض قط يحملق فيه ، والفأر ثابت فى مكانه من السقف لا تبدو منه أية حركة وظللت أشاهد هذه الصورة الثابتة ، وما هى الا لحظات حتى سقط الفأر أمام القط ، لينقض عليه .

ومن هذا القبيل موقف المنافقين حينما يشعر الواحد منهم أنه فى قبضة قوة لا مفر منها وهى ممثلة الآن فى شخص الرسول ، والمنافق يتعرض لخطر مفاجىء هو نزول القرآن بما يتضمن طلب القتال من المسلمين ، وقد وضع المنافق نفسه فى عدادهم ، ولا مفر له من أن يقاتل معهم ، وهو يتصور نفسه حينئذ وهو فى موقف القتال فعلا وهو فى مواجهة

القوة التي لا طاقة له بمقاومتها أو التهرب منها وهي قوة المسلمين ممثلة في شخص الرسول ، فالناظر الى المنافق حينئذ والتأمل له سيجد أن الخوف قد سيطر عليه فشل كل حركة فيه حتى كأنه مغشى عليه ، ومن دقة تعبير القرآن (**نظر المغشى عليه من الموت**) فان المغشى عليه في الأحوال العادية تكون عيناه مسبلتين ، ولكن الميت تكون عيناه عادة مفتوحتين ، فالنافق حينئذ كالمغشى عليه ، ولكن عينيه مفتوحتان ينظر بهما نظرة تائهة لا حركة فيها كمنظر عيني الميت ، عين مفتوحة ولكن لا حركة فيها ولا حياة .

ومما تدل عليه نظرة العين من أحوال المنافقين ، حال الخبث والمكر والمراوغة ، حيث يستخدمون نظراتهم أحيانا لغة للتفاهم حينما لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم بالسنتهم .

والقرآن يعرض من هذا القبيل هذه الصورة :

[**واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل**

يراكم من أحد ثم انصرفوا] (١٥)

والصورة في ملابسها حين نتأملها نجد أنها توحى بأعمق كثيرا مما يدل عليه ظاهر ألفاظها القليلة ، فان محور الملابس هو خوف المنافقين من نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن كل احتمالات ما ينزل به الوحي وخصوصا القرآن لا يتوقع منه المنافقون الا طعنات لهم ، وبعض هذه الطعنات قد يكون قاضيا عليهم ، فلذلك ما ان يحس المنافقون أن وحيا نزل أو بدأ نزوله حتى يبادروا بمحاولة الهروب من مجلس المسلمين ، وخصوصا مجلس الرسول ، ومن احتمالات ما ينزل به الوحي بالقياس الى المنافقين :

١ - أن يكشف القرآن الذي ينزل به الوحي خبايا نفوسهم ومكنون ما يدبرونه بينهم في الخفاء ، وهم لابد قد جربوا قبل ذلك أن القرآن يرشد المسلمين الى كشف المنافقين بينهم ، سواء بالاشارة الى صفات المنافقين وما يبدو عليهم من انفعالات مميزة ، أو الى مسلك غير غادى منهم كما قال قائل المسلمين حين بدأ نزول هذه التوجيهات في القرآن لم يخف علينا منافق بعدها .

٢ - أن يتضمن ما ينزل به الوحي أمرا بتضحية سواء بالمال أو بالنفس ، وذلك حين يؤمر المسلمون بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهم معدودون من المسلمين ، فعليهم اذن أن يسهموا في هذه التضحية ، فهم

(١٥) سورة التوبة .

يريدون أن يهربوا قبل أن يسمعوا طلب هذه التضحية ، أو قبل أن تطلب منهم .

٣ - على أيسر الفروض بالقياس الى المنافقين أن ما ينزل من القرآن حتى وان خلا مما يتعلق بالمنافقين فإنه يزيد نفوس المسلمين ثباتا ويقينا فى الايمان ، ومزيدا من التطلع والأمل فى النصر ، وليس شىء أبغض من هذا كله الى نفوس المنافقين ، فهم اما منكرون للدين ساخرون منه ومن المصدقين به ، واما كارهون اياه نافرون منه أشد النفور ، فكل ما يأتى من قبل الدين ، وكل ما ينتج عنه يؤذى نفوسهم ، وتضيق به صدورهم ، وخصوصا القرآن ، فما أن يشعروا بنزول شىء منه حتى يسارعوا الى محاولة التخلص من المصدر ومن المكان الذى يتوقعونه منه .

ولكن خوفهم من أن يكتشف المسلمون دخيلة نفوسهم يجعلهم يحرصون كل الحرص على أن يكون تحركهم خفيا ، بحيث لا يشعر أحد من المسلمين بريية فيهم ، فهم يستخدمون حينئذ نظراتهم فيما بينهم لغة للحوار والتفاهم ، وصلب الرسالة التى تتناولها نظراتهم هو ما يتضمنه تعبير القرآن من أن كلا منهم كأنه يقول للآخر بنظراته الخاصة (هل يراكم من أحد) فاذا اطمأنوا الى أن أحدا من يشعر بريية فى مسلكهم (انصرفوا) وهذا مجمل مضمون الصورة :

[واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ٠٠٠]

وتعبير القرآن يفصل بوضوح ملابسات الصورة وعناصرها كما يلى :

١ - تعبير (اذا ما أنزلت سورة) يحدد مصدر الخوف والحذر عند المنافقين ، وهو نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، وفى القرآن كثير متفرق عن المنافقين وأحوالهم ونفسياتهم ومؤامراتهم ، والمنافقون لا شك قد سمعوا ذلك ، ولكنهم يحاولون اخفاء نفاقهم ليظلوا مستترين بستار الاسلام الظاهرى ، ولكن يظل الخوف من أن يكشفهم القرآن ماثلا فى نفوسهم ، فحين يسمعون أن قرآنا جديدا نزل على الرسول ، أو يشعرون بأن الوحي بدأ ينزل عليه ، وقد كان ينزل عليه الوحي أحيانا وهو جالس بين المسلمين ، حينئذ ينتابهم الخوف من نزول القرآن ومن انكشاف نفاقهم .

٢ - وتعبير (نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد) يتكون من جزءين ، جزء يتضمن الرسالة التى يتناولونها حينئذ ، وهى (هل يراكم

من أحد) بمعنى أنهم يريدون أن يتأكدوا أن أحدا من المسلمين لم يلاحظ
توجسهم وتحفزهم لمغادرة المكان حتى لا يكتشف نفاقهم ، والجزء الآخر
يتضمن الوسيلة التي يتناقلون بها الرسالة ، وهي وسيلة الإشارة بأعينهم
ونظراتهم (فنظر بعضهم ألى بعض) ومن الواضح فى السياق أنه ليس
نظرا عاديا ، وانما هى نظرات خاصة ، لأنها تتضمن رسالة خاصة وتفاهما
معينا بينهم .

٣ - وأما تعبير (ثم انصرفوا) فهو يمثل نتيجة الموقف ، وختام
المشهد ، فبعد أن امتلأت نفوسهم توجسا وحرزا وخوفا ، وبعد أن تفاهموا
فيما بينهم بنظراتهم ، واطمأنوا الى عدم كشف أمرهم يأخذون فى الانصراف
فى صورة التسلل ، ومعنى ذلك أنه لن يكون انصرافا جماعيا ، وانما هو
انصراف فردى حرصا على عدم إثارة الريبة فى انصرافهم ، والذي يدل على
هذا فى التعبير لفظ (ثم) الذى يفيد التراخى ، بخلاف ما لو كان التعبير
بالفاء أو الواو مثل فانصرفوا أو وانصرفوا .

وهكذا نجد القرآن يرشد الى أن العين نافذة الانسان المفتوحة ، التى
تكشف عن حبيب نفسه ، وعن نوع انفعاله ، كما بدت من خلالها خبايا
المنافقين وانفعالاتهم ، والواقع أن نظرات العين ودلالاتها مبحث واسع
مستفيض فى القرآن الكريم ، يصلح أن يكون بحثا مستقلا متكاملا ،
وما عرض فيما سبق ليس الا من باب التمثيل لنوعية معينة من الناس
هم المنافقون ، ومن أمثلة هذا المبحث فى غير مجال المنافقين :

دلالة نظرة العين على الغباء ، كما يشاهد فى نظرات الأبله ، حين
يخيل الى المشاهد أن هذا الشخص - وهو الأبله - يحدق فى شيء ، أو يتأمل
أو يفكر ، ولكنه فى الحقيقة ينظر نظرة تائهة لا تعنى شيئا الا مجرد كون
عينيته مفتوحتين ، ومن ذلك فى القرآن :

[وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون] (١٦)

بمعنى وهم لا يدركون بعقولهم شيئا ، فالمراد بالبصر هنا البصيرة
العقلية وليس البصر الحسى .

ومنها أيضا دلالة نظرة العين على الخيانة والغدر ، ومنه فى
القرآن :

[يعلم خائنة الأعين] (١٧)

(١٦) ١٩٨ سورة الأعراف .

(١٧) ١٩ سورة غافر .

ومنها دلالة نظرة العين على التأمل والتفكير ، ومنه فى القرآن :

[فنظر نظرة فى النجوم ٠٠٠] (١٨)

ومنها دلالة نظرة العين على الذلة والانكسار ، ومنه فى القرآن فى
تصوير قدوم أعداء الله الى جهنم فى الآخرة :

[وقراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل

ينظرون من طرف خفى] (١٩)

ومنها دلالة نظرة العين على الطمأنينة والرضا النفسى ، ومنه فى
القرآن عن ارجاع الله سبحانه موسى الرضيع الى أمه بعد القائه فى اليم :

[فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن] (٢٠)

ومنه دلالة نظرة العين على الحياء ، وأوضح ما يبدو هذا فى نظرة
المرأة ذات الحياء ، ومنه فى القرآن وصف نساء الجنة :

[قاصرات الطرف] (٢١)

بمعنى أنهن يقصرن نظراتهن على شئونهن ، فلا يمدونها الى أحد
أو شىء ، والشنفرى الأزدي (٢٢) يعبر عن نظرة الحياء فى أثناء السير
بقوله :

كأن لها فى الأرض نسيا تقصه :

والنسى بكسر النون الشىء المنسى ، وتقصه بمعنى تتبع أثره ، يعنى
أنها فى أثناء سيرها تخفض بصرها الى الأرض كأنها تبحث عن شىء سقط
منها وتظل هكذا طوال سيرها كأنها تتبع أثر هذا الشىء .

• (١٨) ٨٨ سورة الصافات

• (١٩) ٤٥ سورة الشورى

• (٢٠) ١٣ سورة القصص

• (٢١) ٤٨ سورة الصافات

• (٢٢) الشنفرى شاعر جاهل من أشهر الصعاليك ومن أجود شعراء العرب شعرا .

سخرية القرآن والشرك

ولقد كانت جبهة الشرك بعتوها وعنادها ولدها فى الخصومة فى حاجة الى حشد كل الأسلحة لمقاومتها وصد هجومها العاتى على الاسلام، هذا الهجوم الذى كلف النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الجهد والعناء والدماء ما ليس فى حاجة الى بيان .

ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أفرغوا فى هذه المقاومة كل ما يملكون من جهد ومال واستعداد لبذل الدماء الا أن كل هذه الجهود لم تكن لتصل الى منابع الشرك كما وصلت اليها سخرية القرآن ، فان جهود المسلمين كانت تمثل المواجهة العلنية والعسكرية للشرك ، أما سخرية القرآن فكانت تمثل الحرب النفسية الموجهة الى الركائز والقواعد التى تعتمد عليها جبهة الشرك فى موقفها وصراعها مع الاسلام، ومن المعروف أن الحرب النفسية أخطر وأهم من حرب المواجهة ، لأن قوة كل طرف فى حرب المواجهة انما تعتمد على نفسيته ومعنوياته ، فبمقدار يقينه بصدق موقفه ، أو ثقته فى نفسه ، أو أمله فى النصر على خصمه تكون قوته .

وسخرية القرآن اتجهت الى نفسيات المشركين ومعنوياتهم لتدميرها، ثم اشعارهم بأنهم يقفون على هاوية ، ويعتمدون على وهم ، ويقبلون على خسران مبین فى الدنيا ، وعذاب أليم مهين فى الآخرة ، فلا أمل لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وكما فى القرآن الكريم :

[خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبین] (١)

وحيثما يصل هذا المعنى الى نفسية أى طرف فى الخصومة ، حتى قبل أن يصل الى درجة الاقتناع به فان نفسيته لا بد أن يحدث فيها من

(١) ١١ سورة الحج .

التهاوى والتضائل ما يرتد الى موقفه فى الخصومة ، وقد أوصلت سخرية القرآن هذا المعنى الى نفسية المشركين ، بل وعمقته فيها تعميقا ، حين وجهت أسلحتها الى كل القواعد التى يعتمد عليها موقف الشرك كما سدرى فدمرتها تدميرا ، فأصبح المشركون فى خصومتهم مع الاسلام كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ولا شك أن القرآن بأسلحته النفسية المتعددة ، ومن أبرزها سلاح السخرية كان أهم عامل فى سرعة انتصار الاسلام على الشرك ، وما كانت كل حصون الشرك العاتية لتتهاوى أمام المسلمين فى بضعة سنوات لولا أن القرآن كان يسبقهم اليها فيحطمها من الداخل فلا يبقى الا الهيكل الخارجى الذى يتمثل فى حشود المشركين خاوية العزائم ، لأنها لا تجد شيئا من الحق تعتمد عليه ، ولا تحس بمبدأ أو عقيدة صادقة تدافع عنها ، وأملها فى النصر فى مهب عواصف عاتية يدفع اليهم بها هذا القرآن .

وأهم هذه القواعد التى يعتمد عليها الشرك ، والتى اتجهت اليها سخرية القرآن فزلزلتها .

الآلهة :

والآلهة هى المعبودات التى تعبد من دون الله أيا كان نوعها ، والقرآن يشير الى اعتماد المشركين نفسيا على الآلهة بوصفها قاعدة ترتكز عليها قوتهم المعنوية فى مثل قوله تعالى :

[واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا] (٢)

ولكنه يوضح لهم أنهم واهمون فى هذا ، بل هذه الآلهة نفسها وان كانت جمادا فان الله سينطقها يوم القيامة فتكون عدوا لمن يعبدونها ، ولذلك كان الرد فى القرآن على المعنى السابق :

[كلا سيكفرون بعبادتهم ويكفون عنهم ضدا] (٣)

وفى توجيه نفسى عميق الدلالة يحاول القرآن نقل المشركين فى جبهة الصراع من جانب الشرك الى جانب المؤمنين ، حيث يؤكد لهم أن العزة التى ينشدونها ليست فى جانب الآلهة ، وانما هى فى جانب الايمان بالله الواحد ، كقوله تعالى :

[والله العزة ولسوله وللمؤمنين] (٤)

وأول ما يتجه اليه الذهن فى هذا المجال هو مناقشة مدى صدق دعوى الوهية هذه الآلهة ، هل هم آلهة حقا ؟

(٢) ٨١ سورة مريم .

(٣) ٨٢ سورة مريم .

(٤) ٨ سورة المنافقون .

والقرآن يرد على هذه الدعوى بأساليب كثيرة متنوعة . منها أسلوب السخرية ، الذى يتضمن الرد العقلى على هذه الدعوى ، ولكن فى صياغة تتسم بالسخرية من طبيعة هذه الآلهة ، ومن مدى قدرتها .

ومن ذلك قوله تعالى :

[ياايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب] (٥)

فالآية فى موجزها ترسم صورتين مفترضتين شديديتى السخرية من الآلهة ومن عجزها ، فأما الصورة الأولى فتتضمن كأن الآلهة جميعا اجتمعوا ليحاولوا عمل شيء يدل على أنهم آلهة وهو الخلق ، فعمدوا الى أهون المخلوقات المعروفة فى حياة الناس وأحقرها وهى الذبابة ، ورغم تعاونهم جميعا وقآزرهم على خلقها فلم يستطيعوا .

وأما الصورة الثانية فكان الآلهة جميعا كانوا مجتمعين ، وكان أمامهم شيء يأكلونه مثلا فجاء الذباب أو ذبابة فاختطفت هذا الشيء ، فحاول الآلهة مجتمعين أن يأمرها بارجاع هذا الشيء كما ينبغي للآلهة أن تفعل ، فلم يستطيعوا ، وحاولوا مجتمعين أن يطاردوها كما يفعل الانسان العادى فى محاولة استعادة ما يختطف منه ، فلم يستطيعوا ، فالذبابة ضعيفة ، ولكن الهتهم أضعف منها حيث غلبتهم الذبابة على أمرهم سواء فى خلقها وفى مسلكها ، ولذلك كان التعقيب المحكم للقرآن حينئذ (ضعف الطالب والمطلوب) والطالب هم الآلهة ، والمطلوب الذباب .

والسخرية واضحة فى الصورتين ، فان محض اقتران الآلهة بالذباب والموازنة بينهما سواء فى القوة أو فى أى شيء هو سخرية بالغة بالآلهة ، ثم عجز الآلهة ، وليس الها واحدا عن خلق أهون شيء وأحقره فى أعين الناس وهو الذبابة ، هو سخرية أخرى بالآلهة ، ثم منظر الآلهة مع منزلتهم عند عابديهم وهم مجتمعون ليطارذوا ذبابا ويسابقوه ليحاولوا استنقاذ شيء قد سلبه منهم هو أيضا صورة بالغة السخرية بالآلهة ، ويعقول من يعبدون هؤلاء الآلهة .

ولكن صياغة القرآن توحى فوق ذلك بالكثير من الدقة والعمق والتوجيه ومن ذلك :

١ - التمهيد للصورة بتعبير :

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعْتُمْ لَهُ ٠٠]

والمراد بالناس المشركون ، حيث يخاطبهم سبحانه بعد ذلك بقوله :

[أَنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ٠٠٠]

ومدلول تعبير (فاستمعوا له) يمثل هدفا جوهريا فى الاسلام وهو استخدام العقول ، فالمراد بالاستماع التأمل والتدبر ، وأى استماع بدون فهم ووعى لا قيمة له ، واستخدام العقل أساس فى الايمان الصحيح ، لأن الاسلام واضح المعالم ، يسير المأخذ ، لا يلتوى على أى فكر ، ولا يحتاج الى جهد عقلى لتبين حقيقته ، فمنطق الاسلام يكاد ينحصر فى هذا التسلسل اليسير القريب المأخذ ، وهو أن الكون لا يعقل أن يوجد بدون موجد ، فكل موجود لابد أن يكون له موجد ، والقرآن يوضح لهم هذه الحقيقة فى هذا السؤال الذى يوجهه اليهم عن أنفسهم :

[أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ] ؟ (٦)

بمعنى هل وجدوا بدون خالق ؟ أم هم خلقوا أنفسهم ؟ والشق الأخير وهو (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) يتضمن نوعا من السخرية ، فلا يعقل أن يخلق الشيء نفسه .

والمرحلة الثانية فى التسلسل العقلى الاسلامى هو : اذا سلمنا بأنه لا بد للكون من خالق وهو بالضرورة الاله الخالق ، فهل يصلح فى العقول أن يكون هناك أكثر من اله خالق فى الكون ؟ ولكن اتساق نظام الكون على نسق واحد غير مختلف ولا مضطرب يقضى بأن الخالق لهذا النظام الواحد لابد أن يكون الها واحدا ، والقرآن يوضح هذه الحجة العقلية فى قوله تعالى :

[لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا] (٧)

يعنى السموات والأرض .

واذن فالنتيجة العقلية القريبة المأخذ فى العقول هى (لا اله الا الله)

ولأهمية استخدام العقول فى الاسلام نجد القرآن يحض دائما حضا

(٦) سورة الطور ٣٥ .

(٧) سورة الانبياء ٢٢ .

شديدًا على استخدام العقول بأساليب وصيغ مختلفة متعددة ، منها التمهيد لهذه الصورة الساخرة من الآلهة ، فان تعبير (ضرب مثل فاستمعوا له) يعنى طلب استخدام العقول لفهم هذه الحقيقة ، وادراك مدى الضلال العقلى الذى يسبح فيه المشركون حتى يشركوا مع الله أى معبود غيره .

٢ - تعبير (قدهون من دون الله) المراد به تعبدون من دون الله ، لأن سياق الحديث واضح فى الدلالة على الآلهة التى يعبدونها ، ولكن القرآن يتحاشى التعبير بلفظ العبادة لهذه الآلهة ، رغم السخرية منها ، وكأن لفظ العبادة لغير الله لا يصح أن يذكر ولو فى سياق البطلان أو السخرية ، فهى دعوة يدعونها وليست عبادة حقيقية .

٣ - لفظ (اجتمعوا) له دلالة اجتماعية فوق دلالته الدينية ، فان القبائل العربية لم تكن تعبد الها أو صنما واحدا ، وانما كان لكل قبيلة اله معين ، وكذلك فى غير قبائل العرب آلهة متعددة ، فقد تدعى قبيلة أن معبودها أقوى أثرا من معبود غيرها ، أو أن العجز الذى يوصف به الآلهة لا يسرى على معبودها ، فان تعبير القرآن أن هذا العجز ليس موصوفاً به معبود أو معبودون معينون ، بل أن كل الآلهة التى يعبدها البشر من دون الله على تعددها واختلاف أنواعها لو اجتمعت على أن تخلق أهون شيء كالذباب فلن تستطيع ، بل لن تستطيع مغالبة هذا المخلوق الهين الضعيف الذى خلقه الله وهو الذباب ، ولفظ الذباب لا يقصد به الجمع ، وانما يقصد به الجنس ، أى لن يخلقوا شيئاً من جنس الذباب ولو ذبابة .

٤ - ولفظ (يسلبهم) من جملة (وان يسلبهم الذباب شيئاً) ليس مرادا به ظاهره ، فان السلب فى حقيقته هو أخذ الشيء عنوة ، يقال سلبه متاعه اذا انتزعه منه قهرا وغلبة ، والذباب لا ينتزع شيئاً بقوة واغتصاب وانما يختطف اختطافا ، وكان يمكن أن يكون تعبير القرآن نحو الاختطاف ، ولكن السياق يهدف الى اثبات عجز الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، فكان الأنسب من الألفاظ ما يؤدى معنى أن الذباب أقوى من هذه الآلهة حتى انه يستلب منها ما يستلب عنوة وقهرا ، ويؤيد هذا عجز الآلهة عن استنقاذ ما يستلبه الذباب منهم (وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنفذوه منه) .

٥ - وتأتى فى الآية التالية مباشرة نتيجة هذا ، فى العبرة البالغة بالتأثير فى القلوب والعقول ، وهى :

[ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز] (٨)

ففى هذا رد على الصورتين السابقتين ، صورة ادعاء المشركين أن هناك آلهة غير الله ، فهم حينئذ لا يقدرّون مقام الله سبحانه حتى قدره ، بصورة وجود أية قوة ذات قيمة حقيقية بعيدا عن الله ، فإن الله هو القوى العزيز .

ولئن كانت السخرية السابقة منصبية على المعبودات المرئية مما يعبده البشر من الآلهة فإن القرآن يوجه أيضا سخريته نحو المخلوقات غير المرئية مما يعبده البشر ، وهم ابليس وجنوده ، فإن من الناس من يضعون أنفسهم تحت سلطان الشياطين ، يأتمرون بأمرهم ، ويخضعون لهم خضوعا مطلقا كخضوع العابد للاله الذى يعبده ، وهذه النوعية من الضلال لم يخل منها عصر ولا مكان فى طول التاريخ ، وان اختلفت صور العبادة الخضوع ، ولا زالت هذه النزعة موجودة فى كل أنحاء الأرض ، حتى فى الشعوب التى تزعم أنها لا تنقاد الا للعلم والعقل ، ولا تزال وسائل الاعلام تنشر أخبارا من هذا القبيل لغرابتها ومن آخرها ما هو منشور اليوم عن جمعية تسمى نفسها جمعية الشياطين وهى فى دول الغرب ، ويتضمن تحقيق صحفى معتمد على مصادر علمية ورسمية أن أعضاء هذه الجمعية فى أمريكا وكندا لا يقلون عن أربعمائة ألف شخص رجالا ونساء ، وأنه وان كانت حياتهم وقوانينهم تتسم بالسرية الا أن طابعهم العام هو الخضوع الكامل لكل ما يستوحونه من الشياطين (٩) .

واذن فلم يكتف البشر بأن يعبدوا من دون الله ما يرون ، فعبدوا ما لا يرون ، وهم يعلمون حينئذ أنهم يعبدون عدوهم الاله ابليس ، والقرآن يسوق هذا المعنى فى تصوير ساخر من العابدين والمعبودين ، فى قوله تعالى :

[واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا
الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه
أفنتخذونه ونريته أولياء من دونى وهم لكم عدو
بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات
والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين
عضدا ، ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم
فدعواهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم
موقفا] (١٠)

(٩) انظر صحيفة الأهرام المصرية يوم السبت ٢٣ يونية سنة ١٩٩٠ الصفحة الثالثة بعنوان (الشيطان أخذ ابنتى) وهى شكوى أم كندية أخذ أعضاء هذه الجمعية ابنتها خريجة الجامعة وضموها اليهم .
(١٠) (١٠) - ٥٢ سورة الكهف .

وجوهر الصورة يتضمن النعى على الذين يتركون عبادة الله
ليستبدلوا بها عبادة الشيطان المتمثل فى ابليس وذريته متجاهلين أمرين
تقوم الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع عليهما أو على أحدهما ، وهما
النزعة الدينية ، والنزعة العصبية ، وفى النزعة الدينية الصحيحة كان ينبغى
أن يعبدوا الله وحده ، وأى اتجاه دينى غير هذا فهو باطل ، وفى النزعة
العصبية كان يتوقع كما فى عرفهم أن يتعصبوا لجنسهم وهو الأدمية ورمزه
أبوهم الأعلى آدم ، فلا يعبدوا عدوا لجنسهم ولأبيهم ، فهم بعبادتهم
الشياطين خرجوا على كل الأعراف الاجتماعية دينيا وعنصريا ، وقد كان
ينبغى أن يفهموا أن العبادة لا تكون الا لئله الخالق ، وهو الخالق الأصلى
الذى خلق كل شئ فى السموات والأرض ، والشياطين وعلى رأسهم
ابليس لم يخلقوا السموات والأرض لأنها موجودة قبلهم ، فهم لم يخلقوا
ولم يساعدوا فى الخلق ، بل لم يشهدوا هذا الخلق أصلا ، فإله سبحانه
حين أراد أن يخلق كان وحده ، ولم يكن معه أحد أو شئ غيره .

ولكن سخرية التصوير تتركز فى أكثر من موضع ، منها المشاهدة
فى (ما أشهدتهم) بمعنى أن الله سبحانه حين أراد أن يخلق السموات
والأرض لم يحضر ابليس وذريته ليشاهدوا هذا الخلق فضلا عن أن يسهموا
أو يعاونوا فيه ، وهذه المشاهدة رغم أنها منفية الا أن نفيها يحتاج
بالضرورة الى تصورهما فى المخيلة ، واذن فلا بد أن ترتسم لها فى الذهن
صورة قبل أن تعرض على العقل لنفيها ، ومجرد ارتسام هذه الصورة
فى ذهن المؤمن بالله يثير فى نفسه استنكارا وغرابة بالغين ، ويكون صدق
هذا هو السخرية من هؤلاء المشركين الذين لا يدركون مدى التهم بهم
وبعقولهم حين يشركون الشياطين مع الله .

ومن مواضع السخرية صورة (خلق أنفسهم فصورة كونهم يخلقون
أنفسهم رغم أنها أيضا منفية الا أنها لا بد أن ترتسم فى الذهن حتى يستطيع
العقل نفيها ، وارتسام صورة انسان يخلق نفسه أيضا بالغة الغرابة ، بل
هى مستحيلة فى العقول ، ان كيف يصدر اليجاد من غير الموجود ؟ فهم
قبل أن يخلقوا لم يكونوا موجودين ، فكيف يخلقون أنفسهم مع أنهم غير
موجودين أصلا ؟ وحتى فى صورة المشاهدة يبقى السؤال نفسه قائما
بكل غرابته واستحالته فى العقول ، وهو كيف يشاهدون خلق أنفسهم قبل
أن يخلقوا هم ، أى قبل أن يكون لهم وجود أصلا ؟ وليس هناك ما يدعو
الى تأويل خلق أنفسهم بأن المراد به خلق بعضهم بعضا ، فان هذا التأويل
ينهب أهم ما يتضمنه المعنى وهو ابراز الغرابة والاستنكار الموجه الى
موقف المشركين ، فضلا عن ذلك فان التأويل نفسه لا يستقيم فى أصل
المعنى وهو مشاهدة أول المخلوقين منهم ، بمعنى اننا اذا افترضنا جدلا أن

بعضهم شاهد خلق البعض الآخر ، فمن الذى شاهد المخلوق الأول منهم ؟
ولكن الذى يستقيم فى العقول أن القرآن يتهم بعقولهم وموقفهم فى الشرك ،
وكأنه يقول كان يمكن أن تكون للمشركين وجهة فى الشرك بالشياطين ، لو
أن الشياطين كانوا خالقين ، أو معاونين فى الخلق ، أو حتى مشاهدين
أياه ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فشركهم اذن باطل .

ومن صور السخرية هنا أيضا نفى المعاونة لله فى جملة (وما كنت
متخذ المصلين عضدا) بمعنى ما كنت لأتخذ المفسدين عوناً لى فى الخلق ،
وأيضا لابد أن يسبق نفى هذه الصورة ارتسامها فى الذهن ، فلا بد أن ترتسم
فى الذهن صورة أن الله سبحانه أتى بالمصلين المفسدين ليعاونوه ، حتى
يمكن نفى هذه الصورة ، فلا يمكن عقلا نفى شىء قبل تصوره فى الذهن ،
وإذن فالصورة المنفية لها صورة فى الذهن ، وهذه الصورة تتضمن سخرية
فى جانبين ، أحدهما مبدأ استعانة الله بأى أحد أو أى شىء ، فإن أى مؤمن
لا يستسيغ تصور استعانة الله بغيره ولو افتراضا أو تخيلا ، فحين يصور
القرآن هذه الصورة رغم نفيها فانما تحمل على السخرية من المشركين الذين
يسرفون فى شركهم حتى كأنهم يدعون وجود هذه الصورة البالغة الغرابة
والنكر ، وهى أن الله يحتاج الى الاستعانة بغيره .

والجانب الآخر من السخرية فى هذه الصورة أوضح فى السخرية
وأعمق ، وهو يتركز فى لفظ (المصلين) فى سياق الاستعانة التى نفاها
القرآن ، فاذا كان تصور استعانة الله سبحانه بغيره من حيث المبدأ بالغ
الغرابة والنكر ، فإن استعانته بالمفسدين المصلين أشد غرابة ونكرا ، لأن
الاستعانة بالمفسدين منكورة حين تصدر من أى أحد غير الله ، فكيف بها حين
نتخيّلها ولو خيالا صادرة من الله ، ونفيها لا يذهب عنها الغرابة ، وإنما
يجولها من الانكار الى السخرية ، بمعنى أن هذه الاستعانة حين تصدر
من شخص حقيقة فانها تستحق الانكار عليها ، ولكن حين ننفىها عنه مع
علمنا بأنها لا تليق به يتحول المعنى الى لون من السخرية بالمصدر الذى كان
دافعا الى تصوير هذه الصورة المنفية ، وهذا المصدر فى هذه الصورة من
القرآن هو عقلية هؤلاء المشركين .

ولكن صياغة الفاظ هذه الصورة أعمق بكثير فى دلالتها مما يوحيه
ظاهر معانيها ، ومن ذلك :

١ - صياغة :

[وإنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس]

كان من الجن ففسق عن أمر ربه [

تتضمن ابراز معنيين كان يجدر بالمشركين ادراكهما ، اولهما ان ابليس عدو قديم لآدم وذريته ، ولم يكن يحسن بمجتمع الشرك ان يعبدوه او ان يتخذوه هو وذريته اولياء لهم ، فالعصبية التي تقوم عليها حياة مجتمعهم وحياة كل المجتمعات تآبى الولاء للعدو ، وخصوصا اذا كان عدوا للآباء الذين يكاد المجتمع العربى يقدسهم لمجرد كونهم آباء وأجدادا ، وليس المجتمع العربى وحده هو الذى يقوم على العصبية ، فان العصبية تكاد تكون نزعة فى كل مجتمعات البشرية مهما تكن نوعيتها أو ثقافتها ، فهى فى المجتمعات البدوية تأخذ صورة العصبية القبلية ، وفى المجتمعات الدينية أو الفكرية تأخذ صورة العصبية المذهبية ، وفى المجتمعات المدنية تأخذ صورة العصبية الحزبية ، أو العصبية الرياضية أو غير ذلك ، فكل فريق يتعصب لفريقه ، وكل حزب يتعصب لحزبه ، ولكن المشركين حينئذ يخرجون على هذه العصبية فيتولون عدوا لهم ولآبائهم ، وليست هذه الاشارة فى القرآن تأييدا للعصبية أو اقرارا لها ، وانما هى ابراز لشذوذ المشركين حتى عن المنطق المألوف الذى درجوا عليه .

وثانى المعنيين اللذين كان يجدر بالمشركين ادراكهما أنهم حين يعبدون الشياطين أو يتخذونهم اولياء لهم بدلا عن الله فانهم بذلك يكونون باحثين عن الدين ومتجهين اليه ، وقد كان هذا يقتضى منهم ان يستخدموا عقولهم فى الرجوع الى المصدر الدينى الاصيل والصحيح وهو الاتجاه الى الله الخالق لا الى المخلوق ايا كان ، وقد كان ينبغى ولو من باب الخلق والوفاء ان يوازنوا بين من كرم آباهم آدم حتى أمر الملائكة بالسجود له وهو الله ، ومن استهان به وتكبر عليه وهو ابليس ، ولكنهم يعكسون كل الموازين ، فينبذون جانب الله ، ويتخذون عدوهم ابليس وذريته اولياء لهم من دون الله [**بئس للظالمين بدلا**]

٢ - تعبير (اولياء) فى قوله تعالى :

[**أفتتخذونه وذريته اولياء من دونهى**]

أعم من العبادة ، بمعنى أن السياق يدل على أن موقف المخاطبين كان شركا بالله وكفرا ، بدليل (اولياء من دونهى) أى أنهم تركوا الله واتخذوا الشياطين بدلا منه ، وهذا لا يكون الا كفرا وشركا ، وكان المنتظر حينئذ أن يكون التعبير نحو عبدتم الشياطين من دون الله ، أو جعلتموهم آلهة ، ولكن لفظ اولياء فى العرف العربى اصطلاح اجتماعى وليس دينيا ، بمعنى أنهم يستخدمون لفظ الولى للسيد وللنصير بصرف النظر عن الموقف الدينى ، ولا تعارض بين أن يكون الشخص مؤمنا بالله ويتخذ له وليا قويا من الناس يتناصر به ، أو يحتمى به من الظلم ، وهو عرف شائع عند العرب ، فالقرآن

استخدم لفظ الولاء دون العبادة لتعميم التنفير من اللجوء الى الشياطين ،
سواء بعبادتهم ، أو الخضوع لهم ، أو أية صورة من صور الولاء ، لأن
الأيسر قد يجر الى ما هو أسوأ .

٣ - تعبير (بدلا) من قوله تعالى :

[بنس للظالمين بدلا]

يتضمن زيادة النجى على مسلك هؤلاء المشركين وتسفيه موقفهم ،
من حيث أن من يبحث عن ولى يتناصر به ويحتمى بقوته فالمفروض أن
بختار الأقوى وليس من الحكمة أن يترك الأقوى ليختار مكانه الأضعف ،
كما فعل هؤلاء المشركون حين تركوا الاحتماء بقوة الله ، ولجأوا الى ضعف
الشياطين يتخذون منه ولاية لهم ، فبنس هذا التفكير و (بنس للظالمين بدلا)

٤ - لفظ (شركائى) من قوله تعالى :

[نادوا شركائى الذين زعمتم]

فرغم أن لفظ الزعم ينفى صحة الشركة مع الله ، لأنه لا شركاء لله
على الحقيقة ، الا أن ذكر الشركاء حين يصدر عن الله سبحانه رغم نفى
الشركة لابد أن يثير فى نفس المؤمن لونا من السخرية بالمشركين ، بمعنى
أنه لو قال شخص ان لله شركاء فرغم أن هذا ادعاء باطل عند المؤمنين ،
الا أنه واقع عند المشركين بالله ، وما دام واقعا فان العقل السليم لا يجد
غرابية فى تصويره ، وانما تكون الغرابية فى ادعاء صحته .

أما حين يتحدث الله نفسه سبحانه عن شركاء له رغم نفى صحة
هذا ، فهنا تأخذ الصورة مسار السخرية من المشركين ، خصوصا حينما
يحدث تثبيت للصورة المزعومة بلفظ (نادوا) من قوله تعالى :

[نادوا شركائى]

فان نداءهم يتضمن أنهم موجودون فعلا ، ويؤكد هذا الوجود لفظ
(فدعوهم) كل هذا هو محل الطرافة والسخرية ، ولكن النتيجة هى
الحقيقة ، والحقيقة أنه لا شركاء لله ، ولذلك كانت نتيجة نداءهم ودعوتهم
(فلم يستجيبوا لهم) فى قوله تعالى :

[فدعوهم فلم يستجيبوا لهم]

٥ - منطوق تعبير :

[وما كنت متخذ المضلين عضدا]

يتضمن نفى الاستعانة بالمضلين المفسدين ، ولكن يبقى مفهوم التعبير هي ظاهره ، حيث يتضمن أنه يمكن الاستعانة بغير المضلين ، كالمُرشدين المصلحين ، ومن البدهة عند أى مؤمن أن هذا المفهوم غير مقصود ، فإن الله سبحانه ليس فى حاجة الى الاستعانة بأحد أو بشيء اطلاقا ، لا من المضلين ولا من الهادين ولا من غيرهم ، وانما سيق الأسلوب كله مساق الطرافة والسخرية من عقول المشركين الذين كان ينبغى أن يدركوا أنه ما دام الله هو خالق السموات والأرض وما فيهما ، فاذن كل من عداه فى السموات والأرض فهو مخلوق لله ، فكيف يستعين الخالق بالمخلوق فى الخلق نفسه ؟ لأن النفى منصب على الاستعانة فى خلق السموات والأرض وخلقهم هم :

[ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق

[أنفسهم

والسياق يشير الى أن المقصود بأشهادهم الخلق هو الاستعانة بهم ، بدليل أن نتيجة المعنى كانت نفى الاستعانة (وما كنت متخذ المضلين عضدا)

فالمعنى من الناحية الدينية واضح فى ضوء الايمان ، وهو أن الله تعالى ليس فى حاجة الى أى عون من أى أحد أو أى شيء ، ولكن صياغة التعبير جاءت بهذه الطرافة من باب التهكم والسخرية بعقول المشركين ، لعل هذه العقول تفيق وتدرك ولو شيئا من حقائق الكون ، وبدهيات الخلق ، مما يتناسب مع جلال الله الواحد الذى لا شريك له فى الخلق والملكوت .

وفى صورة أخرى يعمد القرآن الى الجانب النفسى لدى المشركين ، وهو التماس الأمن ، فإن أساس النزعة الدينية ، أو ما يسمى بالغريزة الدينية عند البشر سواء المؤمن منهم والمشرك هو الاحساس الطبعى بوجود قوة كبرى مؤثرة بالنفع وبالضرر ، بحيث يرجى منها الخير ، ويخشى منها الضرر ، ومهمة الأنبياء جميعا ليس أن يوجدوا نزعة الدين فى النفوس ، وانما أن يوجهوها الوجهة الصحيحة ، وهى أن هذه القوة تتمثل فى وحدانية الله ، ولكن كثيرا من الناس لا يستجيبون لتوجيه الأنبياء ، فيوجهون غريزتهم الدينية توجيها خاطئا ، حيث يتمثلون هذه القوة التى يحسونها فى الكون فى صنم أو حيوان أو غير ذلك ، سواء اعتقدوا أنه الاله أو الوسيلة الى الاله ، ولكن يبقى الاحساس بأن هذا المعبود هو مصدر النفع والضرر ، ويتلخص احساسهم حينئذ فى اتخاذ هذا المعبود ملاذا

وحماية لهم ، وهذا من أهم ما يحتاج اليه الانسان فى حياته ، فان حاجته الى الأمن حاجة أساسية يقرنها القرآن بالحاجة الى الطعام فى قوله تعالى فى سياق المن على قريش :

[أطمعهم من جوع وأمنهم من خوف] (١١)

ولجوء المشرك الى عبادة ما يعبد انما هو التماس للأمن النفسى فى حماية هذا المعبود الذى يعبده .

ولكن القرآن فى مثل هذه الصورة يبدد هذا الوهم الذى يتخيلونه أمنا ، حيث يقول تعالى :

[مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل

العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت

العنكبوت لو كانوا يعلمون] (١٢)

ومضمون الصورة أن الذين يحتمون بغير الله أشبه بالعنكبوت حين تنسج لنفسها بيتا تظن أنه سيحميها ، بينما هو فى الحقيقة لا يحميها من عدو ، بل ولا يسترها ، فستظل وهى فى بيتها مكشوفة لكل ناظر ، ومعرضة لكل هجوم .

وخلاصة المعنى الذى تهدف اليه الصورة هى تأكيد أن احتمال أعداء الله بأية قوة غير الله لن ينفعهم ولن يحميهم كما يتخيلون .

ولكن صوغ المعنى فى هذه الصورة الساخرة يجعل لها وقعا فى النفوس لا يدانيه وقع أى معنى مجرد ، فلننظر الى التأثير النفسى الذى يحدثه تصور طائفة من الناس يواجهون أعداءهم فى صراع ، وقد اتخذوا مجتمعين ، أو اتخذ كل منهم حول نفسه نسيج عنكبوت جعله بيتا أو حصنا يحتمى به من أعدائه ، فكيف يكون منظره وهو داخل هذا النسيج ؟ وكيف تكون نفسيته حين يكتشف أن ما يحتمى به ليس الا بيت عنكبوت ؟ وكيف يكون ضحك الناظرين اليه وسخريتهم منه لو أن رساما رسمه فى رسم تعبيرى (كاريكاتير) وهو يحتمى من أعدائه بنسيج عنكبوت ؟ ثم لو تصورنا أن رساما استطاع بمهارة أن يرسم أعداء الله وقد تحصنوا ببيوت العنكبوت ليحتموا بها من مهاجمة المسلمين ، فأية روعة فنية يثيرها هذا التصوير التعبيرى .

(١١) سورة قريش .

(١٢) سورة العنكبوت .

ومما يلفت النظر فى الصياغة اللفظية للصورة لفظ (أولياء) وذلك من ناحيتين :

١ - ناحية الدلالة اللغوية ، فان الأولياء جمع ولى ، والولى فى لغة العرب وكذلك المولى كلاهما لفظ واسع الدلالة ، حيث يطلق على الرب والملك والسيد والمنعم والمعتق الذى صدر منه العتق وهو السيد ، والمعتق الذى صدر له العتق وهو العبد ، ويطلق على الناصر والمحب والتابع والجبار وابن العم والحليف ، وعلى كل من المتعاقدين فى عقد ، والصهر والعبد ، وكل من له ولاية على النفس . وهذا التوسع فى الدلالة من جوانب اعجاز القرآن ، فانه يستخدم ألقاظا فى مواضع معينة لأهميتها ، وهذه الألفاظ تبدو فى ظاهرها ذات دلالة عادية ، ولكن تأملها يوحى بفيض واسع من الايحاءات الجانبية تصبغ كالهالة المحيطة باللفظ ، ومنها (أولياء) هنا .

٢ - والناحية الثانية أن السياق هو حديث عن المشركين ، والمشركون يتخذون من دون الله آلهة يعبدونها وليس أولياء يتناصرون بهم فحسب ، ولكن القرآن يترك لفظ آلهة الذى كان ينتظر أن يكون عليه التعبير مثل اتخذوا من دون الله آلهة ، ويعمد الى لفظ الأولياء ليصبح كأنه تنبيه وتحذير من الاعتماد على غير الله ، والاحتماء بأية قوة غير جانب الله ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالعقيدة كالشرك ، أو فيما يتعلق بالسلوك كضعف الايمان الذى يدفع صاحبه الى الاعتماد على أى أحد أو أى شىء غير الله ، فيعتقد أنه مصدر لرزقه مثلا ، أو أن الحيلولة بينه وبينه ستلحق به ضرا أو نحو ذلك ، فلفظ (أولياء) يحذر ضمنا من كل هذا ، ولو كان التعبير بلفظ (آلهة) ما شمل غير الشرك بعبادة آلهة غير الله ، وهو شرك العقيدة .

فاستخدام لفظ (أولياء) بدل آلهة أو نحوه يشمل العقيدة الدينية ، ويشمل أيضا الصراع والتنافس الدنيوى فى كل ما يتعلق بهذا المجال ، فمثلا عامة الناس الذين يخشون الدخول فى الدين خوفا من السادة والزعماء يشملهم هذا التعبير لأنهم اتخذوا هؤلاء السادة (أولياء) من دون الله ، وأعداء الله من الجماعات والقبائل الذين يحشدون جموعهم ليتناصروا على الاسلام والمسلمين يشملهم هذا التعبير ، لأنهم يتخذون من هذه القوى (أولياء) من دون الله ، وهكذا كل من يتخذ لنفسه ملاذا يعادى به الله ، أو يبتعد به عن الله ، أو يظن أنه يحتوى به من الله وجنوده فهو داخل فى التعبير .

ومن ايحاءات لفظ (أولياء) أن صيغة الجمع فيه توحى بدلالة جانبية ، فان أصل المعنى أن اتخذ أى ولى أو نصير دون الله أى فى صورة

مفاضبة لله لا يذفع صاحبه ولا يغنى عنه شيء ، ولكن صيغة الجمع توحى بأنه مهما تعدد الأولياء من دون الله أو تدوعوا فلن ينفعوا فى شيء ، وأنه لو حاول شخص أو حاولت جماعة أن تحشد كل الأولياء والنصرء من دون الله فلن ينفعها ذلك فى شيء ، وهذه البسطة فى الدلالة لا تتحقق فيما لو كان التعبير نحو من يتخذ من دون الله وليا كمثل العنكبوت • الخ •

ومن دقة تعبير القرآن أنه لا ينعى على ضعف بيت العنكبوت لذاته ، فهو فى ذاته وفى نسيجه وتكوينه غير معيب ، ولكن التركيز منصب على أمر نسبي ، هو المفاضلة بين بيت العنكبوت وغيره من البيوت من حيث القوة ، ولذلك جاء التعبير بصيغة التفضيل فى الوهن (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فبيت العنكبوت فى ذاته غير معيب ، ولكن ضعفه بالقياس الى كل البيوت الأخرى ظاهر واضح •

وقد يتحدث البحث العلمى عن أن نسيج العنكبوت بوصفه نسيجا ليس ضعيفا ، بل هو شديد المتانة والقوة بالقياس الى حجم الخيوط وسمكها البالغ الضالة والدقة ، وقد يوازن بعضهم بينه وبين مثيله فى الحجم من الحديد ، أو غير ذلك فى هذا المحيط ، ولكن هذا على فرض صحته • لا يصطدم بالقرآن ولا يتعارض معه ، لأن القرآن لا يتحدث عن نسيج العنكبوت بوصفه نسيجا وخيوطا ، وانما يتحدث عنه بوصفه بيتا ، فحديث القرآن كله منصب على بيت العنكبوت وليس نسيجه (• كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) ولم يكن التعبير نحو نسجت بيتا أو اتخذت نسيجا أو خيوطا ، وكذلك كان التعبير (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) ، ولم يكن التعبير مثلا وان أوهن الخيوط خيوط العنكبوت •

ومن أخطاء تصوير القرآن أن هذه الصورة مع أنها منصبة على الهدف وهو نفى القوة والحماية فى تعبير (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) إلا أنها تشير الى جانب آخر له أهمية نفسية كبيرة ازاء أعداء الله ، وهو كونهم مكشوفين غير مستترين ، وأن كل ما يصنعونه من تدبير وكيد مهما ظنوه خافيا أو مستورا فان الله كاشفه ومظهره بحيث يراه كل ذى بصر كما يرى الرأى كل ما فى بيت العنكبوت ، فان شعورهم بأن هناك قوة تراقبهم وتكشف خباياهم فضلا عن أنها تؤكد لهم أن كل ما يصنعونه لن ينفعهم ، هذا سيضعف من قوتهم المعنوية حتى وان لم يكونوا مؤمنين بمصدر هذه القوة وهو الله سبحانه • فيكفى أن يثير هذا شكاً فى نفوسهم ، فان الشك أول مراحل الانتقال من موقف الى موقف ، فالذى يعتنق عقيدة الشرك أولى مراحل انتقاله الى الايمان أن يشك فى صحة عقيدته الوثنية ، وكذلك المؤمن حينما يستقر على الشك فى ايمانه استقرارا فان هذا أول مراحل الالحاد •

وفوق هذا فان من أبرز أهداف مثل هذه الصورة أنها تمثل سلاحا فعلا في مجال ما يعرف بالحرب النفسية أو المعنوية ، حيث تمنح نفوس المؤمنين قوة وثباتا لشعورهم بأنهم في حمى أقوى قوة ، وهى قوة الله سبحانه ، وفى الوقت نفسه هى سلاح لتحطيم نفسيات أعداء الله لأشعارهم بأن أية قوة أو حماية غير جانب الله انما هى وهم وسراب ، كما تظن العنكبوت أنها صنعت بيتا يحميها ويسترها ، بينما هو لا يحميها من عدو ، ولا يسترها من مستطلع .

.....

ومن قبيل الأسلحة النفسية التى يصـوبها تصوير القرآن نحو المشركين هذه الصورة للمشرك :

[٠٠٠ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء
فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان
سحيق] (١٣)

فهذه صورة غريبة لشخص معين ، وغرابتها أن هذا الشخص فى حال تبعث على الحيرة ، فلا هو فى السماء ، ولا هو فى الأرض ، ولا هو بين السماء والأرض فى حال مألوفة ، ولا يعرف مصيره أو مقره ، لأن صورته أنه سقط من السماء ، ولكنه لم يصل الى الأرض ليستقر فيها حيا أو ميتا ، وهنا تتفرع الصورة الى منظرين ، أحدهما يمثل المشرك حين يسقط من السماء فيجد أسرابا من جوارح الطير ، نسورها وصقورها ، تتلقفه فتتنقض عليه وهو ما زال هاويا من السماء فتمزقه أشلاء ، ثم تتخطف الطير هذه الأشلاء فتلتهمها ، فيتحول الى غذاء فى أجوافها ، ولا يبقى منه شيء يصل الى الأرض ، والمنظر الثانى يمثل المشرك أيضا هاويا من السماء ، فيجد عواصف عاتية من الريح تتلقفه ، فتتناوشه قاذفة اياه كل مقذف ، وتظل الريح من عتوها تتقاذفه فلا يستقر فى مكان حتى يصادفه مهوى سحيق فينحدر فيه حيث لا ربح ولا حياة ولا أحد يستطيع الوصول اليه .

والصورة فى مجموعها ، وفى كلا منظرها تبرز أكثر من وضع لهذا المشرك ، ومن أوضح هذه الأوضاع عدم الاستقرار فى مدة الهبوط ، وسوء العاقبة فى النهاية . فأما عدم الاستقرار فى حين الهبوط فيكفى فى

الدلالة عليه عدم وجود مقر له لا فى السماء ولا فى الأرض ولا فيما بينهما ،
لا حيا ولا ميتا ، وأما سوء العاقبة فيكفى فيها سوءا أن يتحول الى طعام
فى جوف الطير ، أو أن تتقاذفه العواصف حتى تهوى به الى مكان سحيق ،
وبطبيعة الحال سيكون حينئذ أشلاء متناثرة ، وما أسوأ العاقبة فى كلا
الحالين .

وحين نتأمل التشبيه الذى اذنت عليه الصورة فى المنظرين تبدو
دقة تصوير القرآن وعمق دلالاته ، فان السماء رمز لجانب الله سبحانه ،
كما فى القرآن :

[وفى السماء رزقكم وما توعدون] (١٤)

بمعنى عند الله رزقكم وما توعدون ، والله سبحانه لا يحل فى زمان
ولا مكان ولا هيئة ، ولكن السماء جعلت رمزا لجانبه ، فالذى يسقط من
السماء هو الذى ينفصل عن جانب الله بالكفر أو الشرك ، والذى ينفصل
عن الله لا يعلو أبدا ، وإنما يهبط بنفسه ومنزلته وعقليته ، فيصبح وضعه
كتعبير القرآن :

[ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء]

وكذلك نهاية هذا الشرك بالله ستكون فى الآخرة بالغة السوء ، وأنه
وان كان عذاب الآخرة لا يقاس به شيء من عذاب الدنيا أو الآخرة فان أقرب
صورة نسبية لعذاب الآخرة هى ما عبرت عنه هذه الصورة من نهاية
هذا الشرك ، فاذا كانت نهاية الشرك فى الآخرة أسوأ نهاية ، فان نهاية
هذا الذى خر من السماء أسوأ فى المنظرين كليهما ، وليست هناك بشاعة
فوق أن يجد شخص نفسه وسط أسراب من جوارح الطير تنهش من جسده
ولا يملك دفاعا عن نفسه ، وإنما يملك أن يعانى من بشاعة الموت البطيء
تحت وطأة هذا التقطيع من جسده حتى تفيض روحه ، أو أن يجد شخص
نفسه والرياح تعصف به ، والأرض تتقاذفه وهو يعانى بشاعة اصطدامه
بكل ما يقذف اليه ، ثم تحوله الى أشلاء قبل أن يستقر فى المهوى السحيق ،
ووجه الشبه بين نهاية هذا الذى خر من السماء ، ونهاية الشرك فى الآخرة
أن كلا منهما يتعرض لأسوأ أو أبشع ما يتخيله العقل من نهاية .

وقد كان يمكن أن يصاغ المعنى فى كل ذلك بالأسلوب المجرى الذى
لا تصوير فيه ، وقد صيغ فعلا فى القرآن فى أساليب متعددة ، ولكنسه
هنا نجده مصورا فى هذه الصورة الساخرة من المشركين ، والتي تصور
كلا منهم كأنه ريشة معلقة فى الهواء ، ليس له وزن أو كيان أو استقرار .

كما قد يخيل اليه هو ، وكما قد يخيل الى الناظرين اليه والى مكانته بين الناس فى الدنيا ان كان من ذوى الجاه والسيادة ، فالحقيقة أنه ضائع هائم ، لا مقر له فى مكان أو وضع ، وفى هذا المعنى جانب نفسى يمثل نفسية المشرك لو استخدم عقله ، فان أيسر تفكير سيجعله يعانى من الحيرة والقلق والضياح الروحى ، لأن الشرك لا يستقيم فى أى عقل سليم ، ومادام لا يستطيع أن يتوصل فى وضعه الدينى الى حال يقتنع بها عقله ، فسيشعر بالحيرة ثم الضياح ، ولو استخدم عقلا سليما قويا فلا بد أن يشعر بأنه فى حيرته وقلقه وضياحه أقرب ما يكون الى تصوير القرآن ، ولو وصل الى قلبه شعاع من ايمان لأيقن كما أيقن كل الذين أضاء الله بصائرهم فانتقلوا من الشرك الى الايمان أن هذه الصورة التى يرسمها القرآن انما تمثل الواقع النفسى والواقع المصيرى للمشرك :

[ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه

الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق]

وبعد هذا يمكن لكل متأمل أن يدرك مدى التأثير النفسى الذى يحدثه القرآن فى موقف جبهة الشرك ، هذا التأثير الذى يصل الى كل فرد فى هذه الجبهة فيملأ نفسه اضطرابا وحيرة وقلقا ، ويكفى أن يدفعه شىء من هذه العوامل الى استخدام عقله ليفكر فى مدى صحة موقفه فى الشرك ، ومدى صدق الايمان الذى يدعى اليه .

وحيث كان الايمان والشرك جبهتين متصارعتين ، فما أضعف جبهة الشرك حين يكون أفرادها فى هذا الوضع المنهار ، وما أقوى جبهة الايمان بثبات أفرادها على اليقين .

سخرية القرآن وكيد اعداء الله :

كان أعداء الله ورسوله فى مكة جبهة واحدة ، هى جبهة الشرك المعروفة ، ولكن حين انتقل مركز الاسلام الى المدينة تعددت جبهات العداوة للاسلام ، حيث انضمت الى جبهة الشرك جبهتان أخريان ، هما جبهة اليهود ، وجبهة النفاق ، والروايات تشير الى أن أعتى صور العداوة التى كان المسلمون يحسبون حسابها فى جبهة الشرك تتمثل فى قبيلتين من كبريات قبائل العرب ، هما بنو أسد ، وبنو غطفان ، ولكن الحقيقة التى تستشف من خلال كل الروايات أن اليهود كانوا هم مركز العداوة للاسلام والمسلمين ، سواء بصفة ظاهرة ، أو من وراء ستار ، حيث كانوا يمثلون مدرسة النفاق فى المجتمع العربى ، فانه وان كان الاستعداد للنفاق يمثل نزعة وشذوذا فى التكوين البشرى يمكن أن يوجد فى كل عصر وكل بيئة

إلا أن مزاولته تحققج الى تدريب وخبرة وعمق تدبير ، واليهود كانوا ولا زالوا هم أساتذة هذا المجال فى أى مكان يحلون فيه ، والروايات التى تحدثنا عن النفاق فى المدينة لا تخلو دائما من الاشارة الى ارتباط هؤلاء المنافقين باليهود ، وكذلك الروايات عن أسد وغطفان وما كان بينهم وبين اليهود من تواصل وترايط .

وليس هذا الحديث مقصودا لذاته ، وانما يعيننا منه بوصفه من الملابس المحيطة بتصوير القرآن أن الاسلام كان محاطا بعداوات متنوعة ، بالغة العمق والضراوة وكل حرب خفية أو علنية لابد لها من قادة يديرونها ، وكان قادة هذا الصراع ضد الاسلام يصبون بطبيعة الحال كل غيظهم وحقدهم على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه قائد جبهة الاسلام وحده ، وأنه لو انهزم فستنهار كل جبهته ، فكل أمانيهم مرتكزة على هذا الأمل ، أمل أن يروه مهزوما مدحورا ، ولكنهم يفاجأون بأنه منتصر ، فيزداد غيظهم وحقدهم اشتعالا .

فيأتى القرآن فيصور هذا الموقف النفسى منهم فى هذه الصورة البالغة السخرية :

[من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة
فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينتظر هل
يذهبن كيده ما يفيظ] أ (١٥)

اللغة : السبب : الحبل ، والكيد : التدبير ، والسماء : كل ما علا فوق الأرض .

ومضمون الصورة أنه من كان ينتظر أن يرى رسول الله مهزوما مخذولا فغاضه أن يجده منتصرا ، فاذا أراد أن يذهب ما فى نفسه من الغيظ ، فهناك طريقة تذهب غيظه وتشفى نفسه مما يضطرم فيها من حقد وغل وغيظ من رسول الله ونصره ، وهذه الطريقة تحتاج الى عزيمة قوية ينبغى أن تكون فى هذا المغيظ ، وحسن اعداد ودقة تقدير فى تنفيذها ، وهى أن يأتى بحبل متين ، ثم يصعد الى أعلا ، فيربطه فى السقف باحكام ، ثم يصنع من هذا الحبل مشنقة ، ويستوثق من أحكام هذه المشنقة وصلاحتها لقطع النفس والخنق القاتل ، وبعد ذلك يضع رأسه وعنقه فى هذه المشنقة ، ثم يتدلى بها حتى ينقطع نفسه ويختنق ويموت فعلا ، ثم عليه بعد ذلك أن يتأمل ويرى هل تحقق ما يريد من اذهاب غيظه ؟ وهل أجدت هذه الطريقة فى تحقيق هذا الأمل الذى يتمناه ؟

ومن الواضح أن هذا انما هو سخرية واستهزاء ، وذلك من وجوه
منها :

١ - ان القرآن لا يريد أن يذهب عنهم الغيظ حتى يرشدهم الى طريقة
تبعده عنهم ، بل يريد أن يزيدهم غيظا . فارشادهم الى هذه الطريقة ليس
على سبيل الحقيقة ، وانما هو من باب السخرية .

٢ - ليس من المألوف أن المغيظ مهما كان غيظه حينما يحاول اذهاب
الغيظ عن نفسه يفكر فى الموت ليذهب عنه الغيظ ، وقد يفكر بعض الناس
فى الموت أو يتمنونه ، ولكن ذلك لا يكون بسبب الغيظ ، وانما لكرهية
الحياة نفسها ، والمغيظ هنا لم يكره الحياة ، وانما يكره وجود الغيظ فى
نفسه .

٣ - ومن وجوه السخرية أن الذى يرسم خطة أو يدبر مكيدة انما
يفعل ذلك ليرى نتيجه ، والذى يقتل نفسه لا يبقى ليرى
نتيجة أى شئ فى الدنيا ، فارشادهم الى طريقة لاذهاب الغيظ ، تكون هذه
الطريقة هى موتهم ، فليس هذا من باب الحقيقة حتى لو افترضنا شخصا
يريد تنفيذها ، لأنه سيموت ، ولا يبقى ليرى هل ذهب الغيظ عنه أم لم
يذهب ؟ وانما هو من باب قوله تعالى :

[قل موتوا بغيظكم] (١٦)

٤ - ومن وجوه السخرية تسمية هذه الخطة بالكيد ، ونسبة الى
المغيظ نفسه (هل يذهبن كيديه ما يغيظ) وكأن المغيظ نفسه هو صاحب هذه
الخطة التى سيقتل بها نفسه ، من حيث انه هو الذى سينفذها علما بأنها
ستقتله ، والفاعل للكيد انما يفعله ليستفيد منه ويحقق من ورائه هدفا له ،
ولا يفعل كما يفعل هذا المغيظ ليقتل نفسه .

والقرآن فى أسلوبه الذى يصوغ به مثل هذه الصورة يسير على نهج
معروف ومتداول بين عامة الناس وخاصتهم ، فان وضوح المعانى وشيوع
تداولها يجعل لها أحيانا فى النفوس وقعا وتأثيرا لا تبلغه المعانى والصور
الجديدة التى تحتاج الى كد وجهد فى الفكر لتذوقها وتفهمها .

ومن قبيل الشائع فى الأساليب بين الناس حينما يصدر من شخص
ذى قوة عمل أو شئ ، وهذا الشئ لا يعجب بعض الناس ، فيقول هذا
الشخص (من لا يعجبه هذا فليشرب من البحر) أو (فليضرب رأسه فى
الحائط) أو نحو ذلك من اختلاف فى الألفاظ مع اتفاق المعنى ، فالشرب

من البحر ، أو ضرب الرأس فى الحائط لا يحقق لمن يفعلونه هدفا ، ولا يذهب عنهم غيظا أو سخطا ، بل يزيدهم ألما ، لأن شرب الماء المالح شديد الأذى للنفس ، وكذلك ضرب الرأس فى الحائط شديد الأيلام .

وهذه الصورة فى القرآن من هذا القبيل ، فان هدفها أن يفهم أعداء الرسول ودينه أنهم مهما فعلوا قلن يغيروا من ارادة الله وسنته ، بل ان ما يفعلونه سيزيدهم اذى وضرا .

واستخدام القرآن الأسلوب الشائع بين الناس ليس غريبا ولا خافيا ، بل لحظة علماء التفسير وعلوم القرآن كالرومانى (١٧) والامام الرازى (١٨) وكذلك فى بحوث أخرى (١٩) فهم يلحظون أن القرآن يهدف دائما الى الوصول الى القلوب بكل الوسائل المؤثرة والمباشرة ، ومنها هذا الأسلوب الذى يمثل أقصر الطرق الى القلوب والعقول ، لأنه لوضوحه وتداوله لا يحتاج من العقول الى جهد أو كدح .

على أن هذا المعنى الذى تضمنته الصورة تكرر فى القرآن فى سياق الحديث عن نصر الله رسله وحمايتهم من كيد الكائدين ، بل يرد الله كيد الكائدين ضدهم الى نحورهم ، ومن ذلك الحديث عن الرهط الذين دبروا مكيدة ضد رسولهم صالح عليه السلام ، حيث تقاسموا بالله ليقتلنه وأهله فى غلس الليل ، ثم ينسلون فلا يشعر بهم أحد حتى لا يطالبهم قرابة صالح بثأره ، ولكن الله لم يمكنهم من رسوله ، وانما دمرهم ودمر قومهم أيضا ، ففي القرآن الكريم عن هذه القصة :

[وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون] (٢٠)

(١٧) انظر النكت فى اعجاز القرآن للرومانى (مجموعة ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن)

ص ٧٩ .

(١٨) انظر تفسير الامام الرازى كتفسير قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم)

٧ سورة البقرة .

(١٩) انظر اسلوب السخرية فى القرآن للمؤلف ٣٩٩ .

(٢٠) ٤٩ - ٥٣ سورة العمل .

والسخرية فى هذه القصة تتركز فى قوله تعالى :

[كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين]

فقد كان مكرهم لتدمير صالح وأهله ، ولكن سخرية القرآن تجعل أسلوب يوحى كأن مكرهم كان بقصد تدمير أنفسهم وقومهم ، لأن القرآن يسوق الحديث عن مكرين ، مكر هؤلاء الرهط ، ومكر الله سبحانه :

[ومكروا مكرا ومكرونا مكرا]

فكان ظاهر السياق يقتضى أن يكون التعبير أن عاقبة مكرهم كانت فشلهم فى تحقيق ما يريدون ونجاة صالح وأهله ، وأن عاقبة مكر الله سبحانه تحقيق ما أراد الله من نجاة صالح وهلاك الكائدين له ، ولكن أسلوب التهكم والسخرية يقلب النتيجة فيجعلها كأن الرهط كان هدفهم من مكرهم أن يهلكوا أنفسهم ، فتحقق لهم ما يريدون ، بل زيادة فى نجاح مكرهم أهلكوا معهم قومهم (دمرناهم وقومهم) ، ولو كان التعبير نحو كان جزاء مكرهم أنا دمرناهم ، فان لفظ الجزاء يجعل الأسلوب أسلوب حقيقة مجردة لا طرافة فيه ولا سخرية كما فى لفظ (عاقبة مكرهم) .

ووجه التلقى بين أسلوب هذه القصة ، وأسلوب الصورة التى نحن معها وهى صورة الذى يشنق نفسه ليذهب عنها الغيظ ، أن الذين اغتاطوا من صالح أرادوا اذهاب غيظهم بقتله فكانت نتيجة ما أرادوه أسوأ من غيظهم حيث كانت هلاكهم ، وكذلك المغتاطون من محمد اذا أرادوا اذهاب غيظهم فان النتيجة ستكون أسوأ عندهم من الغيظ وهى الهلاك .

ومن هذا القبيل أيضا ما جاء فى قصة فرعون وموسى ، حيث ان فرعون التقط موسى الرضيع ليكون مدعاة سرور له ولزوجه حيث يتخذانه ولدا ، ولكن تعبير القرآن عن ذلك كان :

[فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا] (٢١)

وكان فرعون حينما التقطه كان مقصده من الالتقاط أن يتخذ هذا الطفل عدوا ومصدرا للحزن ، وفرعون بداهة لم يقصد هذا ، وانما قصد عكس هذا أن يكون هذا الطفل مصدر سعادة ، وليست هناك ضرورة لما يلجأ اليه علماء البلاغة وعلماء التفسير من التأويل ، بل ان تأويل الأسلوب لآخراجه عن مدلول صياغته الظاهرة يذهب أهم ما يحمله التعبير من طرافة السخرية والتهكم بفرعون وقصده .

وتبقى سنة الله متواصلة فى حماية رسله من كيد الكائدين ، وفى رد كيد الكائدين الى نحورهم ، كما رد الله الكيد الذى كان أعداء رسول الله صالح يدبرونه له الى نحورهم هم ، وكما رد الله كيد فرعون لرسول الله موسى الى نحر فرعون ، وكذلك كيد المغيظين من انتصار رسول الله محمد والتمنين له الهلاك لن يذهب ما فى نفوسهم الا بأن يحقق بهم كيدهم وغيظهم .

وقد تكرر فى القرآن كثيرا الحديث عن كيد أعداء الله ومكرهم ، ولكن كيدهم دائما يواجهه من الله ما يسميه القرآن كيدا ومكرا ولكنه أشد من مكرهم وأعتى ، كقوله تعالى :

[وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا] (٢٢)

وقوله تعالى :

[وأملى لهم ان كيدى متين] (٢٣)

وقوله تعالى :

[أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون] (٢٤)

وقوله تعالى :

[فان كان لكم كيد فكيدون] (٢٥)

ومما يلفت النظر هذا التأكيد الذى يؤكد القرآن ، والذى يؤيده واقع الحياة عن أن كل تدبير سيىء لا يضر الا صاحبه ، وكثير من الأمثال والحكم العامية تعبر عن هذا ، ومن ذلك فى القرآن :

[وما يمكرون الا بأنفسهم] (٢٦)

وقوله تعالى :

[ولا يحقق المكر السيىء الا بأهله] (٢٧)

• (٢٢) سورة الزعد ٤٢

• (٢٣) سورة القلم ٤٥

• (٢٤) سورة الطور ٤٢

• (٢٥) سورة المرسلات ٣٩

• (٢٦) سورة الأنعام ١٢٣

• (٢٧) سورة فاطر ٤٣

ولكن صياغة هذه الصورة عن الذين يغيظهم نصر رسول الله لا يقف
ايحائها عند هذه الحدود ، بل انها تطوف حول نفسية أعداء الله وتتغلغل
فى أعماقها ، كما يقول تعالى :

[ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه] (٢٨)

فكان لكثير من ألفاظها ايحاءات خاصة فوق دلالتها اللغوية العامة ،
ومن هذه الألفاظ :

١ - لفظ (يظن) من جملة (من كان يظن أن لن ينصره الله) فان
السياق على أن المراد به الاعتقاد والأمل القوى وليس مجرد الظن ، فان
الظن وحده لا يصل بصاحبه الى هذه الدرجة من الغيظ حين يفاجأ بعكسه ،
وانما يصل الى هذه الدرجة ما يعرف فى علم النفس بالاحباط الذى يتمثل
فى أن يكون لدى الانسان أمل قوى فى شىء فيفاجأ باعتراض عقبة أو
انتكاسة فى هذا الأمل ، فلا حدود حينئذ لما يحدثه الاحباط فى كيان صاحبه
نفسيا أو جسديا .

وقد يقال حينئذ : فلماذا عدل اذن فى القرآن عن لفظ الاعتقاد أو نحوه
الى لفظ الظن ؟ (من كان يظن ٠٠) والجواب أن هذا الموقف مرتبط بالعتيدة
وهى الايمان ، فالمؤمن لا ينبغي أن يكون لديه شك فى وعد الله بنصر رسله
بالمصورة التى يريد الله أن يكون عليها النصر ، ماديا أو معنويا ، فهو
يعتقد على وجه اليقين فى صدق وعد الله ، فاذا نزل هذا اليقين الى درجة
الظن كان خلافا فى الايمان ، والنعى فى الصورة التى نحن معها منصب على
المشركين ، ولكن لفظ (يظن) يجعل كل من لا يعتقد فى صدق وعد الله اعتقادا
فينزل الى درجة الظن فهو داخل فى هذا النعى ولو كان يدعى الايمان
بالله ، أو يعد نفسه من المسلمين .

٢ - لفظ (الآخرة) فى جملة (من كان يظن أن لن ينصره الله فى
الدنيا والآخرة) يشير الى أن المغيظين من نصر رسول الله ممن تعنيهم هذه
الصورة ليسوا من المشركين ، وانما من أهل الكتاب ، لأن المشركين لم
يكونوا يعترفون بالآخرة أو بالبعث بعد الموت كما تحدث القرآن عن ذلك
كثيرا ، وانما الذين يعتقدون فى الآخرة هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ،
وهذه الآية مما نزل فى المدينة ، ولم يكن للنصارى فى المدينة أو ما حولها

كيان أو وجود ، فاذن لا يدخلون فيمن عندهم هذه الصورة ، وانما الذين كان لهم كيان ووجود هم اليهود ، بل كانوا يمثلون فيما يعرف في اصطلاح الحروب (غرفة العمليات) التي تدار منها الحروب المتنوعة ضد الاسلام والمسلمين .

٣ - لفظ (السماء) من جملة (فليمدد بسبب الى السماء) فلاشك أن المراد بالسماء هنا مطلق العلو ، كما يعرف بعض علماء اللغة السماء بأنها كل ما علاك ، ولا بد أن يكون العلو حينئذ سقفا في أى صورة حتى يمكن أن يربط فيه السبب وهو الحبل ، لأنه لا يتصور أن يربط الحبل في فضاء ، واذن فالمراد فليمدد بسبب الى علو أو سقف ، ولكن تعبير القرآن يتجاوز مثل هذا الى لفظ السماء ليكون فيه أيضا أكثر من ايجاد ، ومن ذلك أنهم مهما فعلوا ، ومهما كان لديهم من امكانات ولو طاولوا بها السماء فلن يردوا نصر الله لرسوله ، ومن محيط هذا أن فرعون ببلوغه ما بلغ من امكانات جعلته يقول لوزيره :

[يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ،
أسباب السموات فأطلع الى اله موسى] (٢٩)

مع كل هذا لم يستطع فرعون أن يحول دون نصر الله لرسوله موسى ، هذا فضلا عما يوحيه لفظ السماء من التوجيه الى التفكير فى عظمة ملكوت الله ، فكيف يعجز صاحب هذا الملكوت سبحانه عن نصر رسله وحمايتهم ؟ وكيف يستطيع أحد أن يغالبه أو يدبر كيدا ومكرا ضده ؟

ولفظ (ما) فى جملة (ما يعيظ) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر تقديره العيظ ، ويكون المعنى هل يذهبن كيدته العيظ الذى يجده فى نفسه ؟

وحيث كانت السخرية فى الصورة السابقة منصبة على الحاقدين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فهى ليست السخرية الوحيدة هى القرآن ، بل هى نموذج لسلاح نفسى يبرزه القرآن للدفاع عن رسول الله ، فمن الواضح أن الرسول هو المبلغ عن الله ، وهو القائد للمسلمين ، فمن المنتظر أن يصب عليه أعداء الاسلام كل حقدهم وعداوتهم ، وأن يوجهوا اليه كل ما يملكون من اسلحة العداة ، وقد رأينا فيما سبق ما وجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من سخرية الأعداء واستخفافهم .

وقد تولى القرآن الرد على سخريتهم من رسول الله وحقدهم عليه ،
كما رأينا فى الصورة السابقة ، وفى صورة أخرى تكررت فى القرآن نجد
هذا التصوير .

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ٠٠] (٣٠)
وتكرار هذه الصورة فى قوله تعالى :

[يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ٠٠] (٣١)

ومما يوحى بأن المراد بنور الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
عقب كل من الآيتين السابقة تتكرر آية بنصها وهى :

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله
الأن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون]

وفى آية سورة الصف أيضا :

[يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره
ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله
بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون]

فتكرار التعقيب بذكر رسول الله بعد كل منهما يكاد يؤكد أن المقصود
بنور الله الذى يريدون اطفاءه هو رسول الله ، وخصوصا وأن ذكر رسول
فى الآيتين يأتى فى صيغة تتضمن المعنى المسوق فى الآيتين ، فالمعنى أنهم
يريدون اطفاء نور الله ، والصيغة المتضمنة ذكر رسول الله فى الآيتين تعنى
أن الله أرسل رسوله بما يدعو إليه من نور الايمان ، لا لينطفىء هذا النور،
وانما ليكون هو الحق البين الظاهر فى كل العقول ، ولا غرابة فى أن يكون
المقصود بنور الله هو رسول الله ، بل ان القرآن يصفه صراحة بهذا فى
قوله تعالى :

[يأيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ،
وداعيا الى الله بانه وسراجا منيرا] (٣٢)

(٣٠) سورة التوبة .

(٣١) سورة الصف .

(٣٢) سورة الأحزاب .

وجواهر السخرية فى الصورة يتركز فى لفظ أفواههم حيث يستخدمونها لإطفاء نور الله ، والصورة مبنية على تشبيه الهداية الدينية بالهداية الحسية فالهداية الحسية أساسها أن الأصل فى معيشة الانسان أنه فى ظلام ، ولولا وجود الشمس لم يكن هناك نهار ، ولأصبحت الحياة ظلاما وليلا دائما ، كما أن الضوء اليسير الذى نجده فى الليل ، والذى يمكن أن يعين على تبين الطرق ، وعلى تحديد المرئيات الكبيرة الحجم انما سببه الضوء المنبعث من الكواكب الى الأرض ، ولولا هذه الكواكب لأصبحت الحياة فى الليل سكونا كاملا ، حيث لا يستطيع أحد أن يتحرك ، لأنه لا يرى شيئا من حوله ، والقرآن ينبه كثيرا الى تأمل هذه الحقائق الواضحة ، ومن آثار الشمس فى حكمة خلقها أن نور النهار يختفى عند اختفائها ، لأن نور النهار هو نور الشمس ، كما أن من آثار الكواكب فى حكمة خلقها أنه حينما يحول حائل دون وصول ضوءها الى الأرض كالسحاب يتحول الفضاء الى ظلام دامس لا يستطيع أحد أن يرى فيه شيئا على الاطلاق ، والناس يستعينون على حياتهم فى الليل بما يصنعونه من مختلف السرج والمصابيح ، ولكنها مصابيح البشر لأنهم صانعوها ، أما مصباح الله الذى لم يباشر أحد شيئا فى صنعه فهو الشمس ، فنور الله الحسى اذن هو الشمس التى تهدى الناس الهداية الحسية فى حياتهم المعيشية ، وفى القرآن :

[وجعل الشمس سراجا] (٣٣)

أما الهداية الدينية فهى مشبهة بالهداية الحسية ، من حيث ان الكفر بكل ألوانه انما هو ظلام روحى وعقلى ، فالذين يعيشون فى الكفر انما يعيشون فى هذا الظلام النفسى ، والدين هو النور الذى يضىء لهم حياتهم العقدية والخلقية كما تضىء لهم الشمس حياتهم الحسية والمعيشية ، وقد أرسل الله اليهم رسولا يحمل هذا السراج الذى يضىء لهم حياتهم المعنوية والنفسية فى كل جوانبها .

وهنا تأتى السخرية فى تصوير القرآن موقفهم من السراج الذى يحمله رسول الله ، فقد كان المفروض أن يسعدوا بأن أهدى الله اليهم نورا يضىء لهم حياتهم المعنوية كما أهدى اليهم نورا يضىء حياتهم الحسية ، ولكنهم يرفضون هذا النور رفضا ، ولم يكتفوا بدرجة الرفض ، وانما كأنهم يرون هذا النور ليس ضوءا ونورا ، وانما هو نار يخشون أن تحرقهم ، وأن ينتشر حريقها فيدمرهم ويدمر كل شىء معهم ، فأسرعوا يحاولون اطفاء هذا المصدر كمن يحاول أن يطفىء نارا توشك أن تحيط به .

ولكن جوهر السخرية ليس فى محاولة الاطفاء ذاتها ، وانما فى طريقة الاطفاء ، حيث انهم حاولوا اطفاء نور الله بالطريقة التى يطفئون بها مصابيحهم ، ومن المعروف أن مصابيحهم كانت تتمثل فى شعل ضئيلة تضاء بالزيت ، فكل سراج هو خيط يوضع رأسيا فى وعاء به زيت ، بحيث يكون أسفل الخيط متصلا بالزيت ، ويشعل أعلاه ، ويظل الزيت ساريا فى الخيط الى أعلى ليكون وقودا لشعلة المصباح ، وهكذا يستضيئون بنور المصباح ما بقى الزيت ، فاذا أرادوا اطفاء السراج نفخ أحدهم فى شعلة المصباح فتنطفئ ، فجوهر السخرية أنهم أرادوا أن يطفئوا سراج الله كما يطفئون سرجهم بأفواههم ، وقد كان ينبغى أن يدركوا الفارق فى السراج الحسية بين سراج الله وهو الشمس ، وسرجهم وهى مصابيح الزيت ، ولكنهم سرّوا بين الاثنيين ، فراحوا يحاولون اطفاء سراج الله كما يطفئون سرجهم ، بالنفخ بأفواههم .

ورسول الله بما يحمله من دين الله هو سراج الله ، وقد كان ينبغى أن يدركوا أنه ما دام من الله فلن يغالب ، ولن يستطيع أحد اطفاء نوره كما لا يستطيع أحد اطفاء نور الشمس ، ولكنهم بلغ بهم خطل الرأى وسوء العقل أن يظنوا أنه كمصابيحهم أو كأحوالهم هم ، فأخذوا يحاولون النفخ فيه ، وكأنهم وجدوا أن نفخ شخص واحد لا يجدى ، فتجمعوا من حوله وهم ينفخون بأفواههم فيه ليطفئوه .

ولنتأمل هذه السخرية البالغة بهم حين تتصورهم مجتمعين حول نور الله وهو الشمس ، ولكنه هذه المرة صادر عن رسول الله وليس عن الشمس الحسية ، فكأن رسول الله بما يحمله من دين الله شمس ، وهم متجمعون حولها جميعا ، وكلهم ينفخ بكل ما أوتى من قوة لعل هذه الشمس تنطفئ ، ولكنها لا تنطفئ ، لأن المخلوقات جميعا لو اجتمعت وظلت تنفخ فى شمس السماء فلن تطفئها ، فكذلك النور الذى يحمله رسول الله ، هو نور الله ، ولن يستطيع أحد اطفاءه .

وليست السخرية فى محاولة الاطفاء لذاتها ، فلو كان التعبير أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بدون ذكر الأفواه لكان تعبيرا بيانيا بديعا ، ولكنه لا يتضمن سخرية ، لأن الذهن قد يتجه الى تصور وسائل كثيرة أخرى يريدون بها أن يقبروا هذا الدين ويمنعوا وصول هدايته الى الناس ، ولكن الطريف هو تصورهم وهم مجتمعون حول رسول الله ينفخون فى النور المنبعث منه ليطفئوه .

وكل محاولاتهم فاشلة ، وكل نفخهم جهد ضائع ، لأن تعقيب الله سبحانه على كل جهدهم هو :

[ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون]

وأیضا فى سورة الصف :

[والله متم نوره ولو كره الكافرون]

وإذا تأملنا دقة تعبير القرآن نجد فيما تتضمنه صياغة هذه الصورة ما يأتى :

١ - التعبير يتضمن كأنهم يعترفون ضمنا بأن ما يجاهدون ضده هو نور حقيقة ، ولكنهم يريدون اطفاءه . فان نفخهم بأفواههم يعنى أنهم يحسون أن ما ينفخون فيه هو نور حقيقة ، ولو كانوا يعتقدون أنه ليس نورا لم يكن يعقل أن يحاولوا اطفاءه ، لأنه لا وجود له حينئذ حتى يطفئوه .

٢ - من الدقة البالغة أن الآية المتضمنة للسخرية مختومة بلفظ (الكافرون) بينما الآية التالية والمتضمنة وعد الله باظهار دينه مختومة بلفظ (المشركون) فى قوله تعالى :

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله

إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على

الدين كله ولو كره المشركون]

وتكررت هذه الملحوظة نفسها فى سورة الصف أيضا ، فيما يعنى أن الذين يحاولون اطفاء نور الله هم من الكافرين ، وأن وعد الله لا بد أن يتحقق فى ظهور دين الله بمعنى نصره على المشركين ، فقد يقال ان فلم كانت هذه التفرقة فى التعبيرين ؟

والجواب أن من أبرز جوانب الاعجاز فى القرآن هو دقته التى لا تكاد تحيط بتفاصيلها العقول ، وخصوصا فى الاشارات والايحاءات التى توحىها دلالات الألفاظ ، مع عدم التناقض أو الاختلاف مهما تباعدت أماكنها فى القرآن ، كما يقول تعالى :

[أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا] (٣٤)

وفيما يعيننا هنا فان لفظ الشرك يطلق على من يشرك مع الله في عبادته أى معبود غيره ، وأما الكفر فهو أعم من الشرك ، حيث يطلق على كل من لا يحمل عقيدة دينية صحيحة ، سواء أكان باشراك معبود مع الله أم بانكار دين الله أو شيء من أسسه ، ولكنه عادة يطلق على أهل الكتاب اليهود والنصارى .

والسياق هنا يشير بوضوح الى أن الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم هم من أهل الكتاب ، سواء فى الآيات السابقة للصورة الساخرة من سورة التوبة ، أو من سورة الصف ، وفى سورة التوبة قبل الصورة الساخرة :

[وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى

المسيح ابن الله ٠٠٠] (٣٥)

وكذلك فى الآية التالية لها والسابقة للصورة الساخرة مباشرة :

[اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح

ابن مريم] (٣٦)

فالحديث صريح عن اليهود والنصارى ، ثم عنهم أنفسهم تأتى آية السخرية (يريدون أن يطفئوا نور الله ٠٠٠) وكذلك فى سورة الصف كان الحديث فى السياق عن أهل الكتاب ، ولكنه عن اليهود بصفة خاصة ، وفى قوله تعالى :

[واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى

رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة

ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه أحمد فلما

جاءهم بالبيئات قالوا هذا سحر مبين ، ومن أظلم

ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام

والله لا يهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور

الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ،

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره

على الدين كله ولو كره المشركون] (٣٧)

فالحديث فى الآيات السابقة واضح عن اليهود وتكذيبهم بما يأتى به الرسل ، وخصوصا بشارة المسيح بمجىء محمد بعده ، وفى هذا السياق

(٣٥) ٣٠ سورة التوبة .

(٣٦) ٣١ سورة التوبة .

(٣٧) ٤ - ٩ سورة الصف .

يأتى تعبير (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ٠٠) وكأنهم كانوا يعلمون من المسيح بأنه سيأتى بعده نبي اسمه أحمد ، فلما جاء حاولوا أن يطفئوا نوره بأفواههم .

واذن فالسياق يدل على أن المراد بالذين يحاولون اطفاء نور الله بأفواههم اليهود والنصارى ، وبصفة خاصة اليهود ، ولكن الله يتحداهم بقوله :

[والله مقم نوره ولو كره الكافرون]

فحرب أهل الكتاب وخصوصا اليهود. للاسلام كانت حربا موجهة الى الدين نفسه بالتشكيك فيه ، والسخرية منه ، وانكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان رد الله سبحانه عليهم (والله مقم نوره ولو كره الكافرون) أما حرب المشركين فهي حرب مواجهة بالعنف والقوة العسكرية ، ولذلك كان رد الله سبحانه عليهم :

[هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق]

[ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]

والظهور هو العلو والانتصار ، سواء أكان انتصارا عسكريا أم معنويا .

٣ - مجيء الحديث عن رسول الله فى تعبير (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) بعد الحديث عن محاولة اطفاء نور الله يتضمن كما سبق أن المراد بالنور رسول الله بما يحمل من الهداية والدين ، ومن دقة التشبيه أنه يتضمن تشبيه رسول الله بالمصباح ، والهدى ودين الحق الذى يحمله هو النور الذى يخرج من المصباح ، وهم لا يهمهم المصباح لذاته ، وانما يهمهم النور الذى يخرج ويشع منه ، فهم يركزون كل جهودهم فى اطفاء النور الذى يشع منه ، ولو انطفأ النور من المصباح لم تعد للمصباح حينئذ فائدة ، وتطبيق هذا عمليا أن اليهود كما تفيض بذلك الروايات كانوا لا يدخرون جهدا فى تشويه الاسلام والتشكيك فى كل ما يقوله الرسول ، وتكذيب أنه مرسل من الله ونحو ذلك ، ليصرفوا الناس عن اتباعه ، فاذا انفض عنه الناس والاتباع لم يكن له تأثير ، ويصبح كأن نوره الدينى قد انطفأ .

ومن خلال تجمع كل هذه الملحوظات وغيرها يمكن القول ان هذه السخرية موجهة نحو اليهود بالذات ، فهم من أهل الكتاب (الكافرين) وليسوا من العرب (المشركين) كما أنهم يحكم أنهم أهل دين وكتاب يعرفون الدين والتشريع ، فهم يحسون فى نفوسهم أن ما جاء به محمد صلى الله

عليه وسلم دين ، ولكنهم لا يريدون هذا الدين لعوامل نفسية لديهم ، وهذا من مضمون أنه فى محاولتهم اطفاء نور الله كأنهم لا ينكرون أنه نور حقيقة ولكنهم يريدون اطفاءه ولن ينطفىء ما دام المصباح موجودا وهو محمد ، وما دام الزيت وهو الوحي متصلا به ، وهذا مصدر نقيمتهم وحقدهم على رسول الله .

وحيث كان اليهود أشد الناس عداوة للأديان السماوية والمبلغين اياهم وهم رسل الله ، وبخاصة الاسلام ورسوله ، كما جاء فى القرآن عنهم:

[لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود

والذين أشركوا ٠٠٠] (٣٨)

ومع أن المراد بالمؤمنين أتباع محمد وهم المسلمون ، الا أن اطلاقه يوحى بعدائهم لكل المؤمنين من كل الأديان وفى كل العصور ، والواقع التاريخى لليهود يؤكد هذه الحقيقة ، لذلك فان القرآن جعل لهم نصيبا من سخريته ، كما فى الصورتين السابقتين .

وفى صورة أخرى يسخر القرآن من حصونهم التى تحصنوا بها ويصفها بأنها صياص فى قوله تعالى :

[ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا

وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ،

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من

صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون

وتأسرون فريقا] (٣٩)

والآية الأولى نزلت فى شأن الأحزاب الذين تجمعوا من قبائل وأنحاء عديدة ، وكان لليهود دور كبير فى تجميعهم وتأليبهم ضد المسلمين ، ولكن الله ردهم فاشلين خائنين كما هو معروف فى قصة الأحزاب ، حيث كانت هذه الجموع هى الأحزاب ، وبعد فشل الأحزاب وتفرقها بدأ الخوف يسيطر على اليهود من بنى قريظة الذين كان ضلوعهم واضحا فى تجميع هذه الأحزاب وتأليبها ضد المسلمين ، وتوقعوا أن يتجه المسلمون اليهم لعقابهم واتقاء شرهم ، فتحصنوا فى حصونهم ، وأغلقوا هذه الحصون عليهم .

ولكن الله أرغمهم بقوة المسلمين على النزول من هذه الحصون

(٣٨) ٨٣ سورة المائدة .

(٣٩) ٢٥ ، ٢٦ سورة الأحزاب .

ليكونوا فى قبضة المسلمين • أما سخرية القرآن منهم فى هذا الموقف فتتركز فى لفظ واحد هو (صياصيههم) فتشبه السخرية حصونهم بالصياصى •

والصياصى فى لغة العرب جمع صيصة ، والصيصة عندهم تستعمل فى عدة دلالات ، منها قرن الثور ، وقرن الوعل ، يقال لكل منهما صيصة ، ومنها الشوك الناتىء حول أرجل الديكة كأنه القرون الصغار ، يقال لكل منها صيصة ، ومنها شوك النساجين الذى يمشطون به النسيج ، ومنها الجذور والأصول ، يقال جذ الله صيصته ، أى قطع أصله •

وقد كان التعبير العادى المتوقع فى القرآن وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من حصونهم ، ولكن لفظ الحصون ترك ليحل مكانه لفظ صياصيههم ، والعربى الخبير بكل دلالات ألفاظ لغته سواء فى قبيلته أو فى القبائل القريبة حين يسمع فى القرآن أن الله أنزل اليهود من صياصيههم تتوارد على ذهنه ولو فى عجلة كل الدلالات التى يعرفها عن الصيصية ، وإذا هو حينئذ لا يجد ذهنه محصورا فى حصون حربية منيعة ذات شكل وصفات معينة ، وإنما يجد فى ذهنه عن القوة التى تحصن بها اليهود أرجل ديك ونبوءات فيها ، وقرونا لحيوانات ، وشوكا لنساجين ونحو ذلك مما يتبدد معه أى أثر للحصون وقوتها ومنعتها ، وهو هدف القرآن من هذه السخرية ، حيث ان القرآن يريد أن يبين لأعداء الله أنهم مهما تحصنوا من قوة الله وجنوده فهم مكشوفون ، وأن كل ما يظنونه قوة تحميهم فانما هو وهم لا ينفعهم فى شىء ، ولا يغنى عنهم شيئا •

وكل دلالات الصيصية يكاد يجمعها شىء واحد هو أنها ظاهرها قوية ولكنها فى حقيقتها ضعيفة ، فأقواها وهو القرون تبدو قوية مخيفة ، ولكنها عند مهاجمة حيوان مفترس اياها لا تنفع ولا تغنى عن صاحبها شيئا ، وكذلك ما حول أرجل الديكة من نتوء يبدو قويا ، ولكنه لا ينفع صاحبه عند حاجته الى القوة ، وهكذا حصون أعداء الله اليهود كانت فى ظاهرها قوة يحتمون بها ولكنها أمام قوة الله وجنوده كأنها سراب •

ولكن الصورة الساخرة تتمثل فى تصور أعداء الله وقد اتخذوا لأنفسهم صياصى يحتمون بها من المسلمين كالقرون مثلا ، وقبعوا فى أماكنهم وقد هياؤا أنفسهم لملاقاة المسلمين بهذه القرون ، يصدونهم بها ، وإذا أسود الاسلام يهاجمونهم ، وأعداء الله أعلم بحال أى حيوان مهما كانت قرونه أو صياصيه حين يهاجمه أسد ، فان قرنيه حينئذ لا يغنيان عنه فتيلة ، وكذلك حال حصونهم التى تحصنوا بها من المسلمين ، بل ان الرعب الذى يصاب به أى حيوان حينما يجد نفسه فى مواجهة أسد ، حتى ان الرعب يشل حركته فيعجز عن أية مقاومة ، هو ما أصاب أعداء الله حين هاجمهم المسلمون ، كما وصف القرآن :

[٠٠٠ وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون

وقاسرون فريقا]

أى أن الرعب شل حركتهم عن أية مقاومة فاستسلموا لكم تفعلون بهم ما فعلتم من قتل الرجال وأسر النساء والأطفال ، وهى صورة استسلام الفريسة حينما تجد نفسها فى قبضة الوحش ، ولا فائدة لقرنيها حينئذ ، كما لا فائدة لحصون أعداء الله حينئذ .

فى النفور من الدعوة الى الله

ومن تكرار القول أن مهمة الرسل جميعا تنحصر فى الدعوة الى الله بالحسنى ، فليس من مهمتهم اكراه أحد على الدين ، بل وليس من شأنهم أن يلبى الناس دعوتهم أو لا يلبون ، لأن الهداية من عمل الله وتوفيقه وحده . وكل هذا له نصوص صريحة عديدة فى القرآن ، وليس ما يدعو الى الاستطراد فى ذكرها ، كما أن أصل الدين الذى يدعو اليه كل الرسل وهو عبادة الله الواحد واضح فى العقول ، بل وموجود فى غريزة البشر ، فيما يعبر عنه فى البحث العلمى بغريزة التدين ، وفى التعبير الدينى بالفطرة ، حيث يولد الانسان ولديه احساس فى طبيعته بالقوة الالهية فى الكون .

واذن فدعوة الرسل الناس الى الله ليست غريبة فى العقول ، وليست فيها لذاتها تضحية أو خسارة حتى ينفر منها الناس .

ولكن الناس ينفرون من دعوتهم الى الله نفورا شديدا ، ومهما تكن العوامل الدنيوية ، أو الملابس الاجتماعية ، أو المصالح الشخصية ، فان ذلك لم يكن ليبيح للناس أن ينفروا من دعوتهم الى الصراط القويم ، وممن يريد أن يردهم الى فطرتهم السليمة ، ولكنهم ما ان يسمعوا دعوتهم الى الله حتى يلغوا عقولهم الغاء ، واذا هم نافرون جامحون فى نفورهم .

والقرآن يصور فى أساليب عديدة متنوعة نفورهم واعراضهم وعدم استجابتهم للدعوة اليه فى كل العصور ، ومنها عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى يعيننا هنا هو ما صيغ بأسلوب السخرية .

فمن الصور الساخرة لنفورهم هذه الصورة :

[فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر

مستنفرة ، فرت من قسورة] (٤٠)

والتذكرة بمعنى التذكير والمراد الهداية الى الله ، والحمر جمع حمار ، ومستنفرة بمعنى نافرة ، وقرىء بفتح الفاء فتكون بمعنى منفرة ، أى أن أحدا نفرها ، والمراد بها الحمر الوحشية ، والقسورة الأسد أو

الصائد ، وتعبير (مالهم) فى أول الآيات استفهام بمعنى لماذا يعرضون وهم بهذا الشكل ؟

والسخرية البالغة فى هذه الصورة واضحة ، فان أصل المعنى لماذا ينفرون من الدعوة الى الله هذا النفور الشديد ؟ ولكن الأسلوب لو جاء على مثل هذا النحو فلن تكون فيه سخرية أو طرافة تصوير .

أما الطرافة التى تستحوذ على مشاعر كل متذوق لأسلوب القرآن ، فهى أن القرآن يصورهم فى صورة قطع من الحمر الوحشية بالذات ، لأن الحمر الأهلية أليفة لا تنفر من الناس ، أما الحمر الوحشية فمعسروفة للعرب فى بيئتهم الصحراوية بسرعة العدو والنفار الشديد من الناس ، لأنها بغريزة الحيوانات الوحشية وخبيرتها تحس أن الانسان يسعى لصيدها ، وهى من الحيوانات المأكولة اللحم عند العرب .

فالصورة الفنية فى القرآن كأن هناك قطيعا من حمر الوحش يرعى أو يشرب ، ففوجىء بظهور مصدر خطر عليه كأسد أو صائد ، فاذا هو مذعور ينطلق بأقصى ما يملك من سرعة ، والذعر الشديد لا يتيح له فرصة التجمع حينئذ ، وانما ينطلق كل حمار فى وجه ، لا يلوى على شىء ، ويظل بهذا الشكل حتى يختفى عن الأنظار .

وتتركز السخرية فى أن القرآن يشبه أعداء الله فى نفورهم من الدعوة الى الله بهذا القطيع ، فما ان سمعوا الداعى الى الله حتى فروا هاربين ، كل منهم منطلق الى وجه من وجوه الأرض بأقصى ما يملك من قوة وسرعة ، وكأنهم قطع من حمر الوحش ، وكأن الداعى الى الله أسد فاجأ هذا القطيع فاذا هو مذعور منطلق بأقصى سرعته .

والحقيقة الحسية أنهم لم يفروا فرارا من الدعوة الى الله ، لا مسرعين ولا غير مسرعين ، وانما رفضوا هذه الدعوة ثم قاوموها ، ولكن القرآن يريد أن يسخر من رفضهم ونفورهم من الدعوة الى الدين فيصورهم بهذه الصورة التى تثير الضحك من حالهم ، والتهكم بموقفهم ، لعل هذه السخرية تدعوهم الى التفكير واستخدام العقول ، وتدعو الذين لم ينفروا بعد من هذه الدعوة الى تحاشي أن يضعوا أنفسهم فى هذا الوضع الذى يثير السخرية منهم .

وقد يبدو تصوير القرآن لنفورهم شديد المبالغة ، موغلا فى المجاز ، ولكننا لو تأملنا الناحية النفسية نجد تصوير القرآن يكاد يكون أسلوب حقيقة وليس مجازا ، ذلك أن نفورهم فى داخل نفوسهم من الداعى الى

الله نفور شديد ، يشبه نفور الحمر الوحشية من الأسد ، ويعدم عنه يشبه محاولة بعد الحمر عن مصدر الخطر ، فالسخرية اذن ليست من النفور أو من محاولة البعد ، لأن هذا فى داخل نفوسهم حقيقة ، ولكنها فى اظهار ما فى داخل نفوسهم ، والباسه ثوب الحس والحركة الظاهرة للعين الباصرة ، ثم كونه فى هذه الصورة المزرية بأصحابها ، لأن هذا الذعر والهروب بتلك السرعة ، وعدم التأنى لادراك حقيقة ما ينفرون ويهربون منه ، كل هذا ليس حالا عادية ، ولا تليق بالعقلاء ، وانما هى حال البهائم التى تستخدم حواسها وغرائزها دون عقول ، كما تفعل الحمر الوحشية ، وكل الذين ينفرون من دعوة الدين فى أى مجتمع واى عصر قديما أو حالا أو مستقبلا ينطبق عليهم هذا التصوير .

ومن دقة دلالات الألفاظ فى الصورة ما يأتى :

١ - لفظ (التذكرة) وان كان مقصودا به الهداية الى الله ، الا أن صياغته الحرفية توحى بأنه تذكير بشيء منسى أو مغفل عنه ، لأن التذكير انما يكون لشيء معروف ولكن صاحبه نسيه أو غفل عنه فنحن نذكره تذكيرا ، ولكننا لا نوجد له علما لم يكن موجودا بهذا الشيء ، و (التذكرة) فى الصورة توحى بهذا ، وهى حقيقة ، لأن الذى يدعوهم الى الايمان وهو الرسول انما يذكرهم بالفطرة التى فطروا عليها ، والغريزة الدينية المركوزة فى طباعهم ، فهو لا ينشئ شيئا جديدا ، وانما يذكرهم بشيء فى طبيعتهم نسوه وغفلوا عنه ، فكيف يبلغ بهم النفور والفرار منه الى هذه الدرجة ؟

٢ - تعبير (مالهم) ؟ فى بدء الصورة استفهام بمعنى لماذا هم معرضون عن تذكيرهم بالله ؟ والاستفهام بطبيعته سؤال يحتاج الى اجابة ، وكل اجابة تحتاج الى تفكير ، وهذا واضح ، فان أى سؤال لابد من حاجته الى اجابة ، وكل اجابة ولو كان السؤال بدهيا لابد لها من تفكير مهما صغر التفكير ، وهذا ما يهدف اليه القرآن ، حيث يلحظ كل متأمل فى القرآن أنه يعتمد كثيرا على صوغ معانيه وخصوصا فيما يتعلق بالعقيدة فى صورة أسئلة ، لا ليطلب منهم اجابة له ، وانما ليدعوهم الى استخدام عقولهم فى الاجابة عن هذه الأسئلة ولو فيما بينهم وبين أنفسهم ، وهذا المنهج نفسه وهو الاعتماد على الأسئلة وخصوصا فى المعانى الهامة نجده فى أسلوب الحديث النبوى ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أقرب الناس فهما لمنهج القرآن والتأسى به ، فضلا عن أنه أمام البلغاء وأعرفهم بأنسب الأساليب للوصول الى الهدف .

فالسؤال وهو (ما لهم ٠٠) ؟ مع لفظ (التذكرة) ينتج هذا العجب
الثير للحيرة فى الاجابة ، فان هذه الصياغة تجعل المعنى يصبح كأنه
يسأل : لماذا ينفرون من الداعى هذا النفور ؟ مع أنه لا يطلب منهم شيئاً ،
ولا يدعوهم الى عمل شىء ، وانما يذكرهم مجرد تذكير بشىء موجود فيهم ،
ولكنهم نسوه وغفلوا عنه ؟

٣ - لفظ (حمر) جمع حمار ، والمراد الحمر الوحشية كما يدل لفظ
(مستنفرة) والجمع يعنى الكلام عن قطيع من الحمير ، وليس عن حمار
واحد ، ، والصورة فى مجموعها تصور الفزع الذى ينتاب قطيعاً من حمر
الوحش حينما يفاجئه أسد ، فيفر مذعوراً كل حمار ينطلق بأقصى سرعته
الى أى وجه يصادفه ، والذى نريد أن نصل اليه من الدلالة الخاصة لاختيار
لفظ الحمر دون غيره أنه يمكن أن يثار سؤال ، وهو أن الفزع من الأسد
أو الصائد ليس مقصوراً على الحمر الوحشية ، بل كل الحيوانات غير
المفترسة هى فريسة للحيوانات المفترسة ، وتفزع منها فزع الحمر ، فلماذا
لم يشبه نفورهم بنفور قطيع أو سرب من الغزلان مثلاً حين يفاجئها خطر ؟
لأنها ستفعل ما تفعله الحمر ، والجواب أن اختيار الحمر لذاتها عنصر
أصيل فى التشبيه ، فان الحمار يضرب به المثل فى الغباء ، ولهذا اختير
لتشبيهم به دون غيره ، وذلك لأن نفورهم ممن يدعوهم الى خيرهم دون
أن تصيبهم منه شر هو غاية الغباء والحماسة ، فلا يناسبهم فى التشبيه
حينئذ الا ما يضرب به المثل فى الغباء وهو الحمار .

٤ - لفظ (مستنفرة) بمعنى أنها نافرة ، وهى حمر الوحش ، والنفور
هو الفرق بينها وبين الحمر الأهلية التى لا تنفر من الناس ، ولكنه لو جاء
التشبيه بالحمر الأهلية أو الحمر مطلقاً فان التشبيه يدل على الغباء فقط ،
بينما الهدف ليس اثبات الغباء وحده لهم ، وانما الغباء مع شدة النفور ،
وهذا لا يتحقق الا فى الحمر الوحشية التى هى (مستنفرة) بكسر الفاء
أى من طبيعتها فى بيئتها النفور ، وقهرىء بفتح الفاء أى أن هناك من نفرها
وهو مصدر الخطر الأسد أو الصائد ، والنتيجة فى كلتا القراءتين
واحدة .

والصورة الواقعية فى التشبيه لها دلالة ، والصورة الواقعية هى تفرق
الحمر حين تفر من مصدر الخطر ، فهى لا تهرب مجتمعة ، وانما ينطلق
كل فرد فى الوجه الذى يليه من الأرض ، وهذه الصورة يراد تشبيهم بها
فى اثناء الفرار ، أى أنهم لا يكونون حينئذ مجتمعين على رأى أو حجة
يستندون اليها فى فرارهم واعراضهم عن الدعوة الى الدين ، فهم ينفرون
لذات الفرار ، ويخافون من الدعوة الى الله لذاته ، وليس لأن لهم حجة

تجمعهم أو يستندون اليها ، وكل منهم له هدفه الشخصي ، وموانعه الاجتماعية ، وليس هناك عقيدة أو رأى منطقي يجمعهم كما يجتمع المؤمنون مثلا على عقيدة ورأى وحجة واحدة •

والفرار من الدعوة الى الله سنة ملتزمة عند الناس فى كل العصور والبيئات ، وما من نبي دعا قومه الى الله الا ونفروا منه ، كما يؤكد القرآن ذلك فى أساليب عديدة متنوعة ، كلها ينبىء ويؤكد الاعراض عن دعوة الأنبياء ورفضها والسخرية منها ، وتسفيه الدعاء اليها •

وها هو ذا نوح عليه السلام الذى لبث يدعو قومه ألف سنة الا خمسين عاما فى أجيال متعاقبة يؤكد تلك الحقيقة ، والقرآن يعرض شكوى نوح الى الله من نفور قومه من دعوته ، فيصوغ هذه الصورة :

[قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزداهم دعائى الا فرارا] (٤١)

فالمعنى العام أن دعوته المستمرة اياهم الى الله لم تزداهم الا رفضا اياها ، ولكنهم لم ينفروا على الحقيقة فرارا حسيا ، لأن الفرار هو الهروب فى سرعة وعجلة ، ونوح لم يكن مصدر خوف لهم حتى يهربوا منه ، والدعوة بلسانه لا تخيف أحدا حتى يهرب ويجرى منها •

ولكن القرآن يريد أن يصورهم فى صورة ساخرة ، وكأنهم ما ان سمعوا نوحا يدعوهم الى الله حتى ولوا هاربين ، وأخذوا يجرون بأقصى سرعة ، ونوح وراءهم يكرر دعاءه ، وكلما سمعوا دعاءه ازدادوا سرعة فى الجرى والهروب ، ويظنون هكذا نوح يدعوهم بلسانه الى الله ، ولكن مجرد دعوته بلسانه تملوهم فزعا وهلعا ، فيزدادون سرعة فى الفرار ، وهكذا تستمر هذه الصورة وكأنها ثابتة ، نوح يزداد اصرارا على دعوته وعلى تكرارها ، وهم يزدادون حرصا على الادبار وسرعة الفرار •

ومما يلفت النظر من دقة ألفاظ الصورة :

١ - تعبير (دعوت قومى) حذف فيه متعلق الفعل ، والأصل دعوت قومى الى الايمان بالله ، ولكن المتعلق حذف بأنه دعاهم الى ماذا؟ ومع أن المحذوف واضح فى السياق ، فكل دعوة نوح هى الى الله الا أن الحذف يدعم السخرية منهم ، حيث يصبح المعنى فى ظاهره كأنهم ينفرون هذا الفرار الشديد بدون سبب للفرار ، لأن نوحا حينئذ كأنه لم يدعوهم الى

شيء ، لا الى ايمان ، ولا الى عمل ، ولا الى أى شيء ، اللهم الا أنه يناديهم ليأتوا اليه ، وحينما يأتون اليه قد يخبرهم لماذا هو يناديهم ، لأن التعبير لم يذكر صراحة الى أى شيء يدعوهم نوح ، فيصبح الدعاء فى معنى النداء ، فكأنهم يفرون من مجرد النداء دون أن يعرفوا سببا يفرون منه ، وهذه سخريه واضحة أن تتصور شخصا ينادى شخصا آخر فاذا المدعو ينطلق هاربا بأقصى سرعته دون أن يكون هناك سبب لفراره .

فقد كان المنتظر من قوم نوح ألا يفروا ، وانما يذهبون الى نوح ليشرح لهم ما يدعوهم اليه ، ومن حقهم أن يحاوروه ، وأن يستوضحوا منه ما ليس واضحا فى أذهانهم ، ونحو ذلك من سلوك العقل والحكمة ، ولكنهم يسلكون مسلكا لا عقل ولا حكمة فيه ، وهذا ما تهدف اليه سخريه القرآن منهم فى هذا التعبير .

٢ - الاستثناء فى تعبير (فلم يزداهم دعائى الا فرارا) يعيد الى الذهن طبيعة الاستثناء ، وهى أن يكون فيه مستثنى منه ، ومستثنى ، وهنا حذف المستثنى منه ، وقد نوجز تقدير المستثنى منه المحذوف فنقول ان الأصل فلم يزداهم شيئا الا فرارا ، ولكن لفظ (شيئا) المقدر يحتاج فى الذهن الى توضيح من خلال السياق ، بمعنى أن يكون المعنى نحو فلم يزداهم دعائى فهما أو تأملا أو رجوعا أو أى شيء الا شيئا واحدا هو الفرار ، وهنا تزداد السخريه منهم وضوحا ، فكأنهم لا يحسنون شيئا من العقل أو التأمل أو الصلاحية لأى شيء الا للفرار ، ولو كان التعبير نحو فلم يزداهم دعائى الا رفضا أو عنادا أو كفرا لما كانت فيه سخريه ، لأن معنى هذا أنهم وقفوا وفكروا رغم أنه تفكير خاطيء ، أو واجهوا الداعى بالرفض ، أو نحو ذلك مما يجعل لهم كيانا ووجها من وجوه المسالك الآدمية رغم أنها خاطئة ، أما صورتهم فى تعبير القرآن فليس فيها أى وجه من وجوه الآدميين فى سلوكهم ، وانما هو مسلك الحيوانات العجماء حين يفاجئها خوف وذعر لاتقوى على مواجهته فلا تفعل شيئا سوى الفرار .

ومن الواضح أن الحديث وان كان عن قوم نوح الا أنه ينطبق على كل من يسمون آذانهم عن دعوة الدين فى أى مجتمع وأى زمن .
وفى صورة أخرى من صور نفورهم واعراضهم عن الدعوة الى الله ، نجد عن قوم نوح هذه الصورة على لسان نوح عليه السلام :

[وائى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم
فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ٠٠] (٤٢)

والتصوير الساخر في (جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم) وهما في الواقع صورتان وليس صورة واحدة .

فأما الصورة الأولى فهي (جعلوا أصابعهم في آذانهم) والسخرية فيها من وجهين :

١ - أحدهما وضع الأصابع في الآذان لذاته عند سماع أية دعوة ، فليس من المألوف ، ولا من ملوك العقلاء ، ولا حتى السفهاء أنه حينما يسمع الانسان شخصا يناديه أو يدعو له الى أى شيء أن يضع أصابعه في أذنيه ، فقوم نوح بداهة لم يضعوا أصابعهم في آذانهم حقيقة حينما سمعوا دعاء نوح ، وانما هو أسلوب مجاز ، كما تصف شجاعا في أسلوب بياني بأنه أسد ، فهو ليس أسدا حقيقة ، وانما تريد أن ترسم له في ذهن السامع صورة أسد ، وقوم نوح لم يضعوا أصابعهم في آذانهم حقيقة ، وانما هي سخرية من شدة رفضهم سماع دعوة نوح أو تأمل مضمونها .

٢ - لفظ (الاصابع) في ظاهره يوحي بصورة شديدة السخرية منهم ، لأن الذي يريد أن يصم أذنيه عن السماع ، لا يضع أصبعه كلها في أذنه ، وانما يضع أناملته ، أو على وجه الدقة طرف أناملته ، ولكنه لو قيل انهم وضعوا أناملهم في آذانهم لم يكن فيه من السخرية ما في تعبير (أصابعهم) أما تعبير القرآن بأصابعهم فيتضمن أنهم لم يكتفوا بوضع أطراف اناملهم ، ولا بوضع أناملهم كلها في آذانهم ، وانما أدخلوا أصابعهم كلها في آذانهم حتى لا يتسرب شيء من دعوة نوح الى أسماعهم ، وتصوير أن أصابعهم كلها داخل آذانهم تصوير بالغ الغرابة والسخرية .

هذا مع أنه واضح أن المعنى المراد في الصورة هو رفضهم الشديد للاستماع الى نوح ، ولكن السخرية هي في صياغة أسلوب هذا الرفض .

وأما الصورة الثانية فهي (واستغشوا ثيابهم) حيث انها صورة مستقلة فنيا عن الصورة السابقة ، بمعنى أن صياغتها تجعل لها لذاتها كيانا تصويريا شديد السخرية من قوم نوح .

فان الصورة تتضمن كأنهم لم يكتفوا بوضع أصابعهم في آذانهم ليحولوا بينها وبين السماع ، وانما أرادوا أيضا أن يعطلوا حاسة البصر زيادة على تعطيلهم حاسة السمع ، فهم يرفضون سماع الدعوة ، ويرفضون أيضا رؤية مصدر الدعوة وهو نوح عليه السلام ، حتى لا يعلق بذهنهم أو يصل الى نفوسهم شيء اطلاقا يذكرهم بهذه الدعوة ، فهم يريدون في هذه الصورة أن يغطوا عيونهم ، وقد كان يمكن أن يغطوها بأيديهم ، ولكن أيديهم

مشغولة بصم آذانهم ، حيث وضعوا أصابعهم فيها ، فلا يستطيعون أن يجمعوا بين صم الآذان وتغطية الأبصار بأيديهم فى وقت واحد ، فلجأوا الى أقرب وسيلة لديهم وهى ثيابهم التى يلبسونها فألقوها على وجوههم لتمنع أبصارهم من الرؤية ، وتصبح كأنها غشاوة على عيونهم تحول بينها وبين الرؤية بتعبير (استغشوا) فهى من باب قوله تعالى :

[ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى

أبصارهم غشاوة] (٤٣)

ومن دقة التشبيه فى الصورة الاشارة الى الغشاوة على العيون دون العمى ، لأن الغشاوة على العين درجة أقل من العمى ، فان العمى هو فقدان حاسة البصر أصلا ، أما الغشاوة فهى كأن البصر موجود فى أصله ، ولكن هناك حائل بين العين والشئ المرئى وهو الغشاوة ، بحيث لو زال هذا الحائل من أمام البصر فانه سيرى المرئيات أمامه ، وهذا هو واقع الكافرين فعلا ، فان عقولهم موجودة فيهم ، ويمكن أن يدركوا بها الدين الحق اذا استخدموها ، ولكنهم وضعوا تقاليدهم وأشواءهم ومنافعهم المباشرة أمام أعينهم فمنعوا عقولهم من الادراك والتفكير السليم فى الدين ، ولو أنهم أزالوا هذه العوائق الاجتماعية والشخصية من أمام أعينهم لأصبح الحق واضحا أمامهم .

ومن دقة التشبيه أيضا أن الاستغشاء بالثياب أى وضع الثياب على الوجوه أمام الأعين لا يمنع الرؤية فى العادة منعا كاملا كالعمى ، وانما يظل الشخص حينئذ يرى ولو بصيصا من النور أو شيئا كالأشباح خلف الثوب ، وتطبيق هذا على الكافرين أنهم مهما حاولوا أن يضعوا أمام عيونهم من أنواع الغشاوة فلا يستطيعون أن يحولوا بين شعاع من الدين وبين الوصول الى نفوسهم ، فسيظل الدين رغم كل ما يفعلونه يلاحقهم فى داخل نفوسهم ولو فى صورة شك أو ظن أو احساس غامض ، ومن هنا تكون مسئوليتهم أنهم فى كل الأحوال يحسون بالدين ، وقد كان عليهم أن يستخدموا عقولهم فى البحث ، وفى محاولة تبين الحق ، ولو بالحوار المنصف الهادف الى الوصول الى الحق ، ولكنهم يحاولون قتل هذا الاحساس بالدين .

ومما توحىه دقة اللفاظ هذه الصورة :

١ - تعبير (لتغفر لهم) من جملة (وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم) يحدد السبب الذى يدعوهم من أجله ، وهو مغفرة

الله لهم ، أى أنه انما يدعوهم الى خير عظيم لهم ومع ذلك يفعلون كل ما يفعلون حتى لا يسمعوا دعاءه .

وذلك أنه لا مفر أمام المدعو الى أى دعوة من احدى ثلاث ، اما أن يستجيب ، واما أن يرفض ، واما أن يمنح نفسه فرصة لادارة الرأى والتفكير قبل أن يبت فى موقفه ، هذا حتى ولو كانت الدعوة الى شر ، أما أن يرفض سماع الدعوة أصلا ، فليس هذا من سلوك العقلاء ، ولا من السلوك المألوف ، ولكن موقف هؤلاء كان بالغ الغرابة من الجهتين ، من جهة أن الدعوة ليست الى شر ، ولا الى بذل وتضحية ، ولا الى أى شىء تأباه العقول أو تخافه النفوس ، بل على العكس من ذلك ، هى دعوة الى خير عظيم لهم هو أن ينالوا مغفرة الله ، ومع ذلك يرفضون سماع هذه الدعوة ، والجهة الثانية أن رفضهم السماع تجاوز كل صورة ممكنة حتى أو غل فى المستحيل ، وهو ادخال كل الأصبع فى الأذن .

٢ - لفظ (أصروا) من جملة (جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا) مع أن المراد به اصرارهم على موقفهم فى الكفر الا أن اقتترانه بجعل الأصابع فى الآذان ، واستغشاء الثياب يوحي باصرارهم على ظاهر هذه الصورة ، وكأنهم حينما غطوا وجوههم بثيابهم ، وحاولوا ادخال كل أصابعهم فى آذانهم كان هناك من يحاول أن يثنيهم عن هذا العمل ، وأن يقنعهم بسوء ما يفعلون فلم يفتنعوا ، وانما (أصروا) على استغشاء الثياب ، وجعل الأصابع فى الآذان ، حتى لا يروا مصدر هذه الدعوة ولا يتسرب منها الى آذانهم شىء .

وبعد هذا كله يمكن أن يقال ان هذا التصوير لابرار هذا الوضع غير المألوف فى حالهم مع غرابته فى مظهره الا أننا اذا تأملناه بالنظر الى داخل نفوسهم نجده واقعا حقيقيا ، غاية الأمر أنه مبنى على التشبيه ، بمعنى أن شدة نفورهم من الدعوة الى الدين ، ورغبتهم الجامحة فى منع أى شىء يصل الى عقولهم منها تشبه حال من يتخذ هذا المسلك الحسى فى الصورة التى رسمها القرآن من استغشاء الثياب وجعل الأصابع فى الآذان .

ومن الواضح أن الحديث عن قوم نوح أو غيرهم من السابقين ليس محض حديث تاريخى ، وانما هو عبرة ظاهرة للمخاطبين بالقرآن .

سخرية القرآن والسادة

وقد كان السادة والرؤساء من كبرى العقبات التي واجهت الاسلام فى سبيل انتشاره ووصوله الى الناس ، فلم تكن من قبيل العفوية تلك الكلمة الماثورة (الناس على دين ملوكهم) ، فمن طبيعة الحياة فى كل المجتمعات وسائر العصور أن نجد نوى الجاه والنفوذ هم القدوة التي يتأسى بها الناس فى كل ما يدخل فى نطاق الحياة العامة ، سواء فى السلوك أو فى العقيدة ، وهم لا يحتاجون فى نفوذهم هذا الى سلطة أو استخدام قوة ، بل ان التابعين أو المغلوبين على أمرهم يجدون نزعة نفسية طبيعية فى الانسياق وراءهم والتأسى بهم طواعية واختيارا ، وابن خلدون يوضح هذه النزعة البشرية فى قوله (المغلوب مولع ابدا بتقليد الغالب) فالتقليد ليس عن خوف أو سطوة من الغالب ، وانما هو (ولع) من المغلوب بتقليد الغالب ، وكأن الغالب أصبح فى نظر المغلوب فى موضع القوة والمكانة التي يتمناها المغلوب ، وهو لا يستطيع بلوغ هذه المكانة ، فهو يتشبه به فيما يملكه من سلوك أو فكر ، وهذا يفسر سبب ما تحدثه الشعوب الفاتحة فى مستعمراتها من آثار لانتشار التقليد للمنتصر فى اللغة والملبس والعادات وغير ذلك بين الشعب المغلوب .

ومن هنا كان اهتمام القرآن بقضية السادة ، حيث وجه القرآن اليهم حملة قوية ظاهرة ، ومن الواضح أن القرآن لا يعنى بالأفراد لذاتهم ، وانما لوقفهم من الدين ، وموقفهم من الدين أيضا ليست له أهمية خاصة لذاته ، فمن المبادئ الواضحة فى القرآن :

[فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] (١)

(١) ٢٩ سورة الكهف .

وانما أهمية موقفهم أنهم عقبة بين الدين وعامة الناس ، فعامة الناس هم هدف كل الأديان ، وهم بغية كل الأنبياء ، ولكن السادة فى كل العصور هم العقبة الكئود التى تحول دون وصول الدين الى العامة ، وتحول بين العامة والدين ، فى صد كل من يرونه متجها اليه من الناس .

ولا يلزم فى موقف السادة وحيلولتهم بين الناس والدين أن يتخذوا موقف العداء الظاهر أو موقف العنف فى صد الناس عن الدين كما فعل سادة قريش فى موقفهم من الاسلام ، بل يكفى أن يجد العامة سادتهم معرضين عن الدين فيعرضون هم أيضا من باب التقليد ، الا من يشذ منهم بصورة فردية ، وقد تكون حجة العامة حينئذ فيما بينهم وبين أنفسهم أن السادة أفقه منا وأعرف بالحكم على الأمور ، فلو كان هذا الدين خيرا لكانوا هم أسبق اليه ، والقرآن يسوق هذا المنطق نفسه على السنة السادة ، حيث يعتقدون أنهم أعلى فكرا وأعرف بموازن الأمور من المؤمنين الفقراء الضعاف ، فلو كان الاسلام خيرا فى منطقتهم ما سبقهم اليه هؤلاء الدهماء من الناس ، حيث يقول تعالى :

[وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا

ما سبقونا اليه ٠٠] (٢)

واللام فى (للذين) بمعنى عن أى قالوا عن ايمان هؤلاء هذا الكلام .

وليست السيادة التى يعنيها هذا الحديث هى القيادة أو الرئاسة الاجتماعية بمعناها العرفى وحدها ، كرئاسة القبيلة أو الامارة أو الملك أو أية سلطة شرعية أو عرفية فحسب ، وانما المراد كل وسيلة تحقق لصاحبها رجاهة وتميزا فى المجتمع ، كالسلطة أو المال أو العصبية القوية أو النسب المتميز ، فكل ذلك ونحوه يجعل صاحبه فى وضع بارز مرموق فى المجتمع ، وكل هذه العوامل كانت عقبات أمام الدين فى كل العصور حيث يستخدمها أصحابها فيجعلونها عوائق أمام انتشار الدين ، ولذلك صب القرآن سخيرية شديدة على كل جانب منها ، ليحطم هذه العقبات حتى يتاح للدين أن يأخذ مجراه الى الناس دون عوائق .

وكون هذه العوامل التى تتكون منها السيادة فى المجتمع من المال والسلطة والجاه عوائق أمام الدين أمر لا يحتاج الى سلطة فى القول ، فان الدعاة الى الدين فى العادة لا يتجاوزون أن يكونوا من أوساط الناس ، وغالبا ما يكون من الفقراء ، بينما الذين يتصدون للوقوف فى وجه الدين

انما يكونون عادة من علية القوم وسادتهم ، سواء بسلطانهم ، أو مالهم ، أو جاههم ، ويجد عامة الناس أنفسهم حينئذ أمام جبهتين غير متكافئتين اجتماعيا ، أحدهما قوية قوة راسخة ظاهرة وهى قوة السادة ، والأخرى ما زالت تحبو ولا تملك من القوة الا صوتا مدويا ، ولكنه لا يرتكز على قوة اجتماعية وهى قوة الدين ، فيميل العامة تلقائيا الى هذه القوة التى ألفوها وخضعوا لسلطانها وجاهها ، وهى قوة السادة •

وعلى سبيل المثال اذا ألقينا نظرة على تأثير المال وحده سنجد العجب فى قلبه موازين الأمور ، بل وموازن القيم والأخلاق ، فما أكثر ما تحدث الحكماء والشعراء عن ذلك ، وعن أن ما يعد عيبا من الفقير يعد عضيلة اذا صدر من الغنى ، وما يوصف بأنه نقيصة فى الفقير يعد ميزة فى الغنى وهكذا ، ففى الجاهلية كان مالك بن حريم الهمدانى يقول فيما قال عن ذلك :

أثبتت والأيام ذات تجارب	وقبدي ذك الأيام ما نست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه	ويثنى عليه الحمد وهو مذم
وأن قليل المال للمرء مفسد	يحز كما حز القطيع المحرم
يرى درجات المجد لا يستطيعها	ويقعد وسط القوم لا يتكلم

فالمال يجلب لربه الحمد والثناء بينما هو يستحق الذم ، ولولا المال لأشبعه الناس ذما ، ويقول أيضا ان الفقير يزرى بصاحبه ازراء قاتلا ، فهو يتطلع الى أية درجة ترفع قدره فى المجتمع فلا يستطيع ، ولا يملك الا أن يقبع بين الناس صامتا لا يجرؤ على ابداء ما فى نفسه من كلام مهما تكن قيمة هذا الكلام •

وأما عروة بن الورد العيسى الجاهلى فيضيف فى حوارهِ مع امرأته أن الفقير أسوأ ما يزرى بقيمة الشخص فى المجتمع مهما يكن فيه من خير وفضائل ، وأن استهانة الناس به واحتقارهم اياه لا تقف عند حد ، بل ان أفراد أسرته يفعلون به ذلك ، حيث (تزدرية حليلته وينهره الصغير) من أولاده فضلا عن الكبير منهم ، أما الغنى فان المال يجعل له جلالا وهيبه تفزع

من يحاول حجبه عما يريد ، ويختم هذا الجانب من حوارهِ بمعنى بالغ الطرفة رغم واقعيته كما يلى :

دعيني للغنى أسعى فإني وأهوتهم وأحقرهم لديهم
وأيت الناس شرهم الفقير وان أمسى له كرم وخير
ويقصى فى الندى وتزدرية حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد حاجبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور

فطرافة البيت الأخير واضحة فى تعبير (قليل ذنبه والذنب جم) ثم فى هذا التعبير الذى يجعل المال نفسه ربا يغفر لصاحبه ذنوبه مهما كانت جمة (ولكن الغنى رب غفور) .

واذن فالمال وهو عامل واحد من عوامل السيادة فى المجتمع له هذا التأثير الخطير فى حياة المجتمعات وسلوكها ونظرتها الى الأمور ، بل والى القيم والمبادئ ، حيث ان الحكم على السلوك من حيث الخيرية وعدمها يتأثر بالفقر والغنى ، فالسلوك الذى يحكم عليه المجتمع بأنه شر عند الفقير ، هذا السلوك نفسه اذا صدر من الغنى يحكم عليه المجتمع بأنه فضيلة ، فكيف اذا اجتمعت لهذا الغنى عوامل أخرى ترفعه الى درجة السيادة والقيادة الاجتماعية ، كالسلطة والجاه والنسب والعصبية ؟ لا شك أن نفوذه وتأثيره فى المجتمع سيكون أقوى وأخطر ، وحين يقف من الدين موقفا معاديا فانه سيكون سدا منيعا يحول بين العامة والدين .

ومن هذا يتبين أن اهتمام القرآن بالأفراد من السادة والرؤساء ليس لذات الأشخاص ، ولا لأهمية كفرهم أو ايمانهم ، وانما لكونهم عقبة فى طريق الاسلام .

(١)

فهذه صورة أحد السادة الذين يعتمدون على أكثر من مصدر للقوة والسيادة فى المجتمع :

[أن كان ذا مال وبنيين ، اذا تنلى عليه آياتنا قال
أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم] (٣)

(٣) ١٤ - ١٦ سورة القلم .

اللغة :

أساطير : جمع أسطورة ، وهى ما كتب أو سجل وكأئنه فى أسطر من أخبار الأولين وقصصهم ، ومن الخطأ الشائع فهم الأسطورة على أنها الخرافة أو الوهم فحسب فان من أبرز معانيها أنها من السطر والأسطر ، وأساطير الأولين بمعنى ما كتبه الأولون وسطروه من أخبارهم وقصصهم ، وهذا لا يعنى الاشارة اطلاقا الى صدق هذه الأخبار ، أو كذبها ، وانما يعنى تسجيلها كتابة أو رواية والمشركون حين يصفون القرآن بأنه أساطير الأولين لا يعنى بالضرورة تكذيب ما ورد فيه من أخبار الأولين وقصصهم ، وانما يعنى تكذيب أن القرآن كلام الله ، أما موضوع القرآن فلم يرد أنهم كذبوا من اخباره أو موضوعه شيئاً ، وانما انصب تكذيبهم على نسبته الى الله .

سنسمه : من الوسم ، وهو الكى حيث يصبح علامة ، أى سنجعل له سمة ، وهى أثر الكى ، والعرب كانوا ذوى خبرة معروفة بأمراض الابل وأدويتها ، ومن أشهر أدويتها الكى ، ومن أمثالهم (آخر الدواء الكى) والحديدة التى تحمى على النار ليكوى بها تسمى الميسم ، كما كان للعرب هدف آخر من وسم الابل بالكى ، وهو تمييزها عن غيرها من ابل الآخرين ، فكل قبيلة لها سمة خاصة فى ابلها لتمييزها عن ابل القبائل الأخرى ، وقد يسم الأفراد فى القبيلة ابلهم بسمات خاصة لتمييز ابل كل شخص عن ابل الآخرين ، وفى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم (كان يسم ابل الصدقة) أى يجعل لها علامة تميزها عن غيرها .

الخرطوم : هو فى لغة العرب الأنف ، ولكن يغلب فى العرف اطلاقه على هذا العضو من الفيل ، فالخرطوم للفيل مكان الأنف من الحيوان .

السياق :

وسياق الحديث عن الصورة يوضح الأسباب التى دعت القرآن الى السخرية من هذا الذى ينصب عليه التصوير الساخر ، وأبرز هذه الأسباب :

- ١ - انه شخص سيىء الخلق ، ليس فى جانب واحد من خلفه ، وانما فى جوانب عديدة ، فمن صفاته أنه حلاف وهماز ومشاء بنميم وأثيم .
- ٢ - أنه مفسد فى الأرض ، ومفسد فيما بين الناس ، مروع لأمن الآمنين ومن ذلك أنه مشاء بالنميمة ليوقع بين المجتمع أفرادا وجماعات وأنه مناع للخير وأنه معتد .

٣ - أنه يستغل ما آتاه الله من عوامل القوة للوقوف فى سبيل الدين وتنفيذ الناس منه ، وقد آتاه عاملين كبيرين للقوة فى المجتمع ، فكان (ذا مال وبنين) .

ولهذا كله يصب عليه القرآن حملة متميزة فى طابعها ، حيث لم توجه فى القرآن حملة على شخص يمثل هذه الحملة ، فما أكثر الذين تحدث القرآن عنهم من أعداء الله فى كل العصور ، جماعات وأفرادا ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ القرآن ما بلغه فى حديثه عنه ، وذلك فى قوله تعالى :

[ولا تطع كل حلاف مهين ، هماغز مشاء بنميم ،
مناغ للخير مهنت أئيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن
كان ذا مال وبنين ، إذا تولى عليه آياتنا قال
أساطير الأولين ، سئسمه على الخرطوم] (٤)

وقد يعنى كثير من المفسرين بتحديد الشخص المراد بهذه الأوصاف ، أهو الوليد بن المغيرة المخزومي أو غيره ، ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها أن القرآن لا يعنى بالأشخاص لذاتهم ، وإنما لموقفهم من الدين بوصفهم نماذج مؤثرة أما بالخير فيبرز هذه المواقف الخيرية المتميزة لتكون نموذجا يحتذى ، وأما بالشر ، فيبرز أيضا هذه المواقف الشريرة للتحذير منها وكشف ما قد يخدع عنه بمظهره منها .

وهذا الزعيم ليس المهم أن يكون من هو بذاته ، وإنما المهم أنه عقبة فى سبيل الاسلام ، وأنه نموذج لنوعية من قادة الشرك يصدون عن سبيل الله ، فيبرز القرآن خطورتهم ، محذرا من الانقياد لهم ، مظهرا ما لا يعلمه العامة من حقيقتهم ، فإن العامة إنما ينظرون الى مثله على أنه قوة مخيفة ، وهالة طاغية ، تبعث الرهبة أحيانا ، وتثير قوتها الاعجاب أحيانا ، وهو فى كل الأحوال موضع التقدير عند العامة مهما حمل من مساوئ ، فإن مساوئه عند العامة مغفورة كما يقول عروة بن الورد فيما سبق (ولكن الغنى رب غفور) بل قد ينظر الى مساوئه على أنها مزايا ، كما نرى اليوم فيما بيننا .

فليس المهم إذن أن يكون المراد هو الوليد بن المغيرة أو أى شخص معين بذاته ، ولكن المهم هو النموذج نفسه ، بل مما يشير الى عدم قصد شخص بذاته أمران :

١ - تعبير (ولا تطع) فى بداية الحديث عنه ، فقد يكون هذا الخطاب فى ظاهره موجها الى النبى صلى الله عليه وسلم ولكن مما لا شك فيه أنه خطاب عام لكل مؤمن أو راغب فى الاتجاه الى الايمان ، ومعنى هذا أن ذلك الشخص الذى هو موضوع الحديث يدعو الى محاربة الدين والصد عنه ، ومثل هذا الشخص ليس شخصا واحدا وانما هى نوعية كبيرة العدد مهما اختلفت وسائلها فى كل مجتمع وكل عصر توجد فيه دعوة دينية .

٢ - لفظ (كل) من جملة (ولا تطع كل حلاف ٠٠٠) فان لفظ (كل) صريح فى أنه ليس شخصا واحدا ، والتحذير بعدم الطاعة ليس من شخص بعينه ، وانما من كل من هو فى هذه النوعية من السادة ، ومقتضى لفظ (كل) أنه ليس شخصا واحدا ، والا لكان التعبير نحو ولا تطع الحلاف المهين ٠٠٠ الخ .

وكل ما يعنيه تعداد أوصاف هذا الشخص بهذه الكثرة أنه أشد خطورة من غيره من القادة والسادة فى الصد عن سبيل الله ، والأشد خطورة من غيرهم كانوا ولا زالوا أيضا ليسوا شخصا واحدا ، وانما هم كثيرون .

ولكن النتيجة التى ينتهى اليها كل هذا التعداد لصفات مثل هذا الزعيم كأن القرآن يقول للعامة من الناس وغيرهم : قد ترون شخصا بارزا تبهركم منزلته فى المجتمع ، وتعجبون بما يملك من عوامل القوة والظهور ، ولكنكم قد لا تعلمون ، ولو تأملتم لعلمتم أنه يحمل من المساوىء الخلقية فيضا كبيرا لا يليق بمن تجعلونه قدوة لكم ، فان من يكون فى موضع القيادة والسيادة ينبغى أن يكون قدوة حسنة ، ولكن هذا الشخص بالغ السوء فى جوانب عديدة فهو دخيل على القيادة والسيادة الصحيحة وهذا معنى (زنيم) التى وردت فى صفاته فى الآيات الكريمة ، فان الزنيم فى القوم هو الدخيل عليهم ، فاذا كان سياق الحديث عن النسب فهو دخيل فى النسب ، واذا كان السياق فى أى شىء فهو دخيل فى هذا الشىء ، فقد يكون الحديث عن مهنة كالنجارة ، فيدعى شخص أنه نجار ، بينما هو لا يصلح للنجارة ، فيقول النجارون انه (دخيل) أو (زنيم) أو (دعى) فينا بمعنى أنه فى الحقيقة لا يصح أن يكون منا ، وكذلك لو ادعى شخص العلم وهو جاهل ، فقد يقول العلماء مثل ما قال النجارون وقد يحدث حينما يسند منصب فنى الى شخص لا يصلح له أن يقال ان هذا الشخص دخيل على هذا المنصب أو على أرباب هذا المنصب ويساويه أن يقال انه (زنيم) أو (دعى) فيه .

واذن فهذا الشخص الذى تشير اليه الآيات لا يلزم أن يكون وصفه فى القرآن بأنه (زعيم) أنه دعى النسب ، بل ان السياق يشير الى أنه دعى فى السيادة لأنه يستند الى أنه ذو مال وبذنين فيجعل من ذلك ستارا وغطاء مساوئه العديدة ، فهو فى الحقيقة دعى ودخيل على السيادة الحققة و (زعيم) فيها .

وكل هذه الصفات التى ساقها القرآن عن هذا الزعيم موجودة فى كل القادة والسادة سواء اجتمعت فى شخص ، أو تفرقت فى أشخاص ، وروايات التاريخ تحدثنا عن الكثير من مساوئ رؤساء القبائل وسادتها ، مما لا حاجة الى الافاضة فيه ، وكذلك فى كل عصر ، وقد أصبح الافساد بين الناس قانونا من قوانين السيادة فى عصرنا بشعار (فرق تسد) ، وهو من صفات هذا الزعيم (مشاء بزميم) والقرآن يشير الى ذلك فى قوله تعالى :

[ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة

اهلها اذلة وكذلك يفعلون] (٥) .

ولا مانع أن يكون المراد بمضمون الصورة الساخرة شخصا معيناً ولكنه أيضا نموذج ومثال لغيره .

الصورة :

وتتمثل الصورة الساخرة فى قوله تعالى :

[سنسمه على الخرطوم]

وحرف السين فى (سنسمه) للمستقبل القريب ، وللمستقبل البعيد (سوف) والجملة امتداد للخطاب فى (ولا تطع) بمعنى انتظر ، وفى وقت قريب سترى أنفه موسوما بسمه اذلال ، هى الكى على أنفه ، فصورة هذا الزعيم القوى الذى يعيث بين الناس بغيا وافسادا وعتوا وتجبرا أنه سيكوى على أنفه ليس لعلاج مرض ، وانما ليكون الكى علامة اذلال ظاهر لا يستطيع اخفاءها ، لأنها فى موضع لا يخفى ، وهو الأنف ، ومن يخفيها لابد أن يخفى شخصه فلا يعرفه أحد ، فيصبح كأنه غير موجود ، أما فى حال وجوده فان أنفه ستنتطق بأن هناك من اذله بل حكم عليه بذل أبدى لا فكاك منه ، وهو جعل علامة على أبرز موضع فيه وهو الأنف ، وقد كان من تقاليد العرب حين يريدون اذلال شخص كالأسير مثلا أن يجزوا شعر رأسه ، فيعرف الناس حينئذ أن هناك قوة أقوى منه اذلته حتى قبل

جز ناصيته صاغرا ، ولكن هذه علامة وقتية ، فبعد حين سينمو شعره ويعود كما كان قبل جزه ، أما الكى على الأنف بالذات فهو اذلال دائم مدى حياة المكوى ، لا يستطيع ازالته .

وموضع الطرافة والسخرية فى الصورة أن نتصور هذا السيد الذى كان يبغى ويعتدى ويطغى بماله وبعصبيته المتمثلة فى قوة بنيه فلا يقف أمامه أحد ، ولا يستطيع أحد أن يرده عن بغيه ويطشه ، فنتصوره ذليلا مستكينا يستسلم لمن يكويه على أنفه ، ثم يمشى بين الناس حاملا هذا الذل وهذا التشويه ، فكل من يراه لا يرى فيه سييدا ولا قويا ولا باغيا ، وانما يستوقفه التأمل فى هذا المنظر الغريب لأنفه المشوه الذى يبعث منظره على الاشمئزاز .

هذا فضلا عن أن الكى على الأنف قد يكون مألوفا عندهم فى الحيوان كالابل ، أما الانسان فقد يكوى على أى شىء فى جسمه الا الأنف ، ومعنى هذا أن يصبح هذا السيد المكوى على أنفه وكأنه حيوان اعجم بين الناس ، ورغم شذوذ هذا المنظر فان غرابته تكون أشد حينما يكون فى زعيم ظاهر السيادة فى المجتمع ، ولو أنه كان فى شخص عادى لكان أمره فى الشذوذ والغرابة أيسر .

وقد يقال حينئذ : فهل هذا الكى عقاب لهذا المشرك ؟ والجواب أن هذا ليس مقصودا به العقاب البدنى اطلاقا ، وانما المقصود به الاذلال والاهانة لأن جرمة فى العقيدة وفى السلوك لا يكافئه أى عقاب بدنى الا بشاعة العقاب داخل جهنم ، أما الكى لذاته فليس عقابا ، بل هو مرتبط فى أذهانهم بأمرين كلاهما لذاته حسن ، أحدهما أن الكى نوع من علاج الأمراض ، والآخر أنه علامة تميز سوائم الشخص أو القبيلة عن سوائم غيرها ، فلا يرتبط الكى فى أذهانهم بالعقاب ، وانما يتركز أثر هذه الصورة الساخرة فى كون الكى على الأنف بالذات ، وهو أبرز موضع فى وجه الانسان فضلا عن دلالاته العرفية على العزة .

ولو أن كافرا أو مجرما علم أن كل عقاب سيكون الكى على أنفه يوم القيامة لهان لديه العقاب واستخف به ، واذن فليس المقصود به العقاب ، وانما الاذلال والاهانة .

ومن الألفاظ ذات الايحاء الخاص فى الصورة :

١ - لفظ (ولا تطع) من جملة (ولا تطع كل حلاف . . الخ) فهذا اللفظ جاء فى مقدمة الحديث عن هذا الشخص الذى صببت عليه السخرية لبيان الهدف من الحديث عن هذا السيد ، وهو التحذير من خطورة مساوئه ،

سواء فى عقيدته وفى سلوكه ، ومضمون هذا أن الشخص نفسه ليس هدفاً ،
وليست له لذاته أهمية ، وإنما الأهمية فى أنه عقبة فى سبيل الإسلام ،
وإن هناك من يطيعونه ويتأثرون به ، فالقرآن يجعل هذا الهدف واجهة
ومقدمة للحديث كله محذراً من طاعته والاقتراء به .

٢ - (أن كان ذا مال وبنين) من جملة (أن كان ذا مال وبنين إذا
تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) فلفظ (أن) بفتح الهمزة فيه معنى
السببية ، أى أنه بسبب المال والجاه المتمثل فى البنين يطغى فيكذب بآيات
وينفر الناس من الايمان بها زاعماً أنها أخبار وقصص سطرها الأقدمون
وتناقلها الناس فجاء بها محمد عن هذه الطريق ، فهى ليست وحياً ولا كلاماً
من الله فى زعمه .

وقرىء (أن كان ذا مال ٠٠٠) بهمزتين مفتوحتين ، أولاهما
للاستفهام ، والثانية أيضاً بمعنى السببية ، أى هل بسبب ماله وجاهه
يطغى ويصد الناس عن سبيل الله وكلامه ؟ وهو استفهام تقريرى ، أى
أن هذا هو الحاصل فعلاً من هذا الزعيم .

٣ - لفظ (على) فى جملة (سنسمه على الخرطوم) أى سنجعل له
سمة وهى العلامة على أنفه ، وقد كان يمكن أن يكون التعبير سنسمه فى
الخرطوم ، فتكون كل الدلالة الموضوعية أن الكى سيكون فى الأنف ، ولكن
لفظ (على) بما يفيد من معنى العلو يجعل للعلامة فى موضعها وضعاً
خاصاً أى أنها ستكون فى أبرز وأظهر موضع من هذا الشخص ، فإن الشئ
كلما كان أعلى كان أوضح للعيان ، وما يفيد لفظ (على) من العلو
والارتفاع يدعم المعنى فى زيادة التشهير بتشويه هذا الشخص وإبراز
موضع السخرية منه لكل ناظر .

٤ - لفظ (الخرطوم) من جملة (سنسمه على الخرطوم) يتضمن
دقة فى التعبير من جهتين :

(١) أن الكى على الأنف بالذات هو غاية الاندلال ، لأن الأنف عند العرب
رمز العزة ، ومن الكنايات المعروفة عندهم حينما يصفون قوما بالعزة
قولهم (شم الأنوف) وكذلك حينما يعبرون عن اندلال شخص يقولون
(رغم أنفه) فعزة الأنف رمز لعزة الشخص ، وكذلك هو أن الأنف رمز
لهوان صاحبه ، واندلال هذا الزعيم بكىه على أنفه هو قمة الاهانة والاندلال
له ، وهذا هو أبرز أهداف السخرية من هذا السيد أن يكون هذا التصوير
تنفيراً من أتباعه والانقياد له ، لأن انقيادهم له نابع من اعجابهم بقوته
وعزته .

(ب) من الواضح أن المراد بالخرطوم الأنف ، ولكن لماذا عدل عن لفظ الأنف الى لفظ الخرطوم ؟ والجواب أن اللفظين وان كانت دلالتهما فى اللغة واحدة ، الا أن العرف يجعل دلالة الخرطوم تتجه فى الذهن الى النيل ، وفى هذا ايعاء بضخامة هذا السيد الذى تصب عليه سخرية القران ، ولا يلزم أن تكون الضخامة حسية ، بل قد تكون معنوية ، بمعنى أنكم اذا كنتم تصورون هذا السيد شيئاً كبيراً ، وذا منزلة ضخمة فيكم ، فاذ يثرونكم هذا ، لأن الله سيرغم أنفه ، ويجعله ذليلاً مهيناً ، ويجعل هذا الهوان ظاهراً واضحاً للجميع .

وحيث يبرز الهدف من تصوير القران ، حيث يتمثل السامعون هذه الصورة البالغة السخرية والامانة لهذا الزعيم وأمثاله ، فبديل أن تمتلىء النفوس اعجاباً بهم ، أو تهيباً اياهم ، اذا هى تمتلىء سخرية منهم ، ونفوراً من صورتهم المزرية ، ولا شك أنه سيحدث تحول كبير فى نفسية العامة والأتباع نحو هؤلاء السادة ، سواء أعلن الأتباع انفضاضهم عن التبعية ، أو أداروا هذا فى نفوسهم ، أو أجلوه الى حين ، وكل هذا كسب للدين وللدعاة اليه .

(٢)

وهذه أيضا صورة سيد من الذين يملكون جاها ونفوذا يستطيعون به أن يأمرؤا فى المجتمع فيطاعون ، وأن ينهؤا فلا يرد أحد من العامة والأتباع نهيبهم مهما يكن واضح الخطأ ، ولكن الله سبحانه يرد هؤلاء الأتباع الى الادراك الصحيح لقيمة هؤلاء السادة بالقياس الى الله ، ولكن القران يصوغ هذه الصورة فى أسلوب السخرية ممن يمثل هؤلاء السادة وذلك فى قوله تعالى :

[كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة

خاطئة ، فليدع ناديه ، سفدع الزبانية ٠٠٠] (٦)

اللغة :

(لنسفعا) : السفع هو القبض على الشئ وجذبه بشدة وعنف .
والناصية : هى أعلى الرأس ، والمراد شعر الرأس ، وكان من عادة العرب اطلاق شعر رءوسهم ، وكان من عادتهم أيضا أنهم اذا أسروا شخصا وأرادوا أن يمنوا عليه باطلاقه من الأسر جذوا ناصيته اذلالا له واعلانا

الناس عن المن عليه ، ومضمون ذلك أن الناصية عندهم رمز للعزة ، وان
المساس بها مظهر اذلال ، وهذا هو هدف الصورة فى القرآن .

(الزبانية) فى عرف العرب رجال الشرطة ، ومفردة زبانية بكسر
الزاي وهو الشرطى ، والزبن بفتح الزاي المشددة الدفع ، ويرى بعض
اللغويين أن مفرده زبنى بالنسب الى الزبن ، وأن أصله زبانى وجمعه
زبانية ، والزبانية فى الدين هم الملائكة الموكلون بالعذاب .

السياق :

وهذه الصورة الساخرة التى نحن معها هى جزء من سياق لا تتضح
الصورة كاملة الا بتصويره معها .

وهذا السياق يتلخص فى أن هذا السيد المزهو بقوته وسلطانه
الاجتماعى ، يستخدم هذا السلطان فى الصد عن سبيل الله ، ومحاوله
اذلال عباد الله المؤمنين ، متناسيا أن هؤلاء العباد لهم سيد يحميهم هو
الله ، وأن قوة الله أقوى من قوته ، فهذا السيد الطاغية لم يكتف ببسط
سلطانه على أتباعه وعلى العامة من الناس ، وانما يحاول أن يبسط سلطانه
وبغية أيضا على الذين استجاروا بالله ودخلوا فى حماه ، وهم المؤمنون ،
وفى هذا بغى وخروج حتى على عرفهم الاجتماعى ، فان من أعرافهم أن من
يدخل فى حمى شخص أو قبيلة يصبح محميا بالقوة التى دخل فى حماها ،
ولا يجوز لقوة أخرى أن تمسه بسوء .

والسياق مع الصورة فى هذه الآيات الكريمة :

[٠٠٠ أرايت الذى ينهى عبدا اذا صلى ، أرايت ان
كان على الهدى ، أو امر بالتقوى ، أرايت ان كذب
وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته
لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع
ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا قطع ٠٠] (٧)

والاستفهام الذى بدئت به الصورة والمتمثل فى همزة الاستفهام
من (أرايت) ؟ فيه تنبيه واثارة للعقول وكأنها دعوة الى تأمل هذه القضية
أو الحكم فيها ، ومع أنه من البدهاهة بمكان أن الله أكبر وأجل من أن
يوازن به أو بقوته أو ينافسه شيء أو أحد على الاطلاق الا أن من اعجاز
القرآن ودعوته الى الله بالحكمة البالغة أنه يتنزل فى أسلوبه حتى يصبح
فى ظاهره وكأنه فى مستوى العامة ، وفى الوقت نفسه يحتفظ بعمقه وجوهره

لكل متأمل بعقله مهما يبلغ مستوى هذا العقل ، فالصورة الواحدة فى القرآن أحيانا تخاطب كل مستويات العقول على اختلافها ، فكل ينظر اليها من الزاوية التى تناسبه فيجد فيها ما يغنيه أن اراد نشدان الحق ، ومن ذلك هذه الصورة التى نحن معها ، فان جوهرها حافل بإبراز جلال الحق سبحانه كما ينبغى أن يفهمه نور الألباب ، ولكن أسلوب القرآن يصوغها فى ظاهر كأنه مزاولة لتقاليد المجتمع ، وذلك أن العامة من الناس هم الهدف الأسمى للأديان دائما ، لأنهم الأكثرية ، وهم المجردون عادة من الفوازع التى تثقلهم عن الاتصاه الى الدين .

والعامة يرون بعض السادة وقد بلغ من القوة والبطش والنفوذ ما لا ينصرون قوة أخرى تستطيع أن تواجهه أو تنافسه ، وهذا السيد نفسه يجدونه يتحدى فلا يستطيع قوة أخرى أن تبرز أمام تحديه ، وكأنه بالقياس الى العامة هو كل القوة ، وليست سواه قوة ، فحين يدعون الى الدين لا يستطيعون أن يجردوا نفوسهم وعقولهم من سلطان هذا السيد الطاغية ليفكروا فى الدين ، وليست أمامهم قوة ظاهرة يركنون اليها فى حمى هذا الدين ، خصوصا وأن الدعاة الى الدين ليسوا من ذوى البطش أو القوة الاجتماعية التى تواجه طغيان هذا السيد .

ومن هنا تبرز الصورة الساخرة ، فان أسلوب القرآن يصور لهؤلاء العامة قوة الله سبحانه فى صورة حسية تواجه قوة هذا الطاغية .

ففى ظاهر الصورة نجد الله سبحانه وكأنه سيد قوى وله عبيد كما لهذا السيد الطاغية وغيره عبيد ، والمفروض أن الله يحمى عبيده ومن فى حماه ، كما يحمى كل السادة عبيدهم ، وعبيد الله فى الصورة هم المؤمنون الذين يخضعون له ويتقربون اليه بالصلاة له ، ومنطوق الصورة أن السيد الطاغية بغى على حقوق الله فذهب الى أحد عبيده وهو يصلى له فنهاه أن يصلى لسيدته ، وكان المفروض فى عرفهم أن يرعى حق الله بوصفه فى الصورة سيدا فلا يتهدى الطاغية على أحد من عبيده ، ولكنه تعدى وحرضه على التمرد على سيده وهو الله ، فنهاه عن أن يصلى له ، وهذا هو منطوق الصورة ، أما مفهومها المقابل لهذا فهو أن الله سبحانه لم يتعد على حمى هذا السيد ولم يتعرض لأحد من عبيده ، ولكن الطاغية هو الذى تعرض لحمى الله بتحريض عبيده على عدم طاعته وعدم العبودية له ، وذلك فى تعبير (أرايت الذى ينهى عبدا إذا صلى) ؟

وتواصل سخرية القرآن التنزل بالتصوير ليكون قريبا من افهام العامة والسذج ، ومن واقع حياتهم ، فتصور كأن منافسة وقعت بين هذا السيد الطاغية ، وبين السيد الاله سبحانه .

والطاغية هو الذى بدأ عرض قوته بعدوانه على حمى الله وعبيده ، فكان من الطبيعى أن يبرز الله قوته لحماية عبيده ، ولإبراز حقيقة قوة كل من السيدين ، لازالة ما قد يخالط نفوس السذج وبعض الصامة من اللبس بين القوتين ، ومن هذا اللبس أنهم يظنون أنه لا توجد قوة اطلاقا تنافس قوة سيدهم هذا الطاغية ، كما يصور لهم سيدهم ، وكما يؤيده الواقع ، ومن هذا اللبس أيضا أنهم يعتقدون أن أتباع الله وعبيده هم الذين يؤمنون بقوة سيدهم ، أما أتباع السادة الآخرين فلا يؤمنون بها بل ولا يعترفون بوجودها أصلا .

ولكن أسلوب القرآن من منطلق هذا اللبس نفسه يبرز لهم قوة الله فى منطق الحوار العقلى ، وكأنه يقول لهم ان قوة الله ليست فى اعتقاد عبيده وأتباعه فحسب ، بل ان سيدهم الطاغية نفسه لو كان صحيح الإدراك ، سواء أكان مؤمنا أم كان كافرا لكان يجب أن يعلم أنه لا وجه للموازنة أو المنافسة بينه وبين الله فى القوة ، وأنه يكفى أن يعلم بأن الله يرى كل ما يدور فى الكون ظاهرا أو خفيا ، فيكفى أن يراه وهو يتعدى على حماه ويتعرض لأحد عبادته فينهاه عن الصلاة ، فالمغاضب لله لو كان عاقلا فان مجرد شعوره بأن الله يراه وهو يغاضبه هو أقسى وأشد نفسيا عنده من الوعيد بأى عقاب ، وهذا من جوهر الايمان فى عمقه وصدقته ، ونقول (لو كان عاقلا) بمعنى أن الاحساس بالله لا يحتاج الى ايمان تقليدى أو تعليمى ، وانما هو فطرة فى طبيعة الانسان ، كقوله تعالى :

[فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر
الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين
القيم ٠٠٠] (٨)

ومن هذا القبيل كان التعبير فى الصورة :

[أرايت ان كان على الهدى ، او أمر بالتقوى ،
أرايت ان كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى]

بمعنى أن من يتعدى على حمى الله وعباده كما فعل هذا الطاغية فسواء أكان مؤمنا أم مكذبا بالدين فقد كان يجب أن يشعر ويوقن (بأن الله يرى) فيزجره هذا الشعور عن العدوان على حمى الله ، وتعبير (ألم يعلم) بأن الله يرى (يمثل قمة التعبير عن قوة الله ، فان سياق التصوير الرمزي فى الصورة كان يقتضى أن يكون التعبير نحو ألم يعلم بأن الله أقوى منه ؟

ولكن الصياغة اللفظية تركت الحديث عن قوة الله لأنها أكبر وأجل من أن يتحدث عنها في سياق المنافسة مع أية قوة أخرى ، وإنما يكفى الشعور بالرؤية من الله دون التهديد بالقوة أو الحديث عنها ، كما يحدث في التعبير المادى حين يهددون شخصا بقوة شخص قوى ، فلا يقولون له ألا تخاف من غضب فلان ، أو من عقاب فلان ، وإنما يقولون له ألا تخاف أن يراك فلان ؟ ومن المفهوم أن الخوف في الحقيقة ليس من الرؤية ذاتها ، وإنما مما يترتب عليها ، ولكن الطرافة أن يجعل الأسلوب الرؤية ذاتها هي مصدر التخويف ، فكان الأسلوب (ألم يعلم بأن الله يرى) ؟ والاستفهام في التعبير للتوبيخ على جهله بهذه الحقيقة .

فالسباق في مجموعه يكاد ينحصر في أمرين : أحدهما إبراز الموضوع من خلال واقعهم الاجتماعى عن العبيد والسادة وعادات الجوار والحماية ، وهذا معنى (ينهى عبدا إذا صلى) ، والآخر الحوار العقلى المنصب على أنه ينبغى أن يتساوى المؤمن وغير المؤمن فى ادراك حقيقة الله وصفاته بالحس والشعور الفطرى وهذا معنى (رأيت ان كان على الهدى ، أو أمر بالقوى ، رأيت ان كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى)

الصورة :

وأما صلب الصورة الساخرة فيتكون من عنصرين يسبقهما تمهيد : والتمهيد متمثل أيضا فى عنصرين رغم الايجاز الشديد فى الألفاظ ، فأما العنصر الأول فكأنه يقال للمخاطب دع كل ما سبق وذلك بلفظ (كلا) أما العنصر الثانى فهو تحذير لهذا الطاغية الجاهل من قوة الله وبطشه ، وذلك بتعبير (لمن لم يثقه) .

وأما صلب الصورة فهو إبراز لقوة الله وبطشه ، ولكن بأسلوب يقرب ذلك من واقع حياة المخاطبين وعقولهم ، فيوازن بين قوة الله سبحانه وقوة هذا السيد الطاغية ، وإذا هذا الطاغية مسلوب الارادة والقوة والمقاومة أمام قوة الله ، وإذا قوة الله تقبض على ناصية هذا الطاغية ، ثم تجذبه فى شدة وعنف ، دون أية مقاومة من الطاغية لأنه حينئذ مسلوب القوة والارادة ، بل كأنه هو ذاته منعدم لا وجود له ، ولذلك فان قوة الله لا تتعامل معه ولا تشير الى وجوده ، وإنما تتعامل مع ناصيته فحسب ، وكأنه لم يبق منه حينئذ الا ناصيته .

وكان قوة الله تريد حينئذ أن تبين سبب قبضها على ناصية هذا الطاغية وجذبه بهذا العنف ، فكان المنتظر أن تبين مساوىء صاحب الناصية ، ولكن كل الحديث ينصب على الناصية وحدها دون اشارة الى صاحبها ، فيقال (ناصية كاذبة خاطئة) وكان المنتظر أن يقال ناصية كاذب

خاطيء ، ولكن صاحب الناصية وهو الطاغية تجوهر وكأنه لا وجود له زيادة في الاستخفاف به وبقوته في هذا الموقف الذي يحتاج كل انسان فيه الى الدفاع عن كرامته وعزته بكل ما يملك ، ولكنه يجد من يقبض على ناصيته ويجذبه بعنف فلا يستطيع أن يحرك ساكنا ، بل وكأنه غير موجود ، وذلك في تعبير (كلا لئن لم يفتنه لفسفها بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) •

وأما العنصر أو المنظر الثانى فى الصورة فيتمثل فى تصور استعانة الطاغية بأنصاره وشيعته ومن وراءهم •

والقرآن يعرض هذا المنظر فى أطرف تصوير وأقربه من واقع الحياة ، فكان الله سبحانه وهذا الطاغية خصمان يتبارزان بالقوة ، وقد سيطر الله على الطاغية وتمكن من ناصيته متحكما فيها ساليا خصمه كل قوة أو مشاركة ، فيبقى حينئذ احتمال لجوء كل منهما الى أنصاره وشيعته ، وخصوصا المغلوب وهو الطاغية ، لأن الغالب لا يحتاج الى عون فى الصراع ، فيبرز أسلوب القرآن احتمال أن يستغيث الطاغية عندئذ بأنصاره من أعضاء ناديه ، وهو دار الندوة التى كانت تضم سادة قريش ووجوهها ولا يجوز لأحد دون هذا المستوى أن ينضم الى عضويتها ، فالتوقع من هذا الطاغية حينئذ وهو من أبرز أعضاء هذا النادى أن يدعو ناديه لنصرته ، ولا شك أنهم سيسرعون الى محاولة نجدته ونصرته ، وتبلغ طرافة الصورة قمتها حين يدعو الطاغية ناديه لنصرته ، فاذا الله سبحانه يفعل مثل هذا فيدعو جنوده وأهل شرطته لمواجهة القوة التى يستدعيها الطاغية ، وذلك فى التعبير (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) •

ومن البدهى أن الصورة كلها ليست من باب الحقيقة ، وإنما هى تصوير افتراضى لتقريب المعنى الى أفهام العامة ، وهذا من خصائص أسلوب القرآن وأعجازه ، فان بعض العامة قد تبلغ به السذاجة وقسامة الادراك عدم استطاعته فهم شيء يخرج عن نطاق الحس وواقع الحياة ، وقد يعييه أن يفهم حديثا عن غيبيات الدين وعقلياته ، فالقرآن يتنزل اليه فى أسلوبه بمثل هذه الصورة الحسية الواقعية التى يدركها كل مخاطب مهما صغر تفكيره لأنها مشاهد واقعى ظاهر فى الحياة ، ومع ذلك فان أكبر العقول وأسمى الأفهام لا تجد فى مثل هذا الأسلوب تنزلا ، بل تجد فيسه مقدرة فنية فى الصياغة والتصوير تبهر كل ذوق وكل حس جمالى •

وكان المضمون الحقيقى للصورة يقول للمخاطبين على اختلاف مداركهم ، أن قوة الشخص لا تخلو من أحد أمرين : اما أن تكون فى ذاته ، واما أن تكون فى استعانتة بشيعته وأنصاره ، واما أن تكون فيهما معا وهذا أقصى ما يتصور من قوة ، فتعالوا وازنوا بين قوة هذا السيد الطاغية الذى

يبهركم ويخيفكم بقوته ، وافترضوا أنه يملك أقصى صور القوة ، وهى القوة فى شخصه ، والقوة فى أنصاره ، وازنوا بين قوته وقوة الله الذى يدعوكم داعى الدين الى الايمان به ، فانكم ستجدون أن طاغيتكم لا حول له ولا قوة أمام قوة الله ، وسيصبح طاغيتكم مستكيننا ذليلا ، كانسان مقبوض على ناصيته، مجرور بها بعنف ، وهو خانع مستسلم، هذا عن قوته فى شخصه، فإذا فكر فى الاستعانة بأنصاره أو أتباعه فسيكونون أشد منه ضعفا ، فكما أنه واجه قوة أشد وأعتى منه هى قوة الله ، فلم يستطع المقاومة ، فكذلك أنصاره وأتباعه سيواجهون قوة جنود وأتباع الله لا يستطيعون معهم حولاً ولا قوة ، ولعل هذا التصوير اشارة الى قوة المسلمين التى ستمحق فيما بعد قوة طغاة قريش وجموعها ، فان آيات هذه الصورة ضمن سورة العلق ، وهى أول سورة نزلت من القرآن فى مكة ، ولم تكن للمسلمين حينئذ قوة اجتماعية قط ، فيكون هذا نوعاً من الحديث عن غيب المستقبل ، وعن نتيجة الصراع بين الشرك والاسلام فيما يلى من الزمان .

وبالاضافة الى ما تبرزه هذه الصورة الفنية من روعة التصوير الحسى ، وعمق السخرية والتهمك ، فان فيها من الألفاظ ذات الايحاء الزائد عن أداء المعنى الأصلي لها عدداً غير قليل ، ومن هذه الألفاظ :

١ - لفظ (عبدا) من جملة (ينهى عبدا اذا صلى) فان المراد : رأيت الذى ينهى مؤمناً عن الصلاة ، فان هذا المؤمن لم يرتكب عملاً قبيحاً ، ولم يؤذ بصلاته أحد ، فبأى وجه ينهاه هذا الطاغية عن الصلاة ؟ ولكن لفظ (عبدا) يؤدى زيادة عن ذلك اشارة دقيقة ، هى ما سبق الحديث عنه من الأوضاع الاجتماعية بين السادة والعبيد ، فالاشارة تتضمن أن هذا العبد الذى يتعرض له الطاغية له سيد يحميه كما لكل العبيد عندهم سادة يحمونهم ، وسيده هو الله سبحانه ، ولو كان التعبير : رأيت الذى ينهى مؤمناً أو مصلياً اذا صلى لما أدى هذه الاشارة بهذا الوضوح ، وحيث كانت سورة العلق التى تضمنت هذا التعبير أول سورة نزلت من القرآن فان لفظ العبد سيكون اشارة الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، والروايات تؤيد هذا ، وستضيف هذه الاشارة الى الصورة معنى ذا قيمة مؤثرة ، وهى أن الصورة تصور صراعاً ضمناً بين النبي وهذا الطاغية الذى تشير الظروف التاريخية الى أنه أبو جهل ، ونتيجة هذا الصراع أن النبي له قوة هائلة جبارة تحميه ، هى قوة الله وجنوده من المسلمين ، بينما الطاغية حينئذ لا قوة له فى شخصه ، ولا فى أنصاره وأتباعه .

وهذا من قبيل الحرب المعنوية الموجهة الى كل الأطراف فى الصراع تثبيتها لنفوس المؤمنين ، وخذلانا لنفوس أعدائهم .

٢ - لفظ (يرى) من جملة (ألم يعلم بأن الله يرى) وهو وعيد من الله ، وكان الظاهر أن يقال ألم يعلم بأن الله قادر على اهلاكه أو الانتقام

منه ، أو نحو ذلك ، ولكن بالقياس الى الله سبحانه يكفى أن يعلم كل انسان أن الله مطلع على ما يفعل ، فالرؤية من الله لذاتها كأنها تتضمن كل ما يخافه الضائقون ، وكل ما يرجوه الراجون ، وقد سبقت الإشارة الى شيء من هذا ، ويضاف الى ذلك صيغة المضارع فى (يرى) فإنها تدل على الدوام والاستمرار بمعنى أن الله مطلع دائماً وباستمرار على كل شيء ، لأن السياق حديث عن حدث واحد ، هو نهى الطاغية هذا العبد عن الصلاة ، فكان المتوقع أن يكون التعبير مثلاً ألم يعلم الطاغية بأن الله رأى ما فعله ، فيكون علم الله حينئذ منصباً على هذا الحادث وحده ، ولكن لفظ (يرى) مطلق الزمان بمعنى أنه يرى دائماً ، وكذلك حذف المفعول به فى (يرى) فلم يقل يرى ماذا ؟ وحذفه يدل على عموم الرؤية ؟ بمعنى يرى كل شيء .

٢ - لفظ (الناصية) من جملة (نفسها بالناصية) فان تعريفه بالألف واللام ذو احياء خاص ، حيث أن الحديث منصب على ناصية شخص معين ، فكان المنتظر أن تسند الناصية اليه ، فيكون التعبير مثلاً : كلاً لمن لم ينته لنسفاً بناصيته ، ولكن تعبير القرآن (لنسفاً بالناصية) معرفاً بالألف واللام ، والناصية القمة ، وكان الألف واللام تشير الى المعهود أو الاطلاق ، بمعنى لنسفاً بالناصية المعهودة المعروفة فى أذهانكم والتي لا تلبس بناصية أخرى ، وكل الملابس التاريخية تشير الى أنها كانت حينئذ ناصية أبى جهل ، وأما الاطلاق فيكون بمعنى الناصية على اطلاقها أى أنها ناصية القوم وقمتهم ، أى الزعيم المنفرد بزعامه لا تنافسها زعامه أخرى ، وهى أيضاً يومئذ كانت زعامه عمرو بن هشام أبى جهل .

وكل هذا اشارة الى عامة الناس بأن أقوى قوة لن تصمد أمام قوة الله وجنوده ، هذه القوة المتمثلة فى الداعى الى الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله حاميه ، وجاعل من حوله جنوداً هم زبانية الله .

٤ - تعبير (ناصية كاذبة خاطئة) يتضمن فى المعنى اسناد الكذب والخطأ الى الناصية ، ومن الواضح أن الناصية وهى شعر الرأس لا يصدر منها عمل ولا توصف بفعل سيىء أو حسن ، ولكن طرفاة التصوير تجعل الخصومة كأنها بين الله سبحانه وناصية هذا الطاغية وليست بين الله والطاغية ، وأن اللوم والتسفيه والعقاب موجه اليها وليس الى الطاغية ، وقد يقال حينئذ ان ذكر الناصية اشارة الى ما ترتبط به الناصية وهو المخ ، والمخ هو مركز القيادة والعقل فى الانسان ، وقد يقال انه لما وجه العقاب وهو السفع فى ظاهره الى الناصية ، لذلك نسبت الذنوب الى الناصية مبالغة فى تحقيق العدل من حيث أن العقاب لا يوجه الا الى من يصدر منه الجرم ، وقد يقال غير ذلك ، ولكن أجمل ما يحمله الأسلوب وما يقال عنه هو طرفاة التصوير ، من حيث تصوير الناصية كأنها شخص عاقل

مكلف يفاضب الله ويتحداه ، فيحدث بينه وبين الله صراع ينتهى ببطش الله به فى صورة السفع وهو الجذب من الله فى عنف وشدة ، دون مقاومة من الناصية ، هذا بالاضافة الى هدف أصلى فى الصورة وهو الاستخفاف بشخص الطاغية نفسه الى درجة محوه من الخصومة والصراع ، وكأنه غير موجود ، فتصبح الخصومة والصراع كلاهما مع ناصيته وليس معه هو .

٥ - تعبير (كلا لا تطعه) هذا التعبير جاء فى نهاية القصة أو الصورة ، وقد كان المنتظر فى الظاهر أن يكون فى بداية القصة اجابة أو تعقيبا على الآية الأولى وهى (أرايت الذى يفهى عبدا اذا صلى) وقد سبقت الاشارة الى أن كل الملابسات تشير الى أن المقصود بالعبد هو شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الخطاب (لا تطعه) ترجيح لذلك ، بمعنى لا تطعه فى نهيه اياك عن الصلاة ، وبالتالي لا تطعه فى أى شىء يتعلق بالدين ، ومن القواعد المعروفة عن القرآن أنه وان كان الخطاب أو الحديث خاصا بشخص أو موقف الا أن الحكم عام ، فيما يعرف بخصوص السبب ، وعموم الحكم ، أى أنه مهما كان سبب النزول خاصا فان الحكم يكون عاما .

ومؤدى هذا أنه وان كان الخطاب فى (لا تطعه) خاصا بالنبي الا أن حكمه عام يوجه الى الجميع ، وتبقى الملحوظة قائمة ، وهى لماذا آخر التعقيب من أول القصة ليساق فى آخرها ؟ فلماذا لم يكن التعبير أرايت الذى ينهى عبدا اذا صلى كلا لا تطعه ، فأخر التعقيب وهو (كلا لا تطعه) الى آخر القصة ؟

والجواب أن أسلوب القرآن أثر أن يكشف أولا حقيقة قوة هذا الطاغية وأنصاره بجوار قوة الله وجنوده ، ليبين أن قوتهم جميعا لا قيمة لها ، بل لا وجود لها أمام قوة الله وجنوده ، وحينئذ تكون العقول مهيأة لقبول التعقيب عن اقتناع عقلى ، فيأتى التعقيب (كلا لا تطعه) بعد أن تكون العقول مهيأة لتقبله وتنفيذه .

(٣)

وحيث كان السادة والزعماء هم العقبة الكئود أمام الدين ، بما يلقونه فى نفوس الأتباع والعامّة من الخوف والتهيب أحيانا ، ومن الأكبار لهم والاعجاب بهم أحيانا ، فان القرآن يكشف للجميع حقيقة هؤلاء السادة ، ليعلموا أنهم لم يكن لهم أن يخافوا منهم ، ولا أن يعجبوا بهم ، لأن كل ما يرونه منهم من مظاهر العظمة المصطنعة إنما هو تكلف يغطون به حقيقتهم

غير السوية ، ويغطون به ما لو اطلع عليه الناس لنفروا منهم بدل أن يخافوا أو يعجبوا ، ولو كان هؤلاء السادة يحملون طبائع سوية لما وقفوا في وجه الدعوة الى الخير ، وهي دعوة الدين ، ولذلك فان ذوى الطبائع السوية منهم - وان كانوا قلة - لا يترددون في الاستجابة لدعوة الدين ، كما حدث في كل العصور ، من أمثال مؤمن آل فرعون ، ومن أمثال خطيب أنطاكية التي جاءها المرسلون كما في سورة يس .

وفي هذه الصورة يكشف القرآن حقيقة مظهر من المظاهر التي يشيع بين السادة التكلف في الظهور به بين الناس ، وهو اصطناع العظمة والتعالى على الناس بشموخ الأنف واعوجاج العنق ، في قوله تعالى :

[وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ۖ] (٩)

اللفظة :

الصعر (بفتح الصاد والعين) أبرز مدلولاته عند العرب أنه مرض يصيب الأبل فيلوى أعناقها ، فيصبح الجمل المريض بالصعر معوج العنق ، يمشى وصدرة الى أمام ، بينما عنقه مائل الى جهة أخرى .

السياق :

هذه الصورة الساخرة جاءت في سياق تحذير لقمان وهو يحذر ابنه من هذا المظهر ومن مظاهر أخرى سيئة .

وهذا المظهر مرتبط بالكبرياء والغرور ، والكبرياء لا يصدر عادة إلا ممن له منزلة في المجتمع ، بحيث يكون سيذا أو وجيها ذا نفوذ ، ولذلك جاء هذا الوصف على لسان لقمان في سياق يوحى بأن صاحب هذا السياق لابد أن يكون له شأن في المجتمع ، وهذا الشأن قد يدعو الى الكبرياء والخيلاء ، فهو يحذره من أن يقع في المسلك القبيح ، وهذا السياق هو :

[يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ،

وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ۖ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ]

فلقمان يوصي ابنه ، وهو بطبيعة الحال يتوقع أن ينفذ ابنه وصيته ، فإذا نفذها فلا بد أن يكون عظيما في الدين والدنيا ، وذلك أن تعبير (أقم

الصلاة) زائدة فى المعنى عن (صل) فلفظ (صل) أمر بالصلاة فقط ، ولكن (أقم الصلاة) أمر ضمنى بشيئين ، بالصلاة ، وبأن تكون الصلاة قويمه لا خلال ولا اعوجاج فيها ، ومن يصلى بهذه الصورة فهو عميق الايمان ، ينتظر له شأن فى الايمان والدين ، ثم يؤثر هذا فى سلوكه وخلقه بين الناس من باب :

[ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] (١٠)

• فيصبح محبوبا مرموقا بين الناس .

ثم اذا نفذ وصية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا بد أن يكون له شأن فى مجتمعه ، حيث يفتقدونه كلما هموا أو احتاجوا الى عمل خير ، لأنهم يعلمون عنه أمره بالمعروف ، وكذلك يتهيبون منه حينما يهمون بمنكر ، لأنهم يعلمون عنه نهيه عن المنكر ففى كل حال من الخير والشر يكون هذا الشخص ماثلا فى أذهانهم بأهميته وتأثيره ، وهذه من قمم المنازل فى المجتمع .

ثم اذا نفذ وصية الصبر (واصبر على ما أصابك) لابد أن يكون قويا ، لأن الصبر انما هو قوة احتمال وقوة مقاومة ، وبمقدار نصيب المرء منهما يكون نصيبه من القوة ، واذن فاذنى يتمكن من صفة الصبر لابد أن يكون قويا .

وخالصة هذا كله أن ابن لقمان لو نفذ الوصايا السابقة فلا بد أن يكون ذا منزلة بين الناس فى مجتمعه ، سواء فى خلقه ، وفى سلوكه الاجتماعى ، وهذه المنزلة قد يتغلغل تأثيرها فى نفس صاحبها ، خصوصا حينما يرى الناس يزدادون تقديرا له واعجابا به ، أو تهيبا اياه ، فقد يسرى فى نفسه الغرور ، وتنمو فيها الخيلاء حتى تسيطر على صاحبها ، فيزهو على الناس ، ويختال عليهم تكبرا وغرورا ، فلقمان يحذره من هذه النتيجة بقوله (ولا تصغر نفسك للناس) فعليه أن يبتعد عن هذه السبيل التى توصله الى هذه النتيجة ، وهذه السبيل هى الخيلاء التى تنبع من اغترار الانسان بمنزلته وشخصه بين الناس ، فيعطى لنفسه تدرا فوق قدرها الذى تستحقه ، وهذا المعنى هو مضمون قوله تعالى على لسان لقمان :

[ولا تمش فى الأرض مرحا]

• (١٠) ٤٥ سورة العنكبوت .

فان المراد بالمرح هنا الخيلاء والزهو ، لأن هذه الصفة انما تتبع من مبالغة المرء فى الفرح بنفسه وبمزاياءه ، ولذلك كان التعميق على ذلك :

[ولا تمش فى الأرض مرها أن الله لا يحب كل

مختال قهور]

ومن هذا يتبين أن لقمان يحذر ابنه من الكبرياء والخيلاء ، ويترتب على هذا أن تصغير الخد الذى يحذره منه هو مظهر للخيلاء وكناية عنها .
ومن الواضح أن كل ما يسوقه القرآن من أخبار الأولين خيرها وشرها انما يسوقه ليعتبر به المحاصرون ، فالقرآن يسوق وصية لقمان لابنه مساق الرضا عنها ، والدعوة الضمنية للناسى بها على أساس أنها نموذج يحتذى .

الصورة :

[ولا تصعر خدك للناس ٠٠٠]

من الدلالة اللغوية ، ومن مشاهد البيئة المألوفة ينسج أسلوب القرآن هذه الصورة ، فالعرب أعرف الشعوب بالابل وبأمراضها وأدويتها الشعبية ، ومنها هذا المرض العضرى الذى يصيب عنق البعير ، فيفقد العنق استقامته ، ويصبح معوجا منحرفا ، وبالتالي تفقد الرأس استقامة الاتجاه ، فيمشى الجمل المريض بهذا المرض ، وجسمه وصدرة فى اتجاه ، بينما عنقه فى اتجاه آخر منحرف عن اتجاه جسمه وصدرة .

وأسلوب القرآن ينقل هذا المنظر المألوف لهم فيصور به الشخص المتكبر الذى يختال على الناس فى تعال وغرور ، وذلك أنه من المألوف أن الشخص المختال يصطنع فى مشيته بين الناس مظهرا متكلفا ، يحاول فيه الشموخ بأنفه والصدود بوجهه عن الناس ، ويكون ذلك بصورة ظاهرة يلحظها كل من يراه ، حتى ان العامة يتخذون من هذا المظهر كناية عن التعالى والخيلاء ولهم فى ذلك تعبيرات عامية نحو (فلان عاوج رقبته) وهو ذات الصورة الساخرة التى يصورها القرآن حيث يرسم الشخص المختال فى صورة الجمل المريض بهذا المرض الذى يجعل عنقه معوجا ومنحرفا عن اتجاهه القويم ، والذى يعرف عندهم بمرض الصعر ، فاشتق منه (ولا تصعر خدك للناس) .

والتشبيه واضح التطابق والتماثل بين المشبه وهو المختال بهيئته هذه ، والمشبه به وهو الجمل المريض بالصعر ، فكلاهما يتخذ مظهرا شاذا غير سوى ، يتمثل فى النهاية فى اتخاذ الرأس وضعا نابيا عن الوضع

العادى ، ولهذا فهو وضع مثير للتندر والسخرية ، لأن الجمل المريض بالصعر شاذ فى شكله عن سائر الابل ، ومصدر الاهتمام بهذا الشذوذ أنه يتمثل فى أهم عضو وهو الرأس ، فلو كان عرجا فى الرجل ، أو عورا فى العين أو نحو ذلك لم يكن بالغ الغرابة ، ولكن الطرافة تتركز فى هذا التناقض ، أن يكون الجسم متجها الى جهة ، والرأس بما يحملها من العنق متجهة الى جهة أخرى .

والطرافة دائما انما تنبع من مفاجأة السامع أو المشاهد بعكس ما كان يتوقع ، أو بشيء غريب فى تصوره ، فأنت مثلا حينما تصف فرسا ، فكل ما تسوقه من أوصاف الخيل المألوفة مهما بالغت فيها فالسامع قد لا يجد فيها غرابة ، ولكن الغرابة أن تفاجئه بمثل قولك ثم أسر الفرس الى فى أننى بكذا وكذا ، أو ثم وقف الفرس فألقى خطبة ، فبصرف النظر عن الحكم الخلقى على هذا القول إلا أن الطرافة فيه تتركز فى مفاجأة السامع بفجوة تصطدم بتوقعه وتسلسل تفكيره ، وتفكيره حينئذ يتابع أوصاف خيل ، فإذا هو يصطدم فجأة بأوصاف بشر .

وشكل الابل مطبوع فى خيال السامع على أنها مستقيمة الخلق فى اتجاه واحد حين تمشى ، فحين يفاجأ برؤية جمل بعضه فى اتجاه ، وبعضه فى اتجاه آخر ، حينئذ تكون الغرابة والطرافة التى تدفعه الى التندر والتفكه أحيانا ، والى الضحك أحيانا أخرى .

وكذلك حال المتكبر المختال ، فانه من البدهى أن صورة الآدمى القويم ماثلة فى الذهن ، فحين يفاجأ بشخص يتخذ من مظهره وضعا مخالفا للصورة الماثلة فى ذهنه فانه سيشعر بما يشعر به حين يرى جملا مريضا باعوجاج العنق .

وحى الألفاظ :

ومما توحىه ألفاظ هذه الصورة الساخرة على ايجازها من دقة زائدة على المعنى العام ما يلى :

١ - لفظ (تصعر) وهو بضم التاء وكسر العين المشددة ، وقد سبق ترضيح أن المراد به تشبيهه مظهر المختال فى هذه الصورة بجمل مريض بالصعر ، ولكن دقة لفظ (تصعر) تأتي من اسناد الفعل بهذه الصيغة الى المختال ، فالعيب يتركز فى أن الشخص هو الذى يصطنع هذا المظهر اصطناعا ، بمعنى أننا لو افترضنا أن شخصا كان تكوينه الجسمى بطبيعته بهذا الشكل دون أن يكون له دخل فى لصطناع هذه الهيئة فلا عيب فيه

ولا مسئولية عليه ، فلو قيل مثلا احذر أن يكون مظهرك بين الناس كالصعر ، أو تجنب هيئة الصعر ، أو نحو ذلك فإن مثل هذا لا يحمل المرء مسئولية مظهره بالصورة التي يحملها اياه تعبير (تصعر) لأن لفظ (تصعر) يعنى أن الفعل وهو التصعير صادر من الشخص نفسه ، بل صادر منه بقوة كما يفيد ذلك تضعيف العين المشددة ، ولو قيل لا تصعر بضم التاء وكسر العين بدون تشديد لافتادة صدور الفعل من الشخص ولكن بغير قوة أو اصرار كما يفيد التضعيف فى صيغة القرآن .

ومؤدى هذا أن العيب ليس فى الهيئة نفسها ، ولكن فى تكلفها واصطناعها .

وهذه الدقة فى التعبير لها أهمية كبيرة فى المجال النفسى ، فإن التكلف الذى يفيد لفظ (تصعر) يدخل صاحبه فى مجال الأمراض النفسية ، فإنه من المعروف فى البحوث النفسية أن التكلف فى الظهور بأى شىء دليل على الشعور بالنقص فى هذا الشىء ، وبمقدار الحرص على التكلف فيه يكون الشعور بالنقص ، فالذى يتباهى دائما بالمشجاعة فى صورة التكلف إنما يدل على شعوره بنقص فيها ، والذى يتمدح دائما بالأمانة متكلفا فى حديثه عنها إنما يدل على شعوره بفقدان الأمانة فى نفسه ، وهكذا ، ولو كان يشعر بالثقة فى نفسه فى صفة ما كان فى حاجة الى المبالغة فى اثباتها لنفسه ، لأن نفسه مليئة بالشعور بها فليست فى حاجة لأن تعلن عنها بتكلف ، بل غالبا ما يحاول الشخص الواثق من نفسه فى صفة أن يحاول التقليل من قيمتها أو من نصيبه منها .

وإذن فاصطناع هذا المظهر الذى يشبه الجمل المريض بالصعر لا يدل على عظمة أو قوة أو سيادة ، بل على العكس من ذلك ، إنما يدل على شعور مؤكد بالنقص فى شىء يتعلق بما يحاول المبالغة فى اثباته لنفسه ، فإذا كان بهذا يريد أن يثبت للناس القوة أو العلو عنهم فلا بد أنه يشعر فى دخيلة نفسه بعكس هذا فى جانب من الجوانب . ومن روائع القرآن وقوف البحوث العلمية دائما عنده ، فالقرآن يصف هذا المظهر بأنه مريض ، والبحوث العلمية النفسية تؤكد أنه فعلا مريض ، غاية الأمر أن القرآن يبرزه فى صورة مريض عضوى وعلم النفس فى صورة مريض نفسى .

٢ - لفظ (خذك) رغم أنه يبرز الصورة الواقعية المشاهدة فى حالة الاختيال والصدود عن الناس بالوجه الا أن الفاظا أخرى كان يمكن

أن تؤدي معنى الصعر ، فقد كان يمكن أن يكون التعبير مثلا ولا تصعر
وجهك أو رأسك أو عنقك ، فكل هذا يؤدي معنى الصعر ، ولكن اختيار
الخد بالذات بالإضافة الى ابرازه الصورة الواقعية للصعر ، وبالإضافة
أيضا الى أن الخد من أهم أعضاء الوجه في تحديد شكل الوجه ومدى
نصيبه من الحسن والاستقامة فانه فوق ذلك يوحى بمعنى دقيق يمكن
أن يلحظ بوضوح اذا نظر اليه من زاوية السخرية ، وهو أن السياق في
الصورة سياق تنفير من هذا السلوك وتقبيح آياه ، وهذا التقبيح وان
كان في الواقع منصبا على الشخص الا أن الأسلوب يجعله منصبا على
الخد بالذات (ولا تصعر خدك) وحينما يذكر الخد في سياق تقبيح
أو لوم أو عقاب فأول ما يتبادر الى الذهن ارتباط الخد بالصنع عليه .
وأسلوب التصوير في القرآن يجعل قبح الصعر كله منصبا على
الخد ، فلن يكون غريبا أن يسرع الى ذهن السامع أن هذا الخد يستحق
الصنع ، وهذا الإيحاء وان كان زائدا عن أصل المعنى الا أنه حينما
يصل الى ذهن السامع يسهم اسهاما كبيرا في تحقيق الهدف من الصورة
كلها ، حيث ان الهدف هو حشد كل عوامل التنفير والتقبيح لهذا الخد
المصعر .

٣ - لفظ (للناس) من جملة الصورة وهي (ولا تصعر خدك للناس)
يتركز فيه الهدف من الصورة كلها ، وذلك أن هذا المظهر الذي ينفر منه
القرآن له وجهان في العيب ، أحدهما من حيث انه نقيضه في الخلق
السوى لصاحبه ، والآخر أن صاحب هذا المظهر يستخدمه في إيذاء
كرامة الناس ومشاعرهم ، وبالقياص الى الدين فان هذا المظهر من
وسائل الصد عن سبيل الله ، وفتنة الناس بالتأثير النفسي عليهم في
محاولة اخضاعهم وجرهم بعيدا عن الدين ، بما يلقي في نفوسهم من
مشاعر الاعجاب أو الارهاب .

ولو أننا تصورنا شخصا بلغ به الاعجاب بنفسه أو الزهو بها
ما بلغ ، واتخذ من المظاهر نتيجة لذلك ما اتخذ ، ولكنه يفعل ذلك في
عزلة عن الناس ، ولا يظهرهم على شيء منه ، فان ذلك رغم قبحه الا أنه
لا يدخل في نطاق ما تهدف اليه الصورة الساخرة في القرآن ، فان الصورة
منصبة على اتخاذ هذا المظهر وسيلة للتعالي على الناس ، والتحذير فيها
منصب على هذا المعنى ، ولفظ (للناس) من جملة (ولا تصعر خدك للناس)
هو الذي يفيد هذا المعنى ، ولو أنه قيل ولا تصعر خدك بدون ذكر لفظ
الناس لما أفاد هذا المعنى ، وانما يصبح من باب النهي عن الغرور والتكبر
النفسي ، وهذا يدل عليه المعنى التالي في الآية ، وهو :

[ولا تمش في الأرض مرحا]

الأثر :

ومثل هذا التصوير فى القرآن له أهمية كبيرة فى الاسهام فى ازالة
المشقيات أمام الاسلام نُشره ، فانه من المعروف أن السادة ، والرؤساء
كانوا المقبة الكبرى أمام نشر الاسلام ، ولذلك ظل الاسلام فى مكة محاصرا
بسياج هؤلاء الزعماء ، فلم يستطع أن يتحرك وأن ينتشر الا حينما انفلت
من تبهضتهم وانتقل الى المدينة حيث لم يكن هناك للسادة من صرامة التحكم
الاجتماعى ما كان لزعماء مكة وسادتها .

وهذه الصورة الساخرة تسهم فى كشف القناع عن حقيقة كثير من
هؤلاء السادة الذين يلقون فى نفوس العامة ألوانا متمزج فيها الهيبة
بالاعجاب والرهبنة ، وتكون الحصيلة الانقياد لهم اما اعجابا بهم ، أو تهيبا
وخوفا منهم .

ولكن سخرية القرآن تكشف للعامة أن ما يروونه من مظاهر كثير
من السادة انما هو مرض يشبه ما يروونه من بعض امراض الابل .

والقرآن كان سريع الانتشار حتى من باب طبيعة العرب فى تناقل
الكلام البليغ لذاته ، فصورة كهذه ستتناقلها كل الاسماع ، وبدل أن كانوا
ينظرون الى أصحاب هذا المظهر نظرة تهييب أو اعجاب سينظرون اليهم
نظرة سخرية ولو فيما بينهم وبين أنفسهم ، فتكون هذه بداية ازالة الغشاوة
التي تحجب عنهم الايمان .

سخرية القرآن وأعداء النبي

وأعنى بأعداء النبي صلى الله عليه وسلم الذين يحملون له عداوة شخصية خاصة فوق عداوتهم له بوصفه مرسلا من الله ، فكل الذين رفضوا الإسلام وقاوموه هم أعداء الله وللمنبي ، ولكن عداوتهم أصلا تتركز في نفورهم من الدين الذي يدعو اليه الرسول ، بحيث لو كف عن دعوته لانتهدت العداوة فيما بينهم وبينه ، وهذا ما كانوا يطلبونه منه ويلحون في طلبه ، بل كانوا يغرونه بأن يعطوه ما يريد من مال أو ملك أو سيادة لو كف عن دعوته ، فيما هو مشهور في الروايات .

ولكن بعضا منهم كان يحمل في نفسه حقدا وغلا لشخص النبي صلى الله عليه وسلم لذاته ، أما حسدا كما يشير القرآن الى ذلك بوضوح في قوله تعالى :

[أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله] (١)

والسياق كله فيما يعرفه المفسرون يشير الى اليهود وهم الحاسدون ، والى أن المراد بالناس المحسودين شخص النبي ، ولذلك كان تعقيب القرآن على هذا :

[٠٠٠ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة
وآتيناهم ملكا عظيما]

(١) ٥٤ سورة النساء .

أى ان كانوا يحسدونه على النبوة فلم يكن هو أول نبي أرسله الله ،
وان كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من ملك فلم يكن أيضا أول نبي آتاه
الله جاها وملكا ، بل سبقه من آل ابراهيم الذين تعرفونهم وتنتمون اليهم
انبياء كثيرون وملوك ذوو ملك عظيم .

وقد تكرر الحديث عن الحسد فى القرآن ، وفى بعضه كسورة الفلق
ما يوحى فى ظاهره كأنه خطاب له ثم لغيره أن يستعيذ بالله من شر
حاسديه .

وكل هذا يعنى أن الحسد لشخص النبى ، ولما آتاه الله من فضل كان
عنصرا من عناصر العداة للنبى ، والمواجهة العنيفة التى حدثت بينه وبين
أعدائه .

وقد عرف التاريخ أشخاصا غير قليلين من أعداء الاسلام كان أساس
عداوتهم هو الحقد الشخصى على محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء فى
قريش وفى غير قريش ، كانوا يحسدونه على ايثار الله اياه بمجد النبوة ،
ولكن الذين كانوا فى غير قريش كانوا أخف وطأة لبعدهم عنه ، فمنهم من
انطوى على نفسه يجتر حقه بشعره بين قومه ، كأمية بن أبى الصلت
الثقى ، ومنهم من حاول منافسة النبى فادعى النبوة كمسيلمة الكذاب ،
الذى لم يظهر خطره الا بعد وفاة النبى فى حروب الردة .

ولكن الذين كانوا يواجهون النبى بما ينجم فى نفوسهم من عوامل
الحقد الشخصى هم الذين كانوا فى قريش ، وكانت مواجعتهم هذه بما
يصدر عنها من قبيح القول وسىء الفعل تؤذى نفس النبى صلى الله عليه
وسام ويضيق بها صدره ، ومنها ما يؤكده القرآن فى قوله تعالى :

[ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون] (٢)

كما كان لهذه المواجهة أثر كبير فى صدور الناس عن استماعهم للنبى
حين يدعوهم الى الله ، وكان منطق القبائل فى ذلك أن أهل محمد وقرايته
من قريش أعرف به ، فاذا كانوا هم يكذبون فنحن أولى بتكذيبه ، وكان
منطق الناس فى مكة نفسها أنه اذا كان أقرب الناس اليه مثل عمه الشقيق
عبد العزى بن عبد المطلب أبى لهب يكذبه فنحن أولى بتكذيبه .

ومن المعروف عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يغضب
لنفسه قط ، فكان يكظم فى نفسه كل غيظ ، ويكتم فى قلبه كل ألم فيما يتعلق

بتخصه ، ولكن الله لم يكن ليتركه في هذا الضيق ، فكان القرآن يتولى عنه الرد بما لم يكن هو ليبلغه أو يبلغ أثره في نفوس أعدائه ونفوس أتباعه معا .

وقد صور أسلوب القرآن بعض رده على أعداء الرسول في سخرية موجعة .

فمن هذه الصورة :

(١)

[٠٠٠ ان شانتك هو الأبتـر] (٣)

اللغة :

الشانىء : المبغض وشانتك يعنى مبغضك .

الأبتـر : مقطوع الذنب ، وهو لا يكون بالضرورة الا من الحيوان الأعجم .

السياق :

والسياق يتمثل فى سورة من أقصر سور القرآن وهى سورة الكوثر :

[انا أعطيتك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، ان

شانتك هو الأبتـر]

والكوثر فى اللغة صيغة مشتقة من الكثرة ، بمعنى الشيء الكثير . .
وانحر أمر بالنحر وهو كالذبح ، غير أن الذبح يكون بالقطع فى الرقبة ، والنحر يكون بالطعن فى اللبة ، وهى ملتقى الصدر والرقبة فيما بين الترقوتين .

وقد اختلف المفسرون فى كل دلالات ألفاظ هذه السورة اختلافا كبيرا حتى لم يعد فيها معنى متفق عليه ، وذلك لأنهم يحاولون فهم كل لفظ أو كل جملة مستقلة عما سواها ، فتبدو السورة حينئذ رغم ايجازها المكون من آيات ثلاث قصار وكأنها لا رابطة بين آياتها .

ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة كلية من خلال الهدف الاصلى لها لا نجد ما يدعو الى خلاف حول معانيها العامة ، وستكون دلالاتها واضحة ظاهرة ،

(٣) آخر سورة الكوثر .

وذلك أن الهدف الأصلي للسورة كلها أنها مواساة للنبي صلى الله عليه وسلم ودفاع عنه ، حيث كانت هذه السورة من أوائل السور التي نزلت بمكة في بدء الرسالة النبوية ، والنبي حينئذ يكاد يكون وحيدا الا من بضعة نفر ضعاف يستخفون بدينهم ولا يستطيعون الظهور ، فكانت هذه الحقبة في أول الاسلام أقسى الحقب على نفس النبي ، وقد لقي فيها من الأذى والهوان ما لا تطيقه نفس كريمة لولا ما آتاه الله من حلم راسخ لا يتزعزع مهما تناوشته العواصف ، فحين يضيق صدره بما يقولون وما يفعلون ، وحين يشعر بأنه ضعيف في مجتمع شائىء حاقدا ، لا سند له ولا جوار ، الجميع عدو ، والجميع يحذر أن يجيره أو يحميه ، حينئذ يواسيه ربه ، ليقوى عزمه واحتماله ، بما يذكره من نعمه وفضله عليه ، وما بعده به من النصر على شائئيه .

ومن الملحوظ الواضح أن السورة كلها تتميز بأنها خطاب خاص بشخص النبي صلى الله عليه وسلم في منحى خاص ، هو الهجوم المباشر على الذين يعادونه لشخصه فضلا عن عداوتهم آياه لنبوته ، فكانت عناصر السورة كما يلي :

١ - تذكير للنبي بما أفاض الله عليه من فضله ونعمه ، ويكفى من ذلك نعمة النبوة التي كانت مصدر الحسد من حاسديه وشائئيه ، والتي لا توزن بها ولا تدانيها نعمة ، فكان تعبير (انا أعطيناك ٠٠) والعطاء حينما يريد الله ولو كان في المستقبل يصبح كأنه واقع فعلا ، والقرآن يستخدم المستقبل بالقياس الى الله في صيغة الماضي كقوله تعالى :

[أتى أمر الله فلا تستعجلوه ٠٠] (٤)

وأمر الله هو يوم القيامة ، وهو لم يأت ، ولكن حيث قضاه الله فكأنه أتى فعلا ، ومما يؤكد أنه عن شيء لم يقع تعبير (فلا تستعجلوه) ولو كان قد وقع فلا معنى اذن لاستعجاله .

ولكن عطاء الله لرسوله لم يكن النبوة وحدها ، وانما أعطاه عطاء عظيما في كل ما يتمناه مثله ، سواء في شخصه من الخلق العظيم وغيره ، أو في منزلته بين الناس حتى قبل النبوة ، وفي غير ذلك ، ولهذا كان التعبير عن هذا العطاء بالكثرة (الكوثر) وليس بالكبر والضحامة ، ففي الدقة اللغوية فرق بين أن نقول عطاء كثير ، وأن نقول عطاء عظيم ، فالكثرة تقتضى التعدد العددي ، أما الكبر والضحامة فلا يلزم فيها التعدد ، بل تصدق على الواحد ، فاذا قلنا خير كثير فلا بد أن يكون متعدد الأنواع ،

أما إذا قلنا خير عظيم ، فهذا يصدق على نوع واحد من الخير ولكنه نوع عظيم ، والتعبير فى السورة (انا أعطيناك الكوثر) أى اعطيناك خيرا متعددا وليس خيرا واحدا .

ويضاف الى ذلك وعد الله اياه بالعطاء المطلق فى المستقبل كقوله تعالى :

[ولسوف يعطيك ربك فترضى] (٥)

وكان الله يقول له ان كان صدرك قد ضاق بأذى أو ابتلاء فلا تظنن ان نصر الله وتأبيده قد تزحزح عنك ، بل :

[ما ودعك ربك وما قلى] (٦)

ولا تنسى :

[انا اعطيناك الكوثر]

٢ - كل ما يحيط بك من نفور المجتمع ، ومن حملة الشائنين عليك ، لا ينبغي أن يؤثر فيما أنت فيه من صلتك بربك ، وعبادتك اياه ، ودعوتك اليه ، بل احرص على ما أنت عليه ، ولذلك كان تعبير (فصل لربك وانحر) الأمر بالصلاة واضح ، ولكن الأمر بالنحر مما حير المفسرين ودعاهم الى الاختلاف فى دلالة ، ومع أنه لا غرابة فى حمله على أنه من باب (اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) بمعنى أن تعبير (فصل لربك وانحر) يكون أمرا بالصلاة وبالزكاة فى نوع منها وهو زكاة المشية ، لأن الزكاة بتفاصيلها الشرعية لم تكن قد شرعت بعد ، وانما كان مظهرها هو الاطعام والانفاق فى سبيل الله بصفة عامة ، أقول مع أن مثل هذا الاحتمال غير بعيد ، إلا أن ارتباط الأمر بالنحر (انحر) بما بعده وهو الشائىء الأبتىر ، وخصوصا لفظ (الأبتىر) وقد يجعل له اشارة ذات دقة كبيرة ، وذات اسهام كبير فى الصورة الساخرة كما سيأتى .

الصورة :

تتركز الصورة الساخرة فى جملة (ان شائئك هو الأبتىر) والشائىء هو المبغض ، والأبتىر هو مقطوع الذنب ، والذنب لا يكون فى الانسان ، وانما يكون فى الحيوان الأعجم ، والتعبير مصدر بلفظ تأكيد هو (ان) ومؤدى ذلك أن القرآن يرسم لهذا المبغض لشخص النبى صورة بالغة

(٥) ه سورة الضحى .

(٦) سورة الضحى .

التسوية كما أن القبح كان من مرحلتين في القبح وليس مرحلة واحدة ، احدهما أنه ينزل من الآدمية الى صورة الدواب السائمة ، فتصبح صورته في الذهن حيوان أعجم ، ولكن تصوير القرآن ينزل به أيضا مرحلة أخرى عن صورة الحيوان الأعجم في وضعها السوى ، فيجعله حيوانا مشوها بقطع ذنبه ، فاذا هو أبتتر فلفظ (أبتتر) لا بد أن يصور في ذهن السامع العربى صورة حيوان مقطوع الذنب ، وحتى لو شبه الشانئ به تشبيها فقل انه كالأبتتر ، أى كالحیوان المقطوع الذنب فلا بد أن ترتبط به صورة الحيوان الأعجم ، ولكن تعبير القرآن ليس تشبيها وانما هو تأكيد لشيء واقع فعلا ، على أساس أن جوهر هذا الشانئ وحقيقته المعنوية هي كهذا الوضع ، وان بدا في شكله وتكوينه الجسدى آدميا عاقلا سويا .

والسخرية من هذا الشانئ في هذا التصوير أوضح من أن تحتاج الى بيان ، خصوصا وأن الشانئين لشخص النبي لم يكونوا من عامة الناس ، بل ولا من السادة العاديين ، وانما كانوا من قم السادة حيث كان منبع بغضهم للنبي وحسدهم اياه أنهم لم يكونوا يرون أحدا أحق منهم بأية منزلة اجتماعية مهما علت ، وهم يعرفون قبل غيرهم أن وضع النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة لا يدانيه وضع اجتماعى ، مهما بدا في أول أمره محاصرا أو ضعيف المنزلة الاجتماعية ، فان أبا جهل مثلا كان أسبق الناس احساسا بقيمة النبوة ومنزلتها ومستقبلها ، ولذلك شن حربه العاتية المبكرة على النبي ودعوته منذ بدايتها ، وفي الوقت الذى كان فيه كثير من السادة لا يرون في محمد أو دعوته خطر عليهم ، فهو مسالم وادع ، لا يستخدم الا لسانه وخلقه الطيب ، ولكن أبا جهل كان أبعد نظرا وأدق توقعا لقيمة النبوة ومستقبلها ، وقد كان المفروض أن يدعوه هذا الى الايمان ، ولكن العائق الوحيد في نفسه أنه كان يرى نفسه أحق من محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة وبأية منزلة عالية ، فامتلا قلبه غيظا ونقمة على شخص النبي ودعوته .

ولم يكن أبو جهل وحده هو الذى يحمل هذا الحسد وهذا التطلع كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وانما كان أبو جهل أبرزهم وأشدهم حقدا وحسدا وأذن فالذين تعنيهم هذه الصورة الساخرة فى القرآن كانوا من أبرز القمم فى المجتمع ، وبالتالي فان السخرية من أحدهم ستكون أشد ايلاما لصاحبها من جهة ، وأشد اثارة لنفوس السامعين فى المجتمع من جهة أخرى ، فكيف يتصور هذا الزعيم الكبير نفسه حيوانا مقطوع الذنب ؟ فيجمع بين نقيصتين ، أن يكون حيوانا أعجم ، وأن يكون هذا الحيوان مشوها بقطع ذنبه .

وكيف يتصور السامعون هذا الزعيم الذى تمتلئ نفوسهم اعجابا به
واكبارا له فى هذه الصورة المزرية المضحكة ؟

ومهما يبلغ السامعون من سذاجة أو سطحية فى التفكير فلا بد أن
تراود نفوسهم بعض المشاعر ، ومنها :

١ - اهتزاز الصورة الضخمة الثابتة التى رسموها لهذا السيد فى
نفوسهم ، وعلى أيسر الفروض أن يسائلوا أنفسهم : هل هذا السيد العظيم
شئ أو قبيح حقا بهذه الصورة التى سمعوها ؟ ان كان كذلك أو حتى دون
هذا القبح بكثير فكيف يعجبون به هذا الاعجاب ؟ وكيف ينقادون له أو
يخافون منه ؟ ومبدأ استخدام عقولهم لذاته هدف جوهرى فى الاسلام ،
فحين يستخدمون عقولهم بتجرد من المؤثرات لابد أن يصلوا الى الدين ،
ولذلك يركز القرآن تركيزا شديدا فى اثاره عقولهم للتفكير ، ومن وسائله
الواضحة فى القرآن حينئذ أمران :

(أ) الدعوة الملحة والمتكررة الى استخدام العقول فى كل
شئ .

(ب) صياغة كل ما يدعو اليه القرآن فى صورة أسئلة تتكرر فى
أساليب مختلفة للإجابة عنها ، وهذه الإجابة أيا كانت صحيحة أو خاطئة
لابد لها من تفكير ، فاذا كانت صحيحة فهى الحق ، وان كانت خاطئة وجدت
من يراجعها فيعاود صاحبها أيضا التفكير .

٢ - اذا كان هذا السيد العظيم ليس معيبا ولا قبيحا كما تصوره
هذه الصورة الساخرة ، فمن الذى جرؤ على تشويهه والاساءة اليه بهذا
التصوير البالغ السخرية والاهانة ؟ والسادة عندهم يملكون نواصى القوة ،
ولكن هذا السيد يعلو فوق السادة ، فهو اذن قمة القوة ، فالذى يجرؤ
على المساس به فضلا عن تشويهه بهذه الصورة لابد أن يكون أقوى منه
بكثير ، فمن هذا الأقوى ؟ ولن يكون الأقوى حينئذ محمدا أو أصحابه ، انهم
من المستضعفين (٧) فأين اذن هذه القوة التى برزت فعلا ونالت من هذا
السيد العظيم بهذا التصوير الساخر ؟ ان محمدا يقول انه الله فهل حقا
هو الله ؟ واذا كان حقا فمن هو الله ؟ وهكذا فى تسلسل عقلى يؤدى الى
الايمان بالله ، وهذا ما يريده القرآن من دعوته الدائمة الى استخدام
العقول .

وحينما تستقر العقول على القرار الصحيح وهو الايمان فستجد أن
هذا التصوير الساخر فى القرآن ليس خيالا ولا مجافاة للحقيقة ، وانما

(٧) هذا لمراعاة أن سورة الكوثر من أوائل السور التى نزلت فى بدء الاسلام بمكة .

هو تصوير واقعى ، غير أنه من الداخلى وليس من الخارج ، بمعنى أن القرآن يصور الذين يسخر منهم أو يهون من شأنهم فتكون الصورة لمعنوياتهم وليس لحسياتهم ، وجوهرهم الحقيقى فى عقولهم ونفسياتهم هو بهذا الشكل .

فالقرآن يؤكد أن المشركين كالأنعام ، وواضح أنهم ليسوا كالأنعام فى أجسادهم وإنما فى عقولهم ، بل يؤكد القرآن أنهم أسوأ من الأنعام ، كقوله تعالى :

[أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا] (٨)

من حيث أن الأنعام تؤدى وظائفها وتهتدى لما يلزم حياتها من تلقاء نفسها ، أما هم فيعتمدون الضلال عن الفطرة التى خلقوا عليها . وهذا المضمون يكاد يطابق الصورة الساخرة التى نحن معها ، وهى (ان شانئك هو الأبتىر) حيث أنه حيوان أعجم ، بل أسوأ وأقبح من ذلك بأنه مشوه بقطع ذنبه ، فهو حيوان ولكنه ينزل عن درجة الحيوان العادى بأنه مشوه .

وهذا الزعيم الكبير هو فى وضعه الدينى كذلك ، لأنه لا يستخدم عقله استخداما قويا فى التفكير فى الدين ، فهو من حيث الدين كالحيوان الأعجم ، كلاهما بدون عقل ، ولكنه يتجاوز هذا القبح العقلى بدرجة أخرى من القبح الخلقى ، وهى نزعة الحسد ، فالإنسان السوى الخلق لا يحمل لغيره حسدا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بشهادة كل معاصريه أهداء وأصدقاء لم يكن فى خلقه قط من سوء يدعو الى عداوة أو بغض لشخصه ، بصرف النظر عن الموقف من دينه ودعوته ، فالذى يعاديه أو يفضيه لشخصه ليس هناك محمل لموقفه إلا عوامل نفسية غير سوية كالحسد ، وكل هذه العوامل شذوذ عن الخلق السوى ، فالذى يحملها من المشركين ، يحمل قبحين ، قبح العقل بالمشرك ، وقبح الخلق بالحسد ، فهو إذن (الأبتىر) بمعنى أنه حيوان ، ولكنه مشوه الخلقة بقطع ذنبه .

ولكن هذه الصورة الساخرة على ايجاز كلماتها نجد فى ألفاظها من الأيحاء الزائد عن المعنى الأصلى الكثير ، ومن ذلك :

١ - لفظ (الكوثر) فرغم أن مادته وهو الكثرة معروفة لكل العرب ، وكذلك كل ما يشتق منها يصبح مفهوما وواضحا ، إلا أن صياغة لفظ (الكوثر) لا أعلم أن أحدا من العرب سبق القرآن إليها رغم وضوحها وفهم معناها ، والهدف ليس فى السابق لذاته ، وإنما فى أن كل جديد له بريق

يلفت الأنظار اليه ، فحينما يسمع العرب اشتقاقا جديدا من لغتهم التي يعرفونها حق المعرفة ولكنهم لم يسمعه من قبل فان هذا يركز مشاعرهم وعقولهم لتأمله ومحاولة التعمق فى الهدف من استخدامه ، وسيكون من أوضح ما يبرز لهم حينئذ :

(أ) أن هذا (الكوثر) يعنى أنها كثرة ، ولكنها كثرة جديدة لم يألفوها ، سواء فى الكم أو فى النوع ، وما دام محمد أعطى هذا - ولو ادعاء فى نظر الشائئين - كما فى تعبير (انا أعطيناك الكوثر) فمحمد اذن يملك ما لا يملكه أحد ، ولو ذهبوا يستفسرون من أحد أتباع محمد عن مدى صدق هذه الدعوى فسيجدون فعلا أن محمدا أعطى ما لم يعطه أحد قط ، ومنه قوله تعالى :

[وكان فضل الله عليك عظيما] (٩)

وفى قمة هذا العطاء النبوة .

(ب) أنه اذا كان المال وحده رغم توافره عند كثيرين يجعل لصاحبه منزلة وجاها فى كل مجتمع ، ويثنى على صاحبه الحمد وهو مذموم ، وهو الرب الغفور لذنوب صاحبه كما يقول شاعرهم ، واذا كانت السيادة وحدها رغم وجودها بالضرورة فى كل مجتمع صغر أو كبر تجعل لصاحبها جاها وسلطانا ، واذا كانت كل ميزة فى انسان تجعل له تفوقا وتجذب اليه المشاعر ، فكيف بمحمد الذى أعطى ما لم يعطه أحد مما يعبر عنه بهذا اللفظ الذى لم يطرق الآذان من قبل وهو (الكوثر) ؟

ومهما يكن النفور من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا شك أن مثل هذه الخواطر التى يستدعيها هذا التعبير ستجعل كثيرا من النفوس تنجذب نحوه وتميل الى الالتفاف من حوله ، وهذا ما حدث فعلا .

٢ - اجتماع لفظ (انحر) ولفظ (الأبتىر) فى سياق واحد يوحى بإشارة قد تكون زائدة عن المعنى الأصلي وليست من صلبه ، ولكنها فى سياق السخرية من الشائىء تبرز طرافة كبيرة فى الصورة عند التأمل ، وذلك أن النحر مثل الذبح ، غير أنه يكون بالطعن فى اللبة ، ويغلب أن يكون فى الابل ، والنحر فى السورة (فصل لربك وأنحر) هو أمر بنوع من العبادة وهو التقرب الى الله بالطعام ، وحينما ينحر فلا بد أن يكون المنحور نوعا من الماشية ، وسخرية القرآن صورت هذا الشائىء للرسول بأنه نوع من الماشية ولكنه مقطوع الذنب ، وقطع ذنبه لا يمنع من نحره ، فمجىء

ذكره في سياق الأمر بالنحر يحدث ارتباطا طريفا وان كان غير مقصود بأن هذا الشانئ من نوع ما ينحر ، وما دام الأمر كذلك فلا مانع من أن يكون هو الذي يقع عليه النحر (فصل لربك وانحر ، ان شانئك هو الأبر) .

بل ليس من مستنكر القول أن يقال ان هذه الاشارة الى نحر هذا الشانئ قد تكون نوعا من كشف الغيب ، والامح الى النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الشانئ سيقتل بسلاحك وهو سلاح الاسلام ، وقد حدث فعلا أن عددا كبيرا من عتاة سادة مكة وكبار الشانئين للنبي قتلوا يوم بدر بسيوف المسلمين التي يقودها النبي ، وكان في مقدمة هؤلاء الصرعى يومئذ أبو جهل الذي كان أشد الشانئين للنبي ، ومما يرشح هذا المعنى أن السياق يؤكد عطاء الله للنبي (انا أعطيتك الكوثر) وفي سياق الحديث عن الشنآن والعداوة لا بد أن يكون من العطاء النصر ، لأن المهزوم لا يشعر بلذة نعمة مهما أعطى ، ولا تستسيغ نفسه المن عليه ممن يخذله وهو يملك نصره ، والله يمن على نبيه بالعطاء ، وهذا المن في سياق ذكر أعداء له ، فلا بد أن يتوقع أن يكون ضمن المن عليه النصر على هذا الشانئ .

ولكن بدل أن يقول له انك ستنتصر على شانئك ، أو انك ستقتله ، يلمح اليه بأنك ستنحره ، لأنه كالحيوان الأعجم ، فلا يناسبه القتل ، وانما يناسبه النحر ، واذا صحت هذه الاشارة ، فانها ستكون سخرية أخرى من هذا الزعيم الكبير الشانئ لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢)

واذا كان القرآن قد اختار نمودجا من الشانئين لشخص النبي صلى الله عليه وسلم فصب عليه هذه السخرية الموجهة كما رأينا في الصورة السابقة ، فانه يختار أيضا نمودجا آخر من محيط الشنآن لشخص النبي ، وقد كان النمودج الآخر امرأة ، وهي احدى الشانئات للنبي ، فيصب عليها سخرية أشد ايلاما وتحقيرا ، وذلك في سورة المسد .

[تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله

وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته

حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد]

اللغة :

أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب عم شقيق للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان معروفا عنه هو وزوجه أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان أنهما كانا من أشد الناس كراهية لشخص النبي ، وكانا أشد الناس إيذاء له ، وكان اذاهما دائما بحكم جوارهما للنبي فى المسكن :

التب : هو الخسران ، وتبت يداه بمعنى خسر فى كل ما يعتمد عليه من مال أو كسب أو قوة ، لأن اليد تستخدم فى التعبير عن أداة الكسب ، كما يقال هذا كسب يدى ، أى كسبى ، وفى التعبير عن القوة نحو المسلمون يد واحدة أى قوة واحدة ، والمعنى أنه لن ينفعه ماله أو جاهه ، بل سيكون خسرانا له .

الجيد : العنق

المسد : الليف

فسورة المسد تتكون من شقين ، أحدهما عن أبى لهب ، والآخر عن زوجه ، فأما أبو لهب فكان حديث القرآن عنه ، وتوعده آياه بأسلوب الحقيقة المباشرة .

وأما حديثه عن زوجه أم جميل بنت حرب فهو الذى كان فى أسلوب التصوير الساخر ، الموجه السخرية ، وقد كانت الصورة الساخرة هى :

[وامراته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد]

وقد اختلف المفسرون فى دلالة عناصر هذه الصورة أو كلماتها اختلافا شديدا فلم يتفقوا على رأى واحد فيها ، رغم وجود عشرات الآراء حولها .

وذلك لسبب يسير ، هو أن المفسرين يحاولون دائما أن ينحو بمعانى ألفاظ القرآن منحى الحقيقة المجردة بأخذها من ظاهر الألفاظ وسطحها ، ورغم أنهم يصفون كثيرا من أساليب القرآن بأنها تهكم ، ورغم أنهم يعلمون أن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، وأن اللسان العربى فى شعره ونثره قد استخدم فيما استخدم أسلوب السخرية ، فكان فى موضعه أبلغ من أى أسلوب آخر ، ومع ذلك يتحاشون أن ينظروا الى أسلوب القرآن من هذه الزاوية التى يؤكد القرآن نفسه كثيرا أنه يستخدمها على السنة الأنبياء وغيرهم ، بل ينسبها القرآن الى الله سبحانه ، كقوله تعالى :

[سخر الله منهم ولهم عذاب اليم] (١٠)

(١٠) ٧٩ سورة التوبة .

ولذلك لم يتفقوا على رأى فى هذه الصورة الساخرة ، بل الأغرب من ذلك أنهم لم يتركوا لنا رأيا تطمئن اليه النفس .

ومن ذلك أن كل آرائهم حول تعبير (حمالة الحطب) تدور حول أنها كانت فعلا تحمل حطبا ، واختلافهم انما هو حول نوع الحطب ، وهذا مما لا يقره التاريخ ، فبعيدا عن روايات التفسير لم ترد رواية ذات قيمة تاريخية أن أم جميل كانت تحمل الحطب ، وهى من ذروة الذرى فى قريش حيث ان أباها أبا سفيان كان يوصف بأنه سيد العرب أو من سادات العرب ، وليس فى قريش وحدها ، وأبوها حرب بن أمية بن عبد مناف ابن عم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، سيد من أكبر سادات قريش ، وزوجها عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من وجوه قريش وذوى النفوذ بأنسابهم وأحسابهم وأموالهم كما صرح القرآن بذلك ، فلم يكن لمثلها أو لمن هى دونها بكثير أن تحمل الحطب ولو مرة ، فضلا عن أن يكون حمل الحطب مهنة أو عادة لها كما تدل على ذلك صيغة (حمالة) التى تختلف عما لو كان التعبير تحمل الحطب أو حاملة الحطب ، ولذلك فان روايات التفسير تحاول ألا تصطدم بهذا الواقع ، فتقول انها كانت تحمل الحطب لتضعه فى طريق الرسول تؤذيه به ، فضلا عن أن تعبير (حمالة الحطب) لا يؤدى معنى الايذاء بالحطب ، لأن تأذى الرسول سيكون حينئذ من الحطب نفسه ، وليس من حملها اياه ، فضلا عن ذلك فانها كانت تملك من تأمره بحمل الحطب ، وبوضعه حيث تريد ، فى طريق النبى أو فى أى مكان .

وكذلك كل آراء المفسرين حول تعبير (فى جيدها حبل من مسد) فان كل آرائهم تدور حول نوع الحبل أى حول فهم المراد بالمسد ، أهو الليف أم لحاء الشجر ، أم الحديد ، بينما خلافهم كله لا يؤدى الى توضيح المراد من الجملة كلها ، فضلا عن أن فى بعضه بعدا عن الدلالة اللغوية التى هى اصل كل معانى القرآن ، حيث يكرر القرآن هذه الحقيقة التى لا لبس فيها ، وهى أنه انما نزل :

[بلسان عربى مبين] (١١)

واللسان العربى لا يلتوى فى دلالة المسد ، فهو معروف للجميع حيث يستخدمونه دائما فى حياتهم المعيشية ، ولا يحتاجون الى السؤال عن نوعه ، فحينما يقال حبل من مسد فمن الواضح أنه مصنوع غالبا من ليف النخل ، وقد يصنع من الكتان أو الصوف ، ولكن بعض الآراء فى تفسير

المسد تقول انه الحديد ، بينما هم أعرف بأن الحديد حينئذ يسمى سلسلة وليس حبلًا ، وقد ورد هذا في القرآن في أكثر من موضع ، ولو افترضنا أنه أريد صنع حبل من الحديد على هيئة صنع الحبل المفتول وهو ممكن بل واقع ، فلا بد أن يخصص بأن يقال انه حبل من حديد ، فيكون واضحا أنه من نوع السلاسل ولكنه في هيئة حبل ، ولكن حين يقال من مسد فان المسد معروف عندهم بأنه ما تصنع منه الحبال العادية التي يستخدمونها في حياتهم المعيشية ، سواء أكانت من ليف أو صوف أو نحوه ، أما الحديد فلا يدخل في مدلول المسد .

ولكن الاشكال ليس في هذا ، وانما في أننا لانجد بين آرائهم كلها ما يوضح المراد بالآية كلها ، وهي (فهي جيدها حبل من مسد) فان كل ما قيل على كثرته غير مقنع ، بل غير متفق لا مع الدلالة اللغوية ، ولا مع المراد من السياق .

فأما عدم الاتفاق مع الدلالة اللغوية ، فان العربي حين يسمع أن فلانا في جيد حبل من مسد ، فلا يلتبس عليه أن المراد وجود حبل عادى في عنق هذا الشخص ، ولكن آراءهم تحاول البعد عن هذا المعنى الواقعى ، وتزداد بعدا حينما تحاول أن تجعل هذه الصورة فى الآخرة وليس فى الدنيا ، مع أنه ليس فى السياق ولا فى الألفاظ ما يفيد ذلك .

وأما السياق فهو تحقير شأن هذه المرأة بالقياس الى منزلة النبى ، ولو أريد بهذا التحقير كونها فى عذاب جهنم ، فان عذاب جهنم أشد وأقسى من أن يكون بوضع حبل فى العنق ، ولو كان عذابها كذلك لكان هينا يسيرا ، ثم ان الذى يناسب نار جهنم من الأغلال انما هو سلاسل الحديد كما وصف القرآن وليس الحبال كما فى هذا التصوير .

وليس الهدف من هذا التعقيب الاشارة من قريب أو بعيد الى التقليل من جهد المفسرين أو كفايتهم ، فان جهدهم العظيم ، وعلمهم الزاخر هو المصباح الذى لا يستطيع باحث أن يخطو نحو بحر التفسير بدونه .

وكل ما تهدف اليه الاشارة من هذا التعقيب هو أن كثيرا من نظرات السابقين كانت تغلب عليها النظرة الجزئية ، سواء الى اللفظ ، أو الجملة ، دون اهتمام بالصورة الكلية ، أو ربط الجمل والآيات بعضها ببعض ، ومن ذلك هذه الصورة ، فان اهتمامهم تركز فى شرح حمالة الحطب (ثم فى لفظ (مسد) مع أن كل الألفاظ والجمل لا تتضح دلالتها الحقيقية الا من خلال

الصورة العامة ، كما أن الصورة العامة أيضا لا تتضح الا من خلال السياق والملابس فاذا نظرنا اليها من خلال ذلك كان الأمر أيسر جهدا ، وكانت الصورة أشد وضوحا ، وذلك كما يلي :

السياق :

موقف أبي لهب وزوجه من النبي صلى الله عليه وسلم من أشهر المواقف العدائية في تاريخ الاسلام ، فلا تختلف الروايات في أن أول رفض وتسفيه ووجه به النبي حينما جهر بالدعوة الى الاسلام كان من عمه أبي لهب عبد العزى ، وذلك حينما أنزل عليه من القرآن :

[وأنذر عشيرتک الأقربين] (١٢)

فجمع النبي قرابته فدعاهم الى الاسلام ، فاذا عمه أبو لهب يقول له مسفها أمام الجميع : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ثم واصل حملته على النبي في كل مكان يتردد عليه .

وكذلك زوج أبي لهب أم جميل بنت حرب ، وهي من أقرب أقارب النبي بعد بنى هاشم ، ظلت تناصب النبي العدا ، وتصطنع له من المضايقات وسبل الايذاء ما يصل الى حد السفاهة والاسفاف ، كأن تعتمد بصفة مستمرة القاء الأذى في طريقه وهو داخل الى بيته ، ونحو ذلك مما أفاض فيه عنها وعن زوجها الرواة والمفسرون .

ولا أدل على أن أحدا لم يبلغ من نفس الرسول وضيقة وتأذيه ما بلغاه من أن القرآن لم يذكر أحدا من أعداء الرسول بالاسم والتحديد كما ذكرهما ، وكونهما من قرابة الرسول لابد أن يجعل أذاهما أشد ايلاما لنفس الرسول كما يقول شاعرهم :

وظلم نوى القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

ولكن زوج أبي لهب أم جميل تميزت بأنها ألد عدو للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء وأقبحه على الاطلاق ، فهناك نساء كثيرات امتلأت قلوبهن كراهية للاسلام ، وهناك نساء كثيرات امتلأت قلوبهن حزنا وغيظا من النبي لأنه كان سببا في مصرع أعزاء عليهن ، كما كانت هند بنت عتبة في عداوتها الشديدة للجامعة للاسلام ولشخص النبي ، ولكنهن جميعا التزمن حدود العداوة الكريمة مهما اشتد أوارها ، ولم يرد أن احداهن واجهت

(١٢) ٢١٤ سورة الشعراء .

النبي ببذاءة فى القول ، أو اسفاف فى أذى كما فعلت أم جميل ، واقصى ما واجهت به هند النبي يوم بيعة النساء حين قال النبي فيما قال للنساء يبايعهن وفيهن هند بنت عتبة (ولا تقتلن أولادكن) فقالت هند مشيرة الى من قتل من ذويها يوم بدر : لقد ربيناهم صغارا فقتلتهم كبارا ، فقهقهه عمر بن الخطاب حتى دوت قهقهته فى الصحراء ، فكان كلام عداوة ولم يكن كلام بذاءة ، ولو كان بذاءة ما ضحك منه عمر .

ولكن امرأة أبى لهب هذه هى التى انفردت دون النساء بأن تقذف الى النبي كل حين بكل ما تستطيع من بذى القول ، وقبيح الفعل ، والنبي بوصفه بشرا لا بد أن يضيق صدره ، وأن تألم نفسه لكل هذا ، ومهما يكن حلمه ، فإن الحلم ليس معناه عدم الألم ، بل هو كظم الغيظ وعدم اظهاره أو اظهار صداه ورد فعله ، ولو كان أذى أم جميل فى موقف أو مواقف متفرقة لكان احتمالها أخف ، ولكنها فوق القرابة هى جارة للنبي .

فما كان الله ليترك نبيه فى هذه المعاناة النفسية ، وما كان ليترك هذه المعاناة لتشغل شيئا من اهتمام النبي بدعوته ، والتفرغ لتبليغ رسالته ، فيوجه الله الى أم جميل سهما من سهام السخرية ، ممثلا فى هذه الصورة الموحجة :

الصورة :

الصورة التى رسمتها سخرية القرآن لأم جميل لا تعدو أن تكون صورة من واقع البيئة الذى يشاهده الناس ويزاولونه فى حياتهم اليومية الدائمة ، فالبيئة حياة بدوية يسيرة الشئون ، ومن لوازمها اليومية اشعال النار سواء للخبز أو الطبخ أو التدفئة ، واشعال النار لا بد له من وقود وهو عندهم الحطب ، فهم يلتمسونه من أعشاب الصحراء وما ينبت من أشجارها ، وقد يحمله بعضهم اذا كان من الضواحي القريبة ، فاذا بعد المكان احتاج الى دابة للحمل عليها ، وحيث كانت الحاجة الى الحطب دائمة وفى كل بيت فإن المناطق القريبة سينفذ ما فيها من حطب ، فيعتمدون فى أغلب حاجتهم على المناطق الأبعد ، ومعنى هذا كثرة استخدام الدواب لهذا الغرض ، وأغلب ما يناسب هذه المهمة هى الحمير والبغال ، لخفة حركتها وسرعتها وسهولة الحمل عليها ، فمن الطبيعى أن نتصور كثرة من الحمير أو البغال وأحيانا الابل وعلى ظهورها أحمال الحطب .

ومن المألوف فى كل الدواب التى تستخدم فى وسائل المعيشة أن يكون لها مقود تقاد به كالرث وهو الحبل الذى يقاد به الجمل أو الفرس أو

الحصار أو غير ذلك ، فمن المناظر الواقعية المألوفة فى البيئـة أن نرى الدواب وعلىها أحمال من الحطب ، وفى أعناقها حبال تقاد بها .

فإذا نظرنا الى تصوير القرآن من خلال الهدف والملابس نجد صورة أم جميل فى غاية الوضوح واليسر ، وهى صورة دابة من هذه الدواب ، تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل تقاد به ، وكل ما فى الصورة من ألفاظ إنما هو تأكيد للباس أم جميل صورة الدابة الحقيقية التى تحمل الحطب وتقاد بحبل من ليف ، وذلك كما يلى :

١ - لفظ (حمالة) بتشديد الميم يفيد أن وظيفتها أو عاداتها الحمل ، بخلاف ما لو كان التعبير حاملة الحطب ، أو تحمله ، فان هذا لا يدل على تكرار الفعل كما يدل عليه التضعيف فى صيغة (حمالة) .

٢ - لفظ (الحطب) لتأكيد صورة الدابة ، فانها هى التى سخرها الله للحمل ووظيفة لها ، وتخصيص الحمل بالحطب حتى لا يتجه ذهن السامع الى تأويله الى شىء يناسب الآدميين كحمل متاع ، لأن هدف السخرية من أم جميل تأكيد صفة الدابة لها .

٣ - تعبير فى جيدها حبل تأكيد آخر لصفة الدابة العجماء فى أم جميل ، فان الذى يقاد بالحبل فى عنقه إنما هى الدواب والماشية العجماء ، حتى لا يتجه ذهن سامع الى أن المراد بحامل الحطب امرأة آدمية ، بينما هدف الصورة الساخرة تأكيد صورة الدابة العجماء .

٤ - لفظ (مسد) تأكيد آخر لصفة الدابة ، فان السامع يعرف فى السياق أن الحديث عن امرأة هى زوج أبى لهب ، ويعرف أنها من ذروة القوم وعليتهم ، فقد يتخيل أن الحبل فى جيدها لن يكون كسائر الحبال ، بل يكون من حرير أو شىء لين على الأقل ، ولكن لفظ (مسد) يرده الى صورة الدابة المقودة بحبل من ليف ، وبعض اللغويين يفسر المسد بأنه الفتل القوي وهذه اضافة ساخرة تتضمن أنها دابة جامحة تحتاج حبالاً قويا .

وتأكيد القرآن صفة الدابة العجماء لامرأة آدمية لا غرابة فيه ، لا لغويا ولا دينيا .

(أ) فأما من حيث اللغة فهو أسلوب مجاز شائع فى كل الأساليب العربية البليغة ، وأكثر ما يكون شيوعا فى القرآن ، فانك مثلا تقول حين تريد أن تتحدث عن شجاعة رجل ، رأيت فى الحرب أسدا يفترس الأعداء ، فلا خلاف اطلاقا حول أن هذا المجاز ونحوه أبلغ بكثير مما لو قلت بأسلوب

الحقيقة رأيت رجلا شجاعا يقتل الأعداء ، فرغم زعمك أنك لم تر آدميا ،
وانما رأيت أسدا ، وتؤكد هذا بصفة من صفات الأسد وهى (يفترس)
فكلامك أوقع وكلما أكدت أن الذى رأيتك كان أسدا حقيقيا كان كلامك أبلغ
وأجود ، وكل ما يطلب منك هو أن تترك للسامع اشارة الى أنك انما تتحدث
عن آدمى ، وهذه الاشارة فى المثال السابق هى لفظ (الحرب) فان الحرب
من شأن الأدميين وليس غيرهم .

وصورة القرآن الساخرة من أم جميل هى كذلك ، فيها اشارة الى أن
الحديث انما هو عن آدمية ، وذلك فى لفظ (وامراته) أى امرأة أبى لهب ،
لأن الأدمى لا يتزوج الا آدمية وليس دابة عجماء ، وحيث ينتفى هذا اللبس
فكلما زاد تأكيد صفة الدابة العجماء لها كان الكلام أبلغ ، حيث هذا هو
الهدف ، وقد رأينا كيف توالى التأكيدات فى الصورة الساخرة للتأكيد
صفة الدابة لأم جميل .

(ب) وأما من حيث الدين فلا غرابة فى تأكيد أن أم جميل أو غيرها
من المشركات دابة عجماء ، بل هو منهج القرآن فى وصف المشركين ، وقد
تكرر هذا فى القرآن ، حيث يؤكد القرآن أنهم كالبهائم ، ليس فى أجسادهم
أو أشكالهم أو حياتهم المعيشية ، وانما فى جانب معين منهم هو العقيدة ،
فهم والأنعام فيها سواء ، من حيث أن البهائم لا عقول لها ، وهم أيضا
لا يستخدمون عقولهم فى العقيدة ، بل يعطلونها ويلغونها ، فكأنهم بدون
عقول .

وقد سبق القول أن وصف القرآن لهم بأنهم كالأنعام أو ما هو من هذا
القبيل انما هو حقيقة وليس مجازا ، وأن تصوير القرآن اياهم فى هذا
المجال انما هو تصوير لهم من داخل نفوسهم وعقولهم ، فان عقولهم
وجوهرهم من حيث الدين لا يتفق مع الآدمية وفطرتها السليمة ، وانما يتفق
مع الأنعام التى تحيا بدون عقول .

فأم جميل استحقت وصف الدابة حتى بدون ايدائها شخص الرسول
بما آذته به ، أى استحقت بشركتها ، ولكن ايداءها اياه جعلها تستحق فوق
ذلك هذه الصورة الساخرة التى يمكن لرسام أن يرسمها فى لوحة ، مصورا
مثلا أتاناً (١٢) أو بغلة ، وفى عنقها حبل معقود به ، وعلى ظهرها حمل
حطب ، ولا يحدث فى هذه الصورة تغيير الا فى شئ واحد ، وهو وضع
وجه أم جميل مكان رأس الأتان أو البغلة ، أو مكان جزء منها ، لتبقى
رأسها رأس دابة وليس رأس آدمية ذات عقل ، ووجهها فقط هو الذى يوضع

(١٢) الأتان هى أنثى الحمار .

فى رأس الدابة ، ويكتب على جبهتها (أم جميل) ، ثم لنا أن نتصور حينئذ مدى سخرية هذه الصورة من أم جميل ، ومدى ايلامها النفسى اياها ، ان الموت الكريم أهون عند ذى المروعة والكرامة الاجتماعية من هذا التشويه وهذه الاهانة ، خصوصا اذا كان من توجه اليه هذه السخرية يعلو الى مرتبة فوق الوجاهة الاجتماعية كأم جميل سيدة السيدات فى المجتمع .

الأثر النفسى :

يمكن أن يقال ان هذه الصورة الساخرة تتضمن فيما تتضمن ثلاث رسائل غير خافية الهدف ، وهى :

١ - رسالة الى أم جميل تتضمن ردعا لها عن الماضى ، وانذارا لها للمستقبل ، بمعنى أن أم جميل اذا كانت تستغل جاهها ونفوذها من جهة ، وحلم الرسول وصبره من جهة أخرى فتقول ما تقول ، وتفعل ما تفعل مما يؤذى رسول الله ، فان الله يفتح عليها باب العقاب ليمنع عن رسوله أذاها ، فيوجه اليها هذا السهم القاتل لمثلها معنويا ، ليريبها أن ايذاء الله أشد من أذاها ، ومع ذلك فان هذا السهم المتمثل فى هذه الصورة الساخرة انذار لها بأنها لم تكف فان عند الله المزيد والأشد .

ويروى أن أم جميل حين سمعت هذه السخرية من القرآن جن جنونها ، فأخذت حجرا ودخلت المسجد الحرام تلتمس النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول : أين محمد ؟ لقد سمعت أنه هجانى ووالله لئن رأيته لاحظمن بهذا الحجر فاه .

٢ - رسالة الى النبى صلى الله عليه وسلم تتضمن مواساة له ، وتقوية لعزمه على احتمال الأذى والألم النفسى ، وكأن الله سبحانه يقوله له : لا يشغلنك أمر هذه المرأة ، ولا تضيقن بما يصدر منها ، فانها فى عقليتها وجوهرها الحقيقى لا جموحها وعتوها ، واذا كان المعنى كذلك (١٤) فلعلها اشارة من الله الى نبيه بأن يطمئن الى أن الله سيكبح جماحها وجماح الشرك كله .

وقد كان النبى أولى الناس بأن يفهم عن ربه هذه الرسائل وهذه الاشارات ، ولذلك فانه كان يؤكد لأصحابه منذ بدء الاسلام ، وحين لم يكونوا الا نفرا مستضعفين بأن الله سينصر هذا الدين ويثمه حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه .

(١٤) من المعانى اللغوية للمسد أنه القتل القوى ، وحبل من مسد أى حبل مفتول بشدة وقوة ، وانما يحتاج الى الحيل القوى اذا كانت الدابة عنيفة أو جامحة .

٢ - رسالة الى التوايع من النساء اللاتي ينقدن لام جميل او يتأسين بها ، اما خضوعا لمنزلتها ، واما اعجابا بشخصيتها ومكانتها ، ومضمون الرسالة دعوة الى التفكير فى جوهر هذه المرأة وحقيقتها ، وكأن هذه الصورة الساخرة فى القرآن توجه اليهن سؤالاً مضمونه : ما الفارق من حيث العقل والجوهر بين هذه المرأة وأية دابة تحمل حطبا وتقاد بمقود؟ وحيث كانت حقيقتها كذلك فلا ينبغى أن ينقدن لها أو يعجبين بها فتكون حائلا بينهن وبين الاتجاه الى دين الله .

فمما لا شك فيه أنه كما كان السادة من الرجال حائلا بين العامة من الناس وبين الاسلام ، فكذلك كان السيدات حائلا بسيادتهن بين العامة من النساء والاسلام ، وكما أخذ سادة الشرك نصيبهم من سخرية القرآن ، فكذلك أخذ سيدات الشرك نصيبهن فى صورة أم جميل بنت حرب .

سخرية التصوير المنفى

ومن أساليب السخرية فى القرآن الصور المنفية ، بمعنى أن أسلوب القرآن يسخر أحيانا من أعدائه بصورة منفية ، ولا يقل هذا فى الأثر النفسى عن الصور المثبتة فلا فرق بين أن تقول عن شخص انه جبان بإثبات الجبن له ، وأن تقول عنه انه غير شجاع بنفى الشجاعة عنه ، فالنتيجة واحدة وهى أنه من الجبناء ، لأن غير الشجعان هم الجبناء ، فالفارق ليس فى النتيجة ، وإنما فى الموازنة بين الأسلوبين من حيث البيان ، وهذا لا يحكم عليه بأحكام عامة ، بمعنى أنه لا يحكم على هذين الأسلوبين أيهما أجود من حيث البيان ، لأن الحكم يجب أن يكون على كل صياغة لذاتها ، وقد يكون الأسلوب المثبت مصوغا فى صورة باهرة ، وقد يكون المنفى كذلك ، فالموازنة فى الأدب لا تكون عادة بين الأجناس والأنواع الا من باب التقريب والتغليب ، أما الأحكام الموضوعية فيجب أن تكون مرتبطة بكل صورة لذاتها ، لأن نسيج كل صورة يختلف عن نسيج الأخرى ، كما أن الملابس لها أثر فى مدى وقع كل صورة فى النفوس ، وبالتالي فى الحكم عليها .

ومن أمثلة هذا النوع فى القرآن :

(١)

[فما يكت عليهم السماء والأرض] (١)

(١) ٢٩ سورة الدخان .

السياق :

والسياق حديث عن كفر قوم فرعون وعنادهم ، وبغيهم على بنى اسرائيل واستذلالهم اياهم ، وقد أرسل الله اليهم رسوله موسى عليه السلام فازدادوا كفرا وعتوا وبغيا ، فنجى الله المستضعفين على يد موسى ، وأهلك المشركين الباغين من قوم فرعون بالغرق ، فى القصة المعروفة لخروج بنى اسرائيل من مصر ، وفى هذا السياق ينبغى توضيح نقطة يغلفها اليهود بغلاف الوهم والغرور ، وهى اعتقادهم بأن الله أهلك من أهلك من قوم فرعون تكريما لهم ، لأن لهم عند الله منزلة تعلق فوق منزلة سائر البشر ، وهذا وهم واضح الكذب والضلال ، فان عباد الله من سائر البشر عند الله سواء ، لا يمتاز أحد منهم عن أحد بنسب أو جاه أو مال أو شئ على الاطلاق إلا بمقدار حسن عبوديته لله وطاعته اياه ، كما يقول تعالى :

[ان اكرمكم عند الله اتقاكم] (٢)

والله يوبخهم فى القرآن على كثير مما ينبع من الغرور الكاذب ، كادعائهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان هودا أى من اليهود ، وادعائهم أنهم أحباء الله وكثير مما ساقه القرآن عنهم بهذه الألفاظ وغيرها ، وفى سياق منها يستنكر القرآن كل ما يصدر عنهم من هذا القبيل بصفة عامة ، حيث يقول تعالى :

[ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من

يشاء] (٣)

فهو أسلوب استنكار مشاربه الى اليهود بالذات ، حيث ان الحديث صريح عنهم فى سياق :

[من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه

ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع

وراعنا ليئا بالسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم

قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا

لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون

الا قليلا] (٤)

فلم يجعل الله لهم ميزة ، بل لعنهم بكفرهم ، وتكرر لعنهم فى القرآن

كثيرا .

• (٢) ١٣ سورة الحجرات

• (٣) ٤٩ سورة النساء

• (٤) ٤٦ سورة النساء

فاهلاك فرعون ومن هلك من قومه انما كان بسببين حددهما القرآن ، وهما الكفر والظلم ، وما أقبح اجتماعهما ، ورغم أن الكفر أسوأ بكثير من الظلم ، إلا أن من سنة الله المشاهدة أن عقاب الدنيا مرتبط بالظلم أكثر من ارتباطه بالكفر ، فإن العقاب على الكفر حق الله وحده ، والله صبور ، يستوى عنده الزمن في الدنيا والآخرة ، أما عقاب الظلم فهو حق العباد ، والإنسان عجول يريد ثأره وحقه في عجلة ، ومهما يكن وضع المظلوم في الدين أو الكفر فهو في كل حال عبد لله ، وهو في رعاية الله ورحمته في الدنيا مهما بلغ من الكفر ، ومن حقه في الدنيا أن ينصفه الله من ظالمه ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأهمية الخاصة التي يوليها الله سبحانه لدعوة المظلوم ، وليس من هدف هذا المجال الاستطراد فيها ، وإنما يعيننا منها أن فرعون وقومه ظلموا بنى إسرائيل وبغوا عليهم بغيا شديدا ، فأصبح بنو إسرائيل مظلومين ، وقد أرسل الله اليهم رسولا هو موسى عليه السلام علمهم ، أو علم بعضهم أن يؤمنوا بوجود الله ، وأن يلجأوا الى الله لينقذهم مما هم فيه من ذل وهوان ، فدعوا الله وعلى رأسهم رسول الله موسى ، فاستجيب الدعاء ، فأهلك الله الظالمين فرعون وملاه ، ونجى المظلومين موسى وشعبه .

الصورة :

والصورة الساخرة تبدأ بعد هلاك الظالمين ، حيث أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فشق الله البحر ليجوز فيه موسى ومن معه ، ثم جاء فرعون ومن معه فدخلوا في الشق ليجوزوا ، فاذا هو يطبق عليهم فيغرقون .

وهنا يبدأ القرآن في رسم الصورة الساخرة من الهالكين ، في تعبير (فما يكت عليهم السماء والأرض) ومن الواضح في كل العقول ان السماء والأرض لا تبكيان عليهما ولا على غيرهما ، بل ولا يصدر منهما بكاء أصلا ، ولكن نفى بكائهما على هؤلاء الهالكين يتضمن أنهما يمكن أن يبكيان ، ويمكن أن يصدر منهما بكاء على غير هؤلاء ، وهذا ليس من الحقيقة ، وكل ما ورد في ذلك من الأحاديث النبوية والروايات المأثورة انما هو من باب المجاز .

ولكن الذى يعنى هذا الحديث هو اثبات وجود هذه الصورة المنفية ، وهى أن نتصور أن السماء والأرض تبكيان ، وأنهما كانتا يمكن أن تبكيان على هؤلاء الهالكين ، ولكنهما لم تبكيان ، فلماذا لم تبكيان ؟ بل لماذا صور القرآن أصلا هذه الصورة رغم عدم إمكان وجودها فى الواقع والحقيقة ؟

والاجابة ان الهدف هو السخرية من هؤلاء الهالكين الذين بلغ بهم الكفر والتحدى لله قبولهم ادعاء الألوهية من قائدهم فرعون ، ثم استجابتهم

لهذه الدعوى الباطلة وتنصيبهم آياه الها ، ثم أطغاهم ما أفاضه الله عليهم من نعم وخيرات وملك وحضارة ونعيم ، فظنوا أنهم كل شيء فى الكون ، وأن من عداهم انما هو مسخر لهم ، ويترتب على ذلك أنهم كأنهم كانوا يتصورون أنهم لو هلكوا فسيعم الحزن الكون كله ، فتبكى عليهم السماء والأرض ، ولكن الواقع أنهم حينما هلكوا لم يحدث شيء مما تصوروا ، فلم تبك عليهم السماء ولا الأرض ، بل خسروا كل ما كانوا فيه من نعم وخيرات ونعيم وملك عريض ، وورث الله هذا كله لغيرهم ، كما فى قوله تعالى :

[كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ،

ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما

آخرين] (٥)

وهنا أيضا تجدر الاشارة الى خطأ تاريخى وقع فيه المفسرون ، وهو كأن السياق أوحى اليهم بأن الذين ورثوا ما تركه الهالكون هم بنو اسرائيل وهذا مخالف لواقع التاريخ ، فان بنى اسرائيل خرجوا من مصر ، وكانت كل أمنيتهم التى حققها الله لهم على يد موسى عليه السلام هى النجاة من النذل والهوان فى مصر ، فحين هلك فرعون ومن معه لم يرث بنو اسرائيل شيئا مما تركه الهالكون ، بل لم يكونوا موجودين فى مصر أصلا ، ولفظ القرآن لا يحدد أن الوارثين بنو اسرائيل ، ولكن الواقع وكل الملابسات تحدد أن الوارثين هم الذين بقوا فى مصر ، فان شعب مصر لم يهلك كله بداهة ، وانما هلك فرعون والجيش الذى صاحبه لاعادة بنى اسرائيل ، فالذين بقوا أحياء هم الوارثون ، وهم غير الذين هلكوا ، فيصدق عليهم أنهم آخرون ، وهذا معنى (وأورثناها قوما آخرين) ، وهو معنى واضح لم يكن يستدعى لبسا ، وحديث القرآن عنهم فى مواضع أخرى يؤكد ذلك ، حيث خرجوا من مصر فعلا ، وبعد أن عبروا البحر الى سيناء حدث ما حدث منهم من عبادة العجل ، وغير ذلك ، ثم كتب الله عليهم التيه هناك أربعين سنة ، كقوله تعالى عنهم حين رفضوا أمر موسى آياهم أن يدخلوا الأرض المقدسة :

[قال فأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى

الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين] (٦)

ومع ذلك نجد المفسرين يقولون نحو قول الزمخشري فى تفسير (قوما آخرين) أى (ليسوا منهم فى شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم

• (٥) ٢٥ - ٢٨ سورة الدخان

• (٦) ٢٦ سورة المائدة

بنو اسرائيل ، كانوا متسخرين مستعبدين فى ايديهم فاهلكهم الله على ايديهم
وأورثوا ملكهم وديارهم (٧)

ولكن ابن جرير الطبرى وهو من أقدم المفسرين وأعلمهم (٨) يرجح
الرأى التاريخى الصحيح ، ويجعل احتمال أن يكون الوارثون هم بنو
اسرائيل رأيا مرجوحا ضمنا ، حيث يقول فى تفسيره جامع البيان (وأورثنا
جناتهم وعيونهم وزروعهم ومقامات وما كانوا فيه من النعمة قوما آخرين
بعد مهلكهم ، وقيل عنى بالقوم الآخرين بنو اسرائيل) ولكن وراثه بنى
اسرائيل ليست رأيا مرجوحا فقط ، وانما هو رأى بجانب للصواب ، ولعل
بعض اليهود الذين دخلوا الاسلام قد دسه على بعض علماء المسلمين
فتقبلوه بحسن نية فيما يعرف فى التفسير بالاسرائيليات .

(٦)

وفى صورة أخرى عن جهل المشركين فى عقيدتهم نحو الله سبحانه ،
وعدم قدره حق قدره ، يقول تعالى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد

منهم من رزق وما أريد أن يطعمون] (٩)

السياق :

وسياق الصورة أن الله سبحانه انما خلق الخلق من الجن والانس
جميعا لفرض واحد ، كان يجب على المشركين أن يفكروا فيه ، وهو أن
يطيعوه فى كل ما يأمرهم به ، وما يريد منهم ، وهو معنى العبادة فى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون]

فليس المراد العبادة الشرعية كالصلاة والصوم فقط ، وانما المراد
الطاعة العامة ، كعبودية العبد من البشر لسيده ، فانها تقتضى طاعته فى
كل ما يريد ، ويدخل فى عبادة البشر لله تنظيم شئون حياتهم المعيشية
والاجتماعية ، لأن الحياة مرادة لله ، فتنظيمها من طاعة الله وعبادته ، وقد
يقال فان أعداء الله ينظمون حياتهم ، بل غالبا ما ينظمونها خيرا مما يفعل

(٧) انظر تفسير الكشاف للآية السابقة .

(٨) توفى ابن جرير سنة ٣١٠ هـ .

(٩) سورة الذاريات .

المؤمنون ، لأنهم متفرغون لها ، وليس لهم هدف سواها ، فهل يعد ذلك من العبادة ؟ والجواب أن هناك مقياسا محددا وواضحا فى الاسلام ، وهو أن أساس الصلة بين البشر والخالق سبحانه هو الايمان به ، فاذا تحقق الايمان قبل من العبد كل عمل صالح ، أما اذا لم يتحقق فلن يقبل منه شئ لأن الصلة أصلا بينه وبين الله غير موجودة .

وقد أرسل الله رسله الى العباد ليعلموهم الصلة الصحيحة بربهم ، وقد كان المنتظر منهم حينئذ أن يشكروا الله على أن هيا لهم من يرشدهم الى خيرهم ، ولكن البشر جميعا يتفقون على شئ مضحك ، هو أنهم بدل شكر الله وشكر الرسل يتهمون رسل الله بأنهم سحرة ومجانين ، والمضحك هو أنهم لم يتهموا بهذا رسولا واحدا ، أو جماعة معينة من الرسل ، وانما اتهموا كل رسل الله بهذا دون استثناء ، والقرآن يسخر منهم فى هذا الوضع ، حيث يقول تعالى فى سياق الصورة التى نحن معها :

[كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا

ساحر أو مجنون ۞ أتواصلوا به ۞] (١٠)

والسخرية الواضحة هى فى قوله تعالى (أتواصلوا به) ؟ بمعنى : كيف حدث اتفاق كل الأمم فى كل العصور وفى كل الأماكن على اتهام رسل الله بالسحر والجنون ؟ ان هذا لا يتصور الا بأن يكون قد أوصى بعضهم بعضا بأن كل رسول يأتيهم يتهمونه بهذا ، ولكن هذا غير معقول ، لأن هذه الأمم لم يلتق بعضها ببعض ، لاختلاف الأزمنة والأمكنة اختلافا كبيرا ، فكيف حدث هذا الأمر العجيب المضحك أن يتفقوا جميعا على وصف واحد لكل رسل الله بالذات دون رسل غيره ؟ ويجيب القرآن عن هذا بقوله

[بل هم قوم طاغون]

فأسلوب السخرية نقل المعنى الحقيقى الذى هو مجاوزة المشركين حدود العقل والانصاف وهو معنى الطغيان (١١) الى أسلوب المجاز الذى يتضمن رسم صورة خيالية شبيههم بها ، وهى أنهم على اختلاف أجيالهم وأزمانهم وأماكنهم تجمعوا وتوصلوا بأن كل رسول يأتيهم من جهة الله بالذات يتهمونه بالسحر والجنون ، هذا مع استحالة تجمعهم لأنه وان أمكن فى العقل اجتماع المتباعدين فى المكان فلا يمكن اجتماع المتباعدين فى الزمان ، فلا يجتمع جيل سابق قد فنى مع جيل حى ، ولكنه أسلوب المجاز الذى نفاه القرآن وأضرب عنه بتعبير : (بل هم قوم طاغون)

(١٠) سورة الذاريات .

(١١) لأن الطغيان هو مجاوزة الحد ومنه (وانا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) .

ولو لم يطفوا ويجاوزوا حد الانصاف لكان يجب أن يستمعوا الى
الرسول ، ويفهموا عنهم ويستفيدوا منهم ، فسـيقولون حينئذ عن خلق
السموات والأرض وما بينها :

[ربنا ما خلقت هذا باطلا] (١٢)

الصورة :

وتتكون الصورة من عنصرين ، عنصر الحقيقة ، وهو :

[وما خلقت الجن الانس الا ليعبدون]

وعنصر السخرية ، وهو :

[ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون]

وذلك أن توضيح الحقيقة فى الآية الأولى بصورة لا لبس فيها ،
ويحصر الغرض من الخلق فى هدف واحد هو عبادة الخالق وطاعته يجعل
كل تفكير يخالف هذه الحقيقة الواضحة غريبا مستنكرا فى العقول
السليمة .

ولكن أسلوب القرآن فى مواضع كثيرة يدعوهم الى التفكير بعقولهم
هل خلق الله السموات والأرض باطلا بدون هدف ؟ وهل خلقهم هم عبثا ؟
فلم يبق الا أن ينفى لهم أنه خلق الجن والانس لا ليرزقوه ، ولا ليطعموه ،
ولكن هذا النفي كما تكرر القول يقتضى بالضرورة تصور الصورة قبل
نفيها حتى يتضح المعنى ، وكما يقال (بضعها تتميز الأشياء) فاذا قلنا
فلان ليس شجاعا ، فلن نفهم هذا النفي الا اذا فهمنا الشجاعة قبل
نفيها .

ومؤدى ذلك فى سخرية القرآن افتراض أن الله سبحانه خلق الجن
والانس ليستعين بهم على معاشه وطعامه ، كما يفعل الآدميون حين يحرص
الرجل منهم على انجاب بنين يستعين بهم على شئون حياته ، ومجرد
تصور هذه الصورة رغم نفيها يثير فى النفس سخرية بالغة بهؤلاء المشركين
الذين ينحدر تفكيرهم الى هذا المنحدر العقلى فى عقد أية موازنة بين الله
والمخلوقين ، فرغم نفي الصورة الا أن أساسها قبل النفي قام على تصور
شبه بين الله والآدميين .

وسخرية القرآن تتعمد الطرافة فى الصورة ، لأن استنكار الصورة
يتحدد بمقدار طرافتها وغرابتها ، وأطرف ما فى الصورة المنفية تصور
أن الله سبحانه محتاج الى معاشه ، ومحتاج الى من يطعمه ، ومعنى ذلك
أن يتصوروه سبحانه جائعا ، والقرآن ينفى ذلك كله ، ولكن بعد مثوله تخيلا

فى الذهن ، ويرد القرآن بالحقيقة ، وهى أنه ليس الله هو المحتاج الى شىء من عباده ، وإنما هو الذى يرزقهم ، وهم المحتاجون دائماً اليه ، ولذلك كان التعقيب بعد الصورة الساخرة المنفية :
[ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين]

(٣)

ومن الصور الساخرة بالنفى فى القرآن ، هذه الصورة :
[قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله
أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى
السموات ٠٠٠] (١٣)

الملايسات :

والصورة لا يحتاج توضيحها الى بسطة فى القول ، ولا الى ملايسات ، فان صدرها يتضمن ملايساتها ، وهو أنها خطاب الى المشركين الذين يعبدون شركاء لله :

[أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله] ؟

ومن المعروف أن الشرك هو الشائع بين بنى آدم فى كل العصور والأجيال حتى اليوم ، وأصحابه أغلبية كاثرة ، وهم صنوف ، منهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الشمس ، ومنهم من يعبد آدميا ، وغير ذلك ، وكلهم فى ضلال العقيدة سواء .

الصورة :

والصورة تتمثل فى :

[ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات]

وهو سؤال استنكارى يطلب الله سبحانه من رسوله أن يوجهه الى المشركين عن الذى خلقه آلهتهم من الأرض ، وهل لهم شركة فى السموات؟ والسخرية واضحة فى المعنيين ، فالمشركون أنفسهم يعلمون ولا يستطيعون أن ينكروا أن آلهتهم لم يخلقوا شيئاً فى الأرض ، وأنهم ليس لهم سهم أو شركة فى السموات ، ولكن السخرية الأشد طرافة أن صيغة السؤال تثبت أنهم خلقوا شيئاً أو أشياء فى الأرض ، وأن السؤال ليس عن أنهم

(١٣) ٤٠ سورة فاطر ، وتكرر أيضا فى الآية ٤ سورة الاحقاف .

خلقوا أو لم يخلقوا ، وانما عن نوع ما خلقوا على أساس أنهم خلقوا فعلا، حيث ان هناك فرقا بين أن تقول لشخص : هل أكلت اليوم ؟ وأن تقول له : ماذا أكلت اليوم ، فالسؤال الأول يتضمن أنك لا تعرف أنه أكل أصلا أو لم يأكل ، أما الثانى فيضمن أنك تعرف أنه أكل ولكنك لا تعرف نوع ما أكل، والسؤال فى الصورة الساخرة لم يقل مثلا هل خلقوا شيئا ؟ وانما يقول ماذا خلقوا ؟ بمعنى أنهم خلقوا فعلا ولكن المطلوب هو بيان نوع ما خلقوه ، وهذا غير حقيقى ، وانما هو سخرية من المشركين وعقولهم .

وكذلك السؤال الثانى فى الصورة يتضمن سخرية أخرى منهم وهو: (أم لهم شرك فى السموات) فان هذا السؤال بالاضافة الى السؤال الأول يتضمن تخييرا بين مضمون السؤالين ، بمعنى كأن القرآن يثبت أن آلهتهم ثبت لهم أحد الحقيقين ، اما أنهم خلقوا شيئا فى الأرض ، واما أن لهم نصيبا فى السموات ، والمطلوب من المشركين أن يحددوا أيهما كان لآلهتهم .

ومن الواضح أن هذا كله ليس من باب الحقيقة ، وانما هو سخرية من المشركين وعقولهم ، وكيف أنهم لا يفكرون حتى فى بدهيات الأمور ، فقد كان يجب عليهم بداهة وهم يعلمون أن آلهتهم لم يخلقوا شيئا فى الأرض ، وليس لهم نصيب فى السموات ، وأن هذا كله لله وحده ، ألا يعبدوا الا الله وحده ، فهو الخالق لكل شيء وحده ، وهو المالك لكل شيء وحده .

وانذلك يعقب القرآن على مثل هذه الصورة بقوله :

[ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن

زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده]

بمعنى أن الله ليس هو الخالق فحسب ، وانما بيده نظام الكون كله، وليس له شريك اطلاقا .

(٤)

ومن الصور الساخرة فى القرآن بالنفى الضمنى قوله تعالى :

[فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين] (١٤)

الشفة :

الأسف انفعال يحدث فى النفس نتيجة ألم نفسى ، يقال أسف فلان على ما فاتته، وأسف على ما ضاع منه ، أى حزن ، وأسف فلان فلانا أى ألمه وأحزنه ، ويقال عن الميت فلان مأسوف عليه ، أى محزون عليه .

(١٤) ٥٥ سورة الزخرف .

فهو في كل استعمالاته يدور حول الحزن والألم النفسي .
السياق :

وسياق هذه الصورة هو قصة فرعون في موقفه من رسول الله موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ، حيث صب فرعون طغيانه على اليهود فأنزلهم انزالا شديدا وفعل بهم الأفاعيل ، ولم يستجب لطلب موسى أن يترك بنى اسرائيل يخرجون من مصر ، ولا لتوسل بنى اسرائيل ، فصب الله على فرعون وقومه ألوانا من عذاب الدنيا ، يعبر عنه القرآن في مثل قوله تعالى :

[ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من

الثمرات لعلهم يذكرون] (١٥)

وقوله تعالى :

[فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا

وكانوا قوما مجرمين] (١٦)

ومع أنهم أيقنوا أن هذا العذاب الدنيوي من الله الذي أرسل موسى ، إلا أنهم أصروا على كفرهم وعتوهم ، ولكنهم حين ضاقت نفوسهم بما هم فيه من العذاب لجأوا الى موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب ، فان فعل فانهم سيؤمنون .

ولكن الطريق أنهم وهم في هذه الحال وهذه الضراعة يصوغون طلبهم من موسى في سخرية أو في انكار يتضمن سخرية فان صلب القضية بينهم وبين موسى عليه السلام أنه يدعى أنه رسول من عند الله ، بينما هم يدعون أنه ساحر ، فكان الوضع وهم يستعينون ، أو يلجأون اليه أن يجاروه في دعواه ، أو على الأقل لا يجابهونه بتكذيبه ، ولكنهم يقولون ما ينقله القرآن عنهم .

[وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك

اننا لمهتدون] (١٧)

والسخرية واضحة في قولهم (يأيها الساحر) في الوقت الذي يستغيثون به الى الله ، فقد كان يجب حينئذ أن يعترفوا بالله ، وبأن موسى رسول الله ، ولكنهم أصروا على عنادهم وشركهم .

• (١٥) سورة الأعراف ١٢٠

• (١٦) سورة الأعراف ١٢٣

• (١٧) سورة الزخرف ٤٩

وقد استجاب الله لنبيه موسى فرفع عنهم العذاب ، ولكنهم أيضا لم يؤمنوا وانما أصروا على كفرهم ، وعلى رفض الايمان بأن موسى مرسل من عند الله .

الصورة :

عندئذ تتضح مالبسات الصورة التي هي (فلما آسفونا ٠٠) فالأسف بالقياس الى الانسان حقيقة ، فكل انسان تنتابه عوامل وانفعالات يوصف معها بأنه آسف ، ولكن الأسف بالقياس الى الله مستحيل ، لأن الأسف انما يكون لأمر لا يستطيع الانسان تداركه أو تفاديه ، وهذا غير متصور بالنسبة الى الله سبحانه ، فلا شيء اطلاقا خارج عن مشيئته حتى يأسف عليه ، فنسبة الأسف الى الله في (فلما آسفونا) نسبة مجازية ، بمعنى أن ما فعلوه من الكفر والعصيان ونكث العهد والظلم يثير غضب الحليم من الناس ، وكذلك غضب الله عليهم .

ولكن الصورة الساخرة في حقيقتها هي أن لفظ (آسفونا) يصور كأن الله سبحانه أصبح بسببهم في صورة الأسف والحزن والشعور بمشاعر المغلوب على أمره الذي لا يملك الا الحزن والأسى ، وهذا كله مجاز وليس من الحقيقة في شيء ، لأن الله قادر على كل شيء ، فضلا عن أنه عالم مقدا بكل ما سيحدث منهم ، ولو أراد أن يمنعهم أو أن يفعل أى شيء لفعل ، ولكنه أسلوب القرآن الذي يصوغ المعانى الحقيقية في صورة طريقة تثير في النفوس التفكك والطرافة التي ترتد سخرية بهؤلاء المشركين وبعقولهم ، وكيف يتصورون أنهم بما فعلوا سيبلغون من الله سبحانه شيئا ، أو أنهم يستطيعون أن يثيروا فيه أسفا أو حزنا على شيء ، أو أن يتصوروه مثلهم يحزن أو يأسف أو يتألم .

فكل هذا بالقياس الى الله سبحانه مجاز ، وحتى لفظ الغضب الذي ينكر ووروده في القرآن كثيرا منسوبا الى الله ، هو في الحقيقة مجاز ، لأن الغضب في معناه اللغوي لدى الناس انفعال يحدث في النفس نتيجة سخط أو شعور بالضرر ، والانفعال في نسبته الى الله مجاز ، لأنه لا شيء اطلاقا يحدث دون مشيئته ، ولا يعجز عن منع شيء حتى يغضب لحدوثه ، وانما الحقيقة أن غضب الله هو العقاب على مخالفته ، فحينما يريد أن يعاقب أحدا على جرم عقابا دنيويا أو أخرويا يقال مجازا ان الله غضب على هذا الشخص ، بمعنى أراد أن يعاقبه .

وكان أسلوب القرآن يقول للناس ان ما يصدر من هؤلاء المشركين وأمثالهم يؤسف الانسان اذا صدر مثله من أحد ضده ، بمعنى أنه اذا فعل

أحد شيئاً ضد شخص مثل ما يفعله المشركون ضد الله ، فان هذا الشخص سيشعر بالانفعال والأسى رغم أن المعادى له بشر مثله وفي مستواه ، فكيف اذا صدر العداة والتحدى من الضعيف وهو الانسان الى القوى وهو الله ؟

(٥)

ومن الصور الساخرة بالنفى ضمنا فى القرآن الكريم قوله تعالى :
[قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ٠٠٠] (١٨)

السياق :

وسياق هذه الصورة حوار منطقى مع المشركين فى تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اهالتهم التهم والنقائص عليه ، ليقتنعوا العامة من الناس والأتباع بأنه ليس مرسلًا من الله ، وانما هو كاذب مفتر ، ففى آية سابقة على هذه الصورة نجد هذا الحوار الضمنى الحافل على ايجازه بالصراع بين الحق والباطل :

[واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين] (١٩)

ففى هذه الآية على ايجازها :

١ - عرض الدعوة الدينية ممثلة فى آيات الله ، وصورتها أنها واضحة الحق لا لبس ولا غموض فيها بتمبير (٠٠ آياتنا بينات) أى واضحة الدلالة على الحق .

٢ - موقف المعارضة من المشركين ويتمثل فى عدة اتهامات ضد الرسول ودعوته ، ومنها :

(١) السخرية من شخص الرسول والادعاء بأنه مجرد شخص مفضل .

(١٨) ٤٧ سورة سبا .

(١٩) ٤٣ سورة سبا .

(ب) الاحتماء بسُلطان العادات وقداستها حيث يتهمون الرسول بأنه مجرد شخص يريد تحطيم العادات والتهوين من قداسة الآباء والأجداد من السادة الماضين ، وذلك فى تعبير :

[وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان
يعبد آباؤكم]

(ج) تكذيب أن القرآن من عند الله :

[وقالوا ما هذا الا افك مفترى]

(د) محاولة ايجاد حجة تجوز فى عقول العامة ، حيث ان القرآن يهر العرب ، وأصغت الى روعة بيانه آذانهم ومشاعرهم وأفئدتهم ، فقادوا الشرك يريدون أن يجدوا حجة مقبولة فى تفسير الناس من القرآن ، فاهتدوا الى حجة ظاهرها يمكن أن تتقبله سطحية عقول العامة ، وهى ايجاد شبه بين تأثير القرآن والسحر ، فانهم يعرفون أن السحر يمكن أن يسلب تفكير المرء ويغير نظرته الى الأشياء ، وهم أيضا لاحظوا أن القرآن يؤثر فى سامعيه فيغير من تفكيرهم ومن موقفهم ، واذن فالقرآن فى ادعائهم هو نوع من السحر (أن هذا الا سحر مبين) وقد تعجب القرآن من عمق تفكير المشرك الذى كان أول من توصل الى هذه الدعوى ، ثم شاعت بعد ذلك ، وهذا فى قوله تعالى عن هذا المشرك :

[نرئى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا
ممدودا ، وبين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ،
ثم يطمع أن أزيد ، كالا انه كان لآياتنا عنيدا ،
سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، ففقتل كيف قدر ،
ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم
أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان
هذا الا قول البشر] (٢٠)

فالقرآن يؤكد عمق فكره وتدبيره (انه فكر وقدر) ثم يتعجب من كيفية وصوله الى هذا التدبير الذى ينتهى بوصف القرآن بأنه سحر ، ويكرر التعجب :

[فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ٠٠]

واذن فالصورة الساخرة انما جاءت فى سياق حافل بالصراع والجدل حول رسالة الرسول ومدى نصيبها من الصدق والحق .

ولكن فى هذا السياق تعبير ينبغى أن نقف عنده قليلا ، وهو لفظ (ذرنى) من جملة (ذرئى والمكذبين) فان لفظ ذرنى بمعنى اتركنى وهؤلاء ، وظاهره يتضمن كأن هناك من يحاول منع الله سبحانه من البطش بهؤلاء المكذبين ، والخطاب للنبي ، كأنه هو المانع لله ، وليس هذا موضع السخرية ، وانما الموضع هو الصورة نفسها ، صورة أن الله يريد أن يفعل بهم شيئا . ولكن يتدخل شخص آخر ليمنعه ، وهى صورة من الواضح أنها غير حقيقية ، ولكنها من أساليب القرآن الذى يقرب المعانى من عقول العامة حتى كأنه حديث أو تصوير لحياة الناس فيما بينهم من باب المجاز .

ولكن الاشارة الدقيقة فى صيغة (ذرنى) هى أن وجود رسول الله بينهم هو الحماية لهم من عذاب الله فى الدنيا من باب قوله تعالى :

[وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] (٢١)

ولكن القرآن يصوغ المعنى كأن الرسول يحاول منع الله من البطش بهم ، والله سبحانه يطلب منه أن يتركه وأياهم ، وما دام الله لم يبطش بهم فعلا فمعناه أن الرسول متشبه بمنع الله من الانزال بهم ، وان الله مستجيب له رغم محاولته سبحانه البطش بهم .

الصورة :

والصورة كما سبق هى :

[قل ما سألتكم من أجر فهو لكم]

فان منطوق التعبير اثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب منهم أجرا على تبليغ الرسالة لهم ، وأنه يتنازل لهم عن هذا الأجر ، ومن الواضح أن هذا كله ليس من الحقيقة ، وانما هو سخرية من عقولهم التى أهملوها ، ولو استخدموها لعرفوا فى غير جهد عقلى أنه صادق ، لأنه اذا لم يكن مرسلا من الله وأن الدعوة التى يدعو اليها هى دعوة الله فهى اذن دعوة لنفسه ولصلحته الشخصية ، واذن فهو مستفيد لنفسه من هذه الدعوة ماديا أو أدبيا ، فأما ماديا فهو أن يطلب مقابلا ماديا لجهدده وما يتحمله فى سبيل دعوته ، فهل طلب منهم أجرا ؟ وأما معنويا فهو أن يطلب منهم مقابلا معنويا لرسالاته وجهدده كأن يجعلوه زعيما أو ملكا ، فهل طلب منهم شيئا من هذا ؟ وهم يعلمون فى غير ريب أنه لم يطلب طلبا ماديا أو أدبيا ،

ههي اذن ليست دعوة لنفسه ومصالحته ، وانما هي كما يقول هو دعوة
الله وان كل مهمته أنه مرسل لتبليغها اليهم .

ولكن سخريه القرآن لا تنحرف في أسلوبها هذا المنحى ، وانما تثبت أن
الرسول طالب منهم فعلا أجرا ، ولكنه يريد أن يتنازل لهم عن هذا الأجر !

[ما سألتكم من أجر فهو لكم]

أما الحقيقة فهي في التعبير التالي للصورة :

[قل ما سألتكم من أجر فهو لكم أن أجرى الا على

الله وهو على كل شيء شهيد]

فالحقيقة هي (أن أجرى الا على الله) ، وفي هذه الحقيقة دقة من
آثار دقة كلام الله العليم بطبيعة الناس ، وهي أن الانسان لا يعمل شيئا دون
التطلع الى مقابل من أى نوع مادى أو معنوى ، فكأنه صلى الله عليه وسلم
يقول لهم بتوجيه من ربه انى بشر كسائر الناس ، وأتطلع الى مقابل لما
أبذله وأتحمله في تبليغ الرسالة ، ولكن هذا المقابل انما أطلبه منطلقيا ممن
أعمل له ، والذي أعمل له وأطلب منه أجرى هو الله وحده .

سخرية القرآن ومشاهد العقاب

والقرآن حين يعرض لمشاهد العقاب الذي يصطليه أعداء الله لا يكتفى بعرض العقاب الحسى ، وإنما يبرز أيضا جانب العقاب النفسى ، ليكون العقاب كاملا ، جسديا ونفسيا ، وليكون الزجر به والتخويف منه أبلغ فى النفوس .

ولكن الملحوظ أن القرآن إنما يهتم بإبراز العقاب النفسى فى مجال الحديث عن السادة وعلية القوم ، فهؤلاء هم الذين يؤلمهم العقاب النفسى كالأهانة والاذلال أشد مما يؤلم عامة الناس ، والفرسان والشجعان من الناس فى كل بيئة لا يحذرون الموت على أية صورة ، وإنما يحذرون الهوان والذل ، كما يقول الشاعر العربى القديم .

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسياب

فالتعرض للموت بيد الأعداء والأقران ليس مما تحذره نفوسهم فضلا عن أن تخافه ، ولهم فى ذلك مآثرات وأشعار لا تكاد تحصى ، ومن ذلك قول عروة بن الورد العيسى :

فإن فاز سهم للمنيعة لم أكن

جزوعا وهل عن ذلك من متأخر ؟

ولذلك كانت مجالس القضاء العرفى الذى يتمثل فى الأشخاص الذين يختارونهم للحكم فيما يحدث بين الأفراد والجماعات من تنازع أو عدوان ، كانت هذه المجالس تلتزم أن تكون عقوبة العدوان بالأهانة أشد من عقوبة العدوان على البدن ، فعقوبة الصفع أو الشتم المهين مثلا أشد من عقوبة

الضرب مهما كان مؤلماً ، على أساس أن الاهانة أشد نيلاً وإيلاماً للنفس
الكريمة من الألم الجسدى مهما يبلغ .

والقرآن يتجاوز مرحلة الانذال لأعداء الله بمرحلة أخرى فى الايلام
النفسى ، وهى السخرية منهم ، فان الانذال مهين مؤلم للنفس الكريمة ،
ولكن درجات وألوان ، فقد يكون الانذال أحياناً بمجرد اشعار الخصم
بالعجز ، أو بارغامه على تقبل ما لا يريد أو نحو ذلك ، ولكن أسلوب
القرآن يزيد عن ذلك أن يصب على أعدائه سخرية مرة وهم يصطلون العذاب
البدنى ، أو وهم قادمون عليه ، حتى لا يبقى فيهم شيء غير معذب من
أجسادهم ونفوسهم معا .

ولا شك أن الهدف الوحيد من عرض هذا فى القرآن إنما هو نوع من
رحمة الله بأعدائه أنفسهم ، حيث يحذرهم من هذا العذاب مقدماً فى وقت
يملكون فيه النجاة بأنفسهم وهو وجودهم فى الحياة الدنيا حيث
يملكون الايمان بالله ، فينحون بأنفسهم ، بل ينتقلون بها الى خير كثير .
والقرآن حافل بهذه الصور الساخرة من أعداء الله فى الآخرة ،
ومن هذه الصور قوله تعالى اشارة الى جهنم وما فيها :

(١)

[هذا فزلهم يوم الدين ٠٠] (١)

اللفظة :

(النزل) فى لغة العرب بضم النون والزاي أو بضم النون وسكون
الزاي هو ما يعد للضيوف أو النازلين بصفة عامة ، وهى ما يسمى اليوم
بالفندق ، وما زالت بعض البلاد العربية تسمى الفندق فيها نزلاً .

السياق :

وسياق الحديث فيما يسبق هذه الصورة يبرز أنه خاص بطبقة السادة
والأغنياء وقادة المجتمع بصفة عامة ، اما بمناصبهم واما بأموالهم ، واما
بجاههم وأحسابهم ، فهؤلاء كما سبقت الاشارة آنفا الذين ينال من نفوسهم
الذل والهوان ، وهم فى الوقت نفسه العقبة الكئود أمام الاسلام فى
انتشاره ، وأمام الراغبين اليه ، والقرآن يشير الى هذه الطبقة بالترف فى
قوله تعالى فى سياق هذه الصورة :

[انهم كانوا قبل ذلك مترفين] (٢)

فهم أذن طبقة الخاصة فى المجتمع ، لأن المترفين لا يكونون فى العادة من عامة الناس ، فان الترف انما يكون من غنى واسع ، والغنى وسيلة تمييز وعلو فى كل مجتمع .

وجريمة هؤلاء المترفين تكذيبهم بالدين ، وبالبعث بعد الموت ، بل انهم يصوغون تكذيبهم هذا فى لون من السخرية ، حيث يقولون :

[انذا متنا وكنا ترابا وعظاما اننا لمبعوثون]

ففى أسلوبهم نغمة واضحة السخرية ، ولو لم يقصدوا الى السخرية من البعث ومن القائلين به لقالوا مثلا : لن نبعث بعد أن نكون ترابا وعظاما نحن وآباؤنا ، ولكنهم يصوغون انكارهم وتكذيبهم فى هذا الاستفهام الساخر (انذا متنا ٠٠٠) ثم (اننا لمبعوثون) ؟ وأوضح ما فى السياق اقترانا بالصورة وتمهيدا لها هذه الآيات الكريمة :

[وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى

سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد

ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مقرفين ، وكانوا

يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون انذا

متنا وكنا ترابا وعظاما اننا لمبعوثون ، أو آباؤنا

الأولون ، قل ان الأولين والآخرين ، لمجموعون الى

ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون

الكتيبون ، لاكلون من شجر زقوم ، فمالئون منها

البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون

شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين] (٣) .

وهذا السياق يتضمن فيما يتضمن :

١ - وصف للعذاب الشديد الذى ينتظرهم فى جهنم .

٢ - وصف لحال هؤلاء المترفين على أساس أنهم فعلا فى جهنم .

٣ - سخرية من حالهم فى أثناء العذاب ، وسخرية من استقبالهم قبل العذاب ولكن قبل أن يصل الى الحديث عن الصورة الساخرة نجد

القرآن يرسم لهم صورة أخرى ساخرة من هيئتهم وهم يصطلون العذاب ،
وهي من آيات السياق السابق فى قوله تعالى :

[٠٠٠ فُشاربون عليه من الحميم ، فُشاربون شرب
الهميم]

والسخرية تتمثل فى

[فُشاربون شرب الهميم]

والهميم مفردة اهميم للمذكر ، وهيماء للمؤنث ، وهو من أوصاف
الابل ، فالابل الهميم هى العطاش ، وأصل الهيام العطش الشديد ، وهيمان
أى عطشان ، ولكن لابد أن يكون العطش شديدا ليس فى صورة العطش
المألوف ، حتى انهم يصفونه بأنه مرض يصيب الابل فيجعلها تعطش فلا
ترتوى ، وهذا ليس بغريب فبعض أمراض الناس من أعراضها العطش
الشديد ، ومن معنى الهيام أخذوا معنى العشق الشديد مراعاة لرابطة عدم
الارتواء فى كل منهما ، ثم أصبحت دلالة الهيام على العشق دلالة أصلية
فى اللغة من كثرة استعمالها .

وسخرية أسلوب القرآن هى تصوير هؤلاء المشركين حين يعرضون
فى جهنم على الحميم وهو نار مذابة فيلقى الله فى أجوافهم عطشا هائلا
فلا يملكون الا أن يشربوا من هذه النار السائلة ، ومهما اشتد بهم الألم
فإن شدة العطش تزيدهم عيا من هذه النار ، فعأنهم حينئذ قاطمان من الابل
المصابة بداء الهيام الذى يجعلها تشرب وتناول من الماء فلا ترتوى .

الصورة :

وأما الصورة الساخرة وهى (هذا نزلهم يوم الدين) فانها تتمثل فى
الإشارة بلفظ هذا الى مكان أو شىء معين فيقال انه نزلهم أى المكان أو
الضيافة التى أعدت لهم ، فإن الأسفار كانت تضطربهم كما تضطر أى
مجتمع الى ايجاد أماكن ينزل بها المسافرون ، وكل صاحب نزل يهمله
بطبيعة الحال أن يهوى فى نزله كل وسائل الراحة والمتعة للنازلين حتى
يغريهم بالنزول عنده ، فحينما يسمع السامع أن هؤلاء المترفين من سادة
الشرك أعد لهم نزل يشار اليه بتعبير (هذا نزلهم) يتوقع لأول وهلة أن
تكون فى هذا النزل كل وسائل الراحة والرفاهية ، خصوصا وأن هؤلاء
النازلين ممن تعودوا الرفاهية لأنهم (كانوا قبل ذلك مترفين) وحتى
لا يحدث فى ذهن السامع لبس فيقوهم أن الحديث متجه الى نزل فى الدنيا ،
فإن التعبير يحصر ذهنه فى الآخرة ، وذلك بتعبير (يوم الدين) .

ولكن طرافة السخرية تتركز فى التناقض الذى يحدث فى ذهن السامع مهما كان زمنه وجيزا بين كونه يعرف من السياق أن الحديث عن أعداء الله ، وعن عذاب شديد لهم وبين أن يرى ضيافة ممتعة ومكانا مريحا قد أعد لهم ، فهنا تكمن السخرية من أعداء الله ، وسرعان ما يدرك السامع أن التعبير بالنزل المعد لهم ليس الا سخرية بهم ، فان المعد لهم حقيقة انما هو عذاب متعدد جوانب الايلام الرهيب .

(٢)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

[انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم الى الأنقان

فهم مقمحون] (٤) .

اللفظة :

الاقمّاح فى لفظ (مقمحون) هو رفع الرأس مع غرض البصر ، وهو من مظاهر الأبل حين يراد حبسها عن السير أو الحركة ، فتجذب رأس البعير بالرّسن (٥) الى الخلف ، فترتفع رأسه ، فتكون الرأس مرتقوعة الى أعلى ، ولكن الأنف أو الوجه يتجه الى أسفل ، وبالتالي يكون البصر متجها الى أسفل ، وهذا معنى أن اقمّاح هو رفع الرأس وغرض البصر .
والأغلال واحدها الغل (بضم الغين) وهو ما يحيط بالعنق لتقييد الحركة ، والفرق بينه وبين القييد ، أن القييد يكون فى الرجلين أو اليدين ، أما الغل فيكون فى العنق .

السياق :

والسياق يدور حول قوم من المشركين الذين يدعورهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان ، ولكنهم أصموا آذانهم ، وأعموا أبصارهم ، وأغلقوا عقولهم عن هذه الدعوة ، حتى لا يتسرب شعاع منها الى نفوسهم ، فلا أمل والحال هذه فى ايمانهم .

ولكن القرآن يصور عزلتهم عن الايمان فى صورة حسية ، كأن هناك حواجز وسدودا منيعة تحول بينهم وبين الايمان سواء من أمامهم أو خلفهم ، وفوق ذلك وضعت على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا من حولهم شيئا ، فهم

(٥) الرّسن : هو المقود الذى تقاد به الدابة .

أذن غير مبصرين ، وحتى لو أبصروا فإنهم محجوزون بهذه الحوائل المنيعة من أمام ومن خلف ، كما يقول تعالى :

[وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا
فأغشى بينهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون] (٦)

فعدم الأمل فى ايمانهم مهما دعاهم الرسول هو نتيجة لأنهم معزولون عن الايمان بعدة حواجز ، فلن تشعر به نفوسهم .

الصورة :

[انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأنقان فهم
مقمحون]

تصوير القرآن الساخر يمثلهم فى حال معينة ، هى حالهم والرسول يدعوهم الى الايمان ، ولكنهم كأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، لأنهم عطلوا حواسهم ، بل ولا يشعرون بوجود الداعى لأن بينهم وبينه سدودا منيعة، فأشخاص هؤلاء المشركين موجودة، والدعوة موجهة اليهم ، ولكنهم كأنهم لا يحسون بالدعوة ولا بصاحبها .

فهم حينئذ أشبه ما يكونون بمنظر الجمل المقمح الذى شد صاحبه زمامه فرفع رأسه ، ولكن شده الى الخلف يفرض عليه توجيه وجهه الى أسفل ، فهو فى ظاهره مرفوع الرأس ، ولكنه فى حقيقته منكس الوجه ، وهذا أوضح ما يكون فى وجه الشبه بين البعير المقمح وبينهم حينئذ ، من حيث أن من يرى المشركين فى حركتهم العادية وشموخ أنوفهم ، واعتزازهم بأنفسهم يحسب أنهم فى كامل وعيهم وادراكهم ، بينما هم فى حقيقة أمرهم منتكسون عن الفطرة السوية انتكاسا شديدا ، حيث ان الفطرة تدعوهم الى الايمان ، ولكنهم يرفضون ، وأسوأ من ذلك أنه لا أمل فى تقويم مداركهم ، لأنهم اغلقوها دون الايمان اغلاقا محكما .

ولكن الطرافة تتمثل فى صورتهم وكأنهم قطيع من الابل وهى فى وضع الاقماع المعروف لكل سامع عربى حينئذ .

والصورة وأن كانت فى الدنيا تصويرا لنفوسهم من الدين الا أن عناصرها وخصوصا الأغلال مأخوذة من الآخرة .

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :
 [وقال الذين فى النار لخصنة جهنم ادعوا ربكم
 يخفف عنا يوما من العذاب] (٧)

والسخرية تتركز فى لفظ الخزنة .

اللفظة :

الخرنة جمع خازن . والخزانة هى ما يحفظ فيه المال أو الشيء الثمين
 الذى يخشى ضياعه أو امتداد يد اليه لكونه موضع الطمع فيه ، والخازن
 هو القائم على الخزانة والحافظ لها ، والخرنة جمعه .

السياق :

وسياق الصورة يبدأ بحوار بين السادة والأتباع فى جهنم ، ثم ينتقل
 الحوار فيصلح بينهم جميعا وبين الملائكة القائمين على أمر جهنم ، وكلا
 الموقفين لا يخلو من طرافة ، ومن سخرية معا .

فأما الموقف الأول فهو أن الأتباع وقد كانوا فى الدنيا تابعين
 للسادة ، والسادة كفروا ورفضوا الدعوة الى الايمان ، فانساق الأتباع
 وراءهم ، على أمل أنهم أعرف منهم بالصواب من جهة ، ومن جهة أخرى
 فانهم يرون السادة حماية لهم ، لأنهم الذين يتصدون لمواجهة الأمور
 والأحداث ، فالأتباع وهم فى جهنم ينظرون أو يطلبون من السادة أن يؤدوا
 تبعات السيادة التى كانت لهم فى الدنيا ، والتى كانت سببا فى وجود
 الأتباع فيما هم فيه من عذاب جهنم .

[فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً

فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار] ؟

فالأتباع لا يطلبون منهم انقاذهم من العذاب كله ، وانما يلتمسون
 منهم تخفيف العذاب ، وكانهم يطلبون منهم أيسر ما ينتظره المسود من
 سيده ، أن يحميه أو بعض الحماية ، فيرد عليهم السادة ردا لا يخلو
 من تهكم ، وكانهم يسخرون من أنفسهم فيقولون (انا كل فيها) بمعنى
 أننا لم نعد سادة ، وانما أصبحنا مثلكم ، لا نملك لكم ولا لأنفسنا شيئا ،

على أن طلب الأتباع من السادة هو في حقيقة الأمر سخرية يوجهها الأتباع إلى السادة ، لأنهم يعلمون حينئذ علم اليقين أنهم لن ينفعوهم في شيء فكانهم يسخرون من السادة ، بل ومن أنفسهم أيضا مستعدين صسورة الحياة الدنيا ، وكيف أنهم انساقوا بجهل وغباء وضعف وراء السادة فأصبحوا فيما هم فيه اليوم .

وهذا المعنى ولا شك حين يورده القرآن فانما يوقظ الأتباع وينبههم حتى يفكروا اليوم في حياتهم الدنيا قبل فوات الأوان .

وأما الموقف الثاني فحين ييأس الأتباع من أن يجدوا عند السادة نفعاً ، ويصبحون هم والسادة في العذاب سواء يتحدون جميعاً في الألم والشعور بشدة العذاب ويبحثون عن أية وسيلة يتخيلون فيها غناء عنهم ، أو شيئاً من رحمة بهم فيلجأون إلى الملائكة القائمين على جهنم يستعطفونهم أن يدعو الله أن يخفف عنهم ولو يوماً يلتقطون فيه أنفاسهم من شسدة العذاب ، ومن الطريف أنهم لا يقولون لهم ادعوا (الله) وانما يقولون (ادعوا ربكم) وكأنهم يخجلون من ادعاء الأيمان اليوم ، أو مراعاة أن الملائكة وقد التزموا العبودية لله فهم قرييون منه ، وهو قريب منهم ، أما هم فيخالف هذا .

وتكن الملائكة يرددون عليهم في سخرية واضحة منهم ، حيث يسجلون عليهم أولاً أنهم تعمدوا الكفر ، وبهذا يكونون هم الذين اختاروا لأنفسهم عامدين ما هم فيه اليوم ، ثم يوجهون اليهم السخرية التي يحكيها القرآن في قوله (قالوا فادعوا) طالبين منهم أن يدعوا هم هذا الدعاء ، ووجه السخرية أن الملائكة والكافرين معا يعلمون على وجه اليقين أنه لن يقبل يومئذ دعاء من أحد ، لأن ذلك انما يكون في الدنيا ، ومع ذلك يتسولون لهم (فادعوا) سخرية وتهكما ، ولذلك يعقب القرآن بعد ذلك بأسلوب الحقيقة وهو :

[وما دعاء الكافرين إلا في ضلال]

وآيات السياق هي :

[واذا يحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنقم مغنون عنا فصيبا من النار ، قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين في النار

لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من
العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات
قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في
ضلال [(٨)

الصورة :

[وقال الذين في النار لخزنة جهنم ٠٠٠]

وتركيز السخرية هو في لفظ الخزنة ، حيث انه من البدهي أن جهنم
ايست فيها الا النار والوان العذاب الشديد وكل هذا لا يحتاج حفظا ، ولكن
اسلوب القرآن يعبر عن جهنم بأنها تحتاج الى خزنة ، ومعنى ذلك أنها
خزانة ، أي أن ما فيها أشياء ثمينة كالمال من ذهب أو فضة أو جواهر ،
وأنها مطمع للطامعين ، وكأنه يخشى أن يتسلل اليها بعض اللصوص
ليسرقوا مما فيها ، كما يفعلون ازاء الخزائن ، فكانت في حاجة الى حراس
وحفظه ليحافظوا على ما فيها ، فجعل الخزنة ليتولوا هذه المهمة ، وهي
مهمة المحافظة على جهنم وما فيها من أشياء ثمينة ، ولكن شيئا من ذلك
ليس من الحقيقة ، وانما هو أسلوب السخرية من الذين يعذبون فيها ،
كما وصفها القرآن بأنها (نزل) أي مكان مريح وضيافة طيبة معدة
للنازلين فيها ، وكما وصف أسلوب القرآن عذابها بأنه بشرى للمعذبين ،
كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) ، وكل ذلك ليس الا سخرية
ونهما .

والجاحظ بحسه المرفف ، وذوقه اللماح يعبر بأسلوبه الفكاهة المميز عن
هذه السخرية فيقول عن وصف ملائكة جهنم بالخزنة ٠٠

والخزنة الحفظة . وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار
دخولها انسان فيمنع منها ٠٠) (٩)

وذلك على أساس توسعة في دلالة لفظ الخزنة ، حيث يجعله للدلالة
على الخازن القائم على حراسة خزانة ، وللدلالة على الحارس مطلقا ،
سواء كان حارسا لخزانة أم غيرها ، وللدلالة على الحاجب ونحو ذلك ،
فكل هذه استعمالات مجازية لا يناسب شيء منها جهنم على الحقيقة ،
وانما هو أسلوب مجاز يراد به التهكم والسخرية .

(٨) ٤٧ - ٥٠ سورة غافر .

(٩) البيان والتبيين ١٥٣/٢ .

الأثر :

وهذه الصورة كأي شيء في القرآن ليس مرادا بها مجرد التفكك ، وإنما هي رسالة واضحة موجهة الى المشركين عامة ، والى الأتباع بصفة خاصة ، ليستخدموا عقولهم ، ولا ينساقون وراء ضلال السادة والقيادة بدون وعي ، فانهم لن ينفعوهم في شيء ، غير أن الرسالة مصوغة بأسلوب فكه طريف .

(٤)

ومن الصور الساخرة في مشاهد العقاب في القرآن :

[نبق أنك أنت العزيز الكريم] (١٠)

السياق :

كما سخر القرآن من السادة كثيرا لينبه الأتباع الى حقيقتهم في الدنيا ، فانه يسخر من حالهم في الآخرة ، ليبين للقامة والأتباع مصيرهم في الآخرة ومن ذلك هذه الصورة التي نحن معها فانها منصبة على شخص متميز في سيادته ، بحيث لم يكن سيدا وزعيما فحسب ، وانما كان منفردا بمنزلته في السيادة ، بحيث لا يناافسه في هذه المنزلة أحد من السادة الذين هم دونه مكانا ، ويصور السياق العذاب الرهيب المعد لهذا الزعيم القريد في زعامته ، فيصف هذا العذاب بوصف ساخر ، حيث يجعله كأنه طعام من شجرة ، وحينما تذكر الشجرة والأكل منها ينصرف الذهن الى شجرة الفاكهة ، فكأن هذا الطعام فاكهة معدة لهذا الزعيم ، وهذا يتضمن أن تكون فاكهة من أجود الفواكه ، لتناسب مكانة هذا الزعيم الكبير ، وكأنه سيجد لذة ومتمعة في هذه الفاكهة فيأكل منها كثيرا حتى يعطش ، فيطلب ماء ، فيجاء له بماء ، ومن شدة العطش الذي نتج عن كثرة الأكل يصبون عليه الماء صبيا ، ولكن المفاجأة الطريفة الساخرة أن الشجرة ليست شجرة فاكهة والماء ليس ماء شراب وانما الشجرة نار في صورة شجرة والماء أيضا نار في صورة ماء ، وعلى هذا الزعيم أن يأكل من هذه الشجرة أكلا كثيرا ، وهو حينئذ مسخر لا يملك ولا يستطيع أن يرفض شيئا ، وعليه أيضا أن يشرب شربا نهما من هذه النار التي هي في صورة ماء ، وهذا السياق في قوله تعالى :

[أن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى
في البطون ، كغلي الحميم ، خذوه فاعقلوه الى
سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب
الحميم] (١١)

(١٠) ٤٩ سورة الدخان .

(١١) ٤٣ - ٤٨ سورة الدخان .

والمهل فى أغلب دلالاته عند العرب هو دردى الزيت أى الطبقة الرديئة منه فى قاع الوعاء ، والحميم هو الماء الحار ، والمثل هو الجذب بشدة وعنف ، وتشبيهه على الزيت يظلى الماء أن الزيت العادى حين يظلى يكون ساكنا ، ولكن الماء حين يظلى يرتفع ويتقلب ، وهنا وجه الشبه ، حيث ان طعام شجرة الزقوم يشبه دردى الزيت يظلى فى البطون ، وتبلغ حرارته درجة تخرجه عن طبيعة الزيت فيظلى غليان الماء وليس غليان الزيت (كالمهل يظلى فى البطون ، كظلى الحميم) .

الصورة :

والصورة الساخرة تتمثل فى تعبير (ذق انك أنت العزيز الكريم) وقد سبقت الاشارة الى أن أهم أسباب الشعور بالطرافة التى تثير الفكاهة أو الضحك أو العجب هو مفاجأة الذهن بما لم يكن يتوقع ، أو بعكس ما كان يتوقع ، والذهن هنا يتابع وصف العذاب الرهيب الذى يعد لهذا السيد الذى كان يحتل وحده قمة السيادة فى المجتمع فى حياته الدنيا ، ويتابع الاهانة والاذلال الذى يعامل به فى الآخرة ، فقد أعد له عذاب فظيع ثم أخذوه الى هذا العذاب فى أسوأ صور الاذلال لمثله (هذوه فاعتلوه الى سواء الحميم) والمثل هو الجذب فى عذف وقسوة ، وهذا أبلغ الاهانة لمثل هذا السيد ، وكذلك حين يقال (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) .

وحيث أن يكون واضحا فى ذهن السامع أن كل ما سيأتى فيما يتعلق بهذا الزعيم لابد أن يكون عذابا واذلالا قياسا على ما سبق ، ولكنه يفاجأ بأن الأسلوب يأخذ مجرى النقيض من السياق السابق ، حيث يقولون له (ذق انك أنت العزيز الكريم) ، وهذا التعبير يتضمن فى ظاهره رفقا وتكريما لهذا الزعيم من ناحيتين :

١ - لفظ (ذق) فيه رقة ولطف ، حيث انه يستعمل فى اختيار طعم الأشياء ذات الطعم ، ولكن من يقوله انما يقوله عادة حين يكون واثقا من لذة طعم هذا الشيء ، فأنت حين تريد شراء فاكهة من بائع ، وتسأله عن مدى جودة طعمها لا يقول لك (ذق) الا اذا كان واثقا من طيب طعمها ، فكذلك حين يقولون لهذا الزعيم (ذق) فان هذا يقتضى أن يكونوا واثقين من لذة طعم ما يقدمونه اليه ، وهذه سخريه بالغة من هذا الزعيم ، فانهم يعلمون أن ما يقدمونه اليه لا يذاق أصلا ، لأنه نار تتلظى ، هذا فضلا عن أن ما يقدم اليه لا يقدم اليه ليذوقه فحسب ، وانما ليملا منه جوفه .

٢ - تعبير (أنتك العزيز الكريم) فيه أسلوب تأكيد ، وأسلوب قصر ، فالتأكيد بلفظ (أن) ومعناه تأكيد نسبة العزة والكرم الى هذا الزعيم ، والقصر فى جملة (أنتك العزيز الكريم) ومعناه أنت العزيز الكريم وحدك دون غيرك ، وهذه سخرية أخرى أشد من السخرية الأولى ، فانه حينئذ ليس عزيزا ولا كريما ، بل ولا شخصا عاديا ، وانما هو فى حضيض الذل والهوان فضلا عن العذاب البدنى .

وليس هناك ما يدعو الى تأويل الألفاظ واخراجها عن دلالتها العربية، كما يرى بعضهم ، فانهم لا يتصورون كيف يقال لمثله حينئذ هذا فيحاولون حمل الألفاظ على عكس معناها ، وفى هذا خروج على اللسان العربى الذى يحدد القرآن أنه نزل به ، هذا فضلا عن أن مثل هذا التأويل يضع هدفا من أهداف أسلوب القرآن ، وهو العذاب النفسى لمثل هذا السيد بالسخرية منه ، والتهكم بموقفه يومئذ .

ومع ذلك فان أسلوب السخرية لا يبعد كثيرا عن أسلوب الحقيقة الذى يريدون أن يلتزموه ، فان السخرية تتضمن كأنهم يقولون له : لقد كنت فى الدنيا سيذا مطاعا ، وكنت متفردا بالسيادة والعزة ، فانظر هل يغنى عنك اليوم هذا حيث كفرت وعصيت وصددت عن سبيل الله ؟

ثم تختم الصورة بهذا التعبير الذى لا يخلو أيضا من سخرية ، حين يقولون له مشيرين الى العذاب (ان هذا ما كنتم به تمقرون) أى انكم كنتم تكذبون بوجود العقاب فى الآخرة ، فهذا هو العقاب .

(٥)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب :

[وبشر الذين كفروا بعذاب أليم] (١٢)

اللغة :

البشارة تدور حول السرور ، ولا تكون الا للاخبار بشيء سار ، فهى فى لغة العرب دائما للخير ، ويقال بشره بفتح الشين وبتشديدها اذا نقل اليه خبرا فيه خير ومسرة له ، وكذلك أبشره ، والبشرى هى مصدر السرور ، والبشر بكسر الباء طلاقة الوجه ، والبشارة بفتح الباء الجمال ، ويقال رجل بشير ، وامرأة بشيرة اذا وصفا بالحسن ، فالمادة كلها تدور حول ما يبعث على السرور .

السياق :

يتكرر في القرآن استخدام البشارة موجهة الى كل أعداء الله ، سواء من الكافرين بعامة ، ومن المشركين ، ومن اليهود بخاصة ، والمكلف بحمل هذه البشارة اليهم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أن الله سبحانه يطلب منه أن يحمل اليهم البشرى .

الصورة :

وحيث يسمع العربي لفظ البشارة فإنه لا يلتوى عليه فهم مدلولها ، فهى من الألفاظ المتداولة بين العامة والخاصة ، فيفهم منها بدهة أن الله سبحانه يكلف رسوله أن يحمل الى أعداء الله بشرى تدخل الى نفوسهم السرور ، وتملاً قلوبهم بالبهجة ، ولكنه يفاجأ بأن هذه البشرى التى يحملها اليهم الرسول انما هى عذاب ، بل عذاب اليم .

وهنا يحدث التناقض الذى يثير فى النفوس الطرافة أو العجب ، فان الذهن حينما يرد عليه لفظ البشرى يوطن خياله على مسار معين ، هو صورة سرور وفرح قادم ، ولكنه يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، انه ألم شديد ، ولو كان السياق يشير الى ذلك ما وجدت النفوس حينئذ طرافة أو عجباً ، حيث يكون هو المتوقع .

وكذلك الحال بالقياس الى أعداء الله ، فان القرآن موجه اليهم كما هو موجه الى غيرهم ليكون حجة على جميع عباد الله ، فحين يسمعون مع كفرهم أن هناك رسولا يحمل اليهم بشرى ، فان نفوسهم لأول وهلة تمتلىء بالرضا والتطلع الى الخير والسرور المنتظر ، خصوصا وأنهم بغرورهم وجهلهم يتصورون أنهم يستحقون ذلك ، ولكنهم يفاجأون بأن البشرى التى تزف اليهم انما هى عذاب اليم ، ومهما يكن الزمن بين الأمرين وجيـزا ستحدث فى نفوسهم صدمة أو نوع من الاحباط .

ولكن الأهم من ذلك هو تعذيبهم نفسيا بهذه السخرية منهم ومن حالهم ، فان مخاطبة الشخص بأسلوب الحقيقة أكرم له مهما يكن المضمون سيئا ، أما السخرية فانها اهانة واستخفاف ، ولو أن شخصا اقتيد الى عقاب فقيل له انك مقود الى العقاب فان هذا أكرم له من أن يقال له انك مدعو الى ضيافة أو اكرام ، لأن الحديث عن الضيافة والاكرام حينئذ اهانة له ، وعقاب آخر يضاف الى العقاب المقود اليه .

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :
 [هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا

أم أنتم لا تبصرون] (١٣)

وصلب الصورة الساخرة هو :

[أفسح هذا] ؟

السياق :

وسياق الصورة كله تصوير مجسد لحال المشركين المكذبين بالدين ،
 وبما يدعو اليه من الايمان بالغيبات ، وخصوصا الآخرة وما فيها ، فهم
 يكذبون بالبعث والحساب والجنة والنار ، وكلما حذرهم رسل الله من عقاب
 الآخرة ، ومن جهنم سخروا منهم وكذبوا بكل ذلك .

فيصور القرآن كيف يكون عقابهم فى الآخرة ، وهو عقاب من نوعين ،
 عقاب مادي يسلط على كل ذرة فى أجسادهم ، سواء فى ظاهر الأجساد ،
 وفى باطن الأجواف ، وعقاب نفسى يتمثل فى السخرية منهم ، وفى تذكيرهم
 بما كانوا فيه فى الدنيا من تكذيب وغرور وطغيان وضلال ، والقرآن يصور
 هذا فى قوله تعالى :

[فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض
 يلعبون ، يوم يدعون الى نار جهنم دعا ، هذه النار
 التى كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم
 لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا
 سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون] (١٤)

والدع : الدفع الشديد .

فالسباق يصور هؤلاء المكذبين حين يساقون الى العذاب وقد
 جفلوا وتراجعوا عند رؤيتهم نار جهنم ، ولكن زبانية جهنم يدفعونهم اليها
 دفعا ، وهم لا يستطيعون أن يقاوموا دفع الزبانية ، حتى يستقروا فى جهنم

الصورة :

[أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون] ؟

(١٣) ١٥ سورة الطور .

(١٤) ١١ - ١٦ سورة الطور .

والسخرية تتركز فى هذا المشهد الذى يسخر فيه الزبانية من هؤلاء الكذابين ، حين يرى المكذبون جهنم بأعينهم وقد كانوا يكذبون بها فى الدنيا ، وهم مدفوعون اليها ، ويوقنون كل اليقين أنهم داخلوها (فيوجه الزبانية اليهم هذا السؤال :

[أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون] ؟

بمعنى أنكم كنتم تصفون رسل الله الذين كانوا يخبرون فيما يخبرون عن جهنم بأنهم سحرة ، وأن ما يقولونه من كلام الله الذى يتحدث عن النار انما هو سحر ، فهل ما ترونه أمامكم الآن من النار سحر لا حقيقة له ؟ أم أنكم لا تبصرون هذه النار التى أمامكم ؟ وحيث أنهم لا يشكون فى رؤية جهنم بدليل أنهم خائفون من الاقـدام عليها والملائكة يدفعونهم بشدة ليدخلوها فلم يبق اذن الا احتمال السحر ، وهو أن تكون هذه النار التى يدفعون اليها سحرا وليست حقيقة ، ولكن كل الشواهد ، وكل ما ينطق به الواقع يؤكد أنها النار الحقيقية التى كان رسل الله يذرونهم بها ، ويخوفونهم منها بكل أساليب التحذير .

واذن فتخييرهم بين أن يحددوا أهى سحر أم عدم ابصار ليس أسلوب حقيقة ، وانما هو سخرية تتضمن تذكيرهم بما صدر منهم من كفر وتكذيب لرسول الله الذى أرسله اليهم فى الدنيا ، وهذا التذكير ايلام نفسى شديد لهم ، حيث سيمنتنون ندما وحسرة على أنهم لم يتبعوا داعى الايمان والعقل فى حياتهم الدنيا .

التعقيب :

وحيث لم يكن المقام مقام شك فى حقيقة النار التى يدفعون اليها من تعقيب الملائكة حينئذ كان بقولهم لهؤلاء الكذابين (اصلوها) بمعنى تحملوا عذابها ، ولو كان قول الملائكة (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) ؟ يراد به شىء من الحقيقة لكان التعقيب يدور حول الشك وطلب التجديد ، كأى يقال لهم : اجيبوا ، أو أن يجيب الملائكة نيابة عنهم بأنها نار حقيقية ولكن التعقيب كان اصلوها بمعنى أنه لا شك فى أنها النار التى كنتم بها تكذبون ، فاصطلوها .

ولكن من دقة تعبير القرآن فيما نلاحظ تعبيرين فى سياق الصورة ، أحدهما لفظ الكذابين فى قوله تعالى (فويل للمكذابين) فهناك ألفاظ وصفات هى أشد وصما لهم مثل الكافرين والمشركين ، ولكن لما كانت الصورة الساخرة وهى (افسح هذا) ؟ تتضمن كأنهم يشكون فى حقيقة النار كان

التمهيد الأنسب هو وصفهم بالتكذيب الذى صدر منهم فى الدنيا ، حيث انهم كانوا يكذبون بها .

والتعبير الآخر هو (انما تجزون ما كنتم تعملون) فهذه المشاكلة بين الجزاء والعمل دقة مثيرة للمشاعر ، وهى ليست أسلوب حقيقة ، أما الحقيقة فهى أن العمل الذى عملوه هو الكفر والتكذيب ، والجزاء هو عقاب على هذا العمل الذى عصوا به ربهم ، وكان العقاب هو عذاب جهنم ، فالجزاء ليس هو ذات العمل ، وانما هو عقاب على العمل ، ولكن أسلوب القرآن يجعل الجزاء هو العمل نفسه ، بتعبير (انما تجزون ما كنتم تعملون) من باب قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

وهذا المنهج فى الأسلوب يتضمن كأن عملهم وهو الكفر والتكذيب فى بشاعته وسوءه وهو عذاب وعقاب يشبه جهنم ، والهدف من ذلك واضح ، وهو شدة التنفير من هذا العمل ، حيث كانت الصيغة أن الجزاء هو ذات العمل بتعبير (انما تجزون ما كنتم تعملون) وحقيقة التعبير انما تعاقبون على ما كنتم تعملون ، أو انما تجازون بهذا العقاب على ما كنتم تعملون .

(٧)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

[لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ٠٠] (١٥)

اللغة :

(مهاد) مادة المهاد تدور حول اللين والرقة واليسر ، فكل استعمالاتها فى أصل اللغة تدور حول الأشياء المريحة الميسرة ، ومنها :

(المهذ) وهو فراش الصبى بالذات ، لأن أمه تختار له اللين وأوطأ ما تجد .

(المهاد) الفراش ، ويراعى فيه أيضا أن يكون مريحا ممهدا كشأن ما يعده الانسان لنفسه لينام عليه ، فلا شك أنه سيهوى لنفسه أحسن ما يستطيع من وسيلة راحة .

و (مهسد) الفراش بفتح الميم والهاء اذا بسطه ووطأه وهياه ليكون مريحا .

و (تمهيد) الأمور تسويتها واصلاحها لتكون ميسرة .

و (تمهيد) العذر بسطه وقبوله .

وهكذا فان لفظ المهاد وكل ما يشتق من مادته انما يدل فى لغة العرب على اليسر والراحة والنعمة ، والقرآن تكرر وصفه فى القرآن نفسه بأنه عربى ، وأنه بلسان عربى مبين ، ومع ذلك يصف جهنم بما فيها من نار وعذاب شديد بأنها (مهاد) فهل هذا أسلوب حقيقة ؟

(غواش) جمع غاشية ، والغاشية فى سرج الدابة كأنها غطاء له .
والغشاء : بكسر الغين الغطاء وكذلك الغشاء بكسر الغين هى الغطاء ،
ومنه غشاوة البصر أى ذهابه كأنه وضع عليه غطاء .

وهكذا تدور هذه المادة حول الغطاء .

وإذن فالدلالة العربية لهذين اللفظين أن للكافرين فى جهنم فراشا
ناعما يريحهم وغطاء يقيهم البرد .

السياق :

وسياق الحديث هو عن الكافرين ، وعن عقابهم فى الآخرة ، ولكن أسلوب القرآن يحدد صفتين من صفات الكفر لهؤلاء الذين يرسم لهم هذه الصورة الساخرة ، وهاتان الصفتان هما فى قوله تعالى :

[ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح

لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج

الجمل فى سم الخياط وكذلك تجزى المجرمين ،

لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك

تجزى الظالمين] (١٦)

ولوج الجمل دخوله ، وسم الخياط ، ثقب الابرة الذى يدخل منه الخيط ليخاط به ، بمعنى تعليق دخولهم الجنة على مستحيل وهو دخول الجمل بضخامته فى ثقب الابرة على ضيقه .

وأما الصفتان فهما التكذيب والكبرياء (كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) فالكفر أنواع وأساليب ، وكفر هؤلاء كان بتكذيبهم بالله وآياته ثم استكبارهم عن الرضوخ للحق بعد وضوحه ، ومعنى ذلك أنهم ليسوا من

الأتباع ، ولا من عامة الناس ، وإنما هم من السادة ، ومن الذين يملكون أن يحددوا سلوكهم ومواقفهم من تلقاء أنفسهم دون الرضوخ لأحد في المجتمع ، وهذا ما يستفاد من وصف الكبرياء ، لأن الأتباع وعامة الناس لا يوصفون بهذا .

وهذه الملحوظة أثر من آثار دقة أسلوب القرآن ، فان وصف الكبرياء تمهيدا للصورة الساخرة ، حيث ان السخرية ستصف فراشا وثيرا ناعما يعد لهم في جهنم ، والذين ينامون على فرش وثيرة لا يكونون في العادة من الأتباع ولا من عامة الناس ، وإنما يكونون من الخاصة ، ومن الطبقة المتميزة في المجتمع .

الصورة :

[لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش]

حينما يسمع العربي هذا التعبير لأول وهلة فانه لا يشك في أن هذا النشء المهيا هو فراش ناعم وثير ، قد أعد لتتوافر فيه الراحة ، والطمأنينة ، وأن هؤلاء الذين هيء لهم هذا الفراش اللين الوثير قد أعد لهم أيضا غطاء يتغطون به ، ومعنى ذلك أن المناخ المحيط بهذا الفراش بارد أو هو أقرب الى البرودة حيث يحتاج النائم فيه الى غطاء يتقى به البرد .

ولكن عقل السامع يعود سريعا الى الملابس فيدرك أن الحديث عن عذاب جهنم ، وعن قوم كافرين بالله ، فلا يعقل أن يعد لهم فراش وثير ولا شيء مريح ، ولا يعقل أن يكون في جهنم شيء من هذا أو قريب من هذا .

ومهما تبلغ سرعة تداعى الخواطر والأفكار في ذهن السامع فلا شك أنه سيدرك المقصود بهذا كله ليس الحقيقة ، وإنما هي السخرية والتهمك بهؤلاء الكافرين ، وإثارة الحسرة والندم في نفوسهم ، حيث تفتح لهم الصورة الساخرة بريقا من أمل خاطف زائل ، هو تصور فراش وثير ، ومناخ بارد يتقى بالغطاء ، ثم نوم عميق تحت هذا الغطاء ، فانه من المألوف أن يكون النوم في فراش دافئ من حوله برودة يكون أعمق من النوم المباشر للحر أو البرد ، ولكن هذا الأمل الخاطف سرعان ما يتبدد في صورة الواقع الذي يتلظى بنار جهنم وعذابها ، ان يدركون أن هذا الفراش ليس ان ناراً ، وأن الغطاء أيضا ليس الا ناراً ، وأن هذا الأمل الخاطف الذي عرض لهم انما هو نوع من العذاب النفسى الذى يتمثل فى شعورهم

بالتسخرية منهم ، وفى الحسرة والندم على أنهم كان يمكن أن يتمتعوا فعلا بهذا الأمل لو أنهم لم يكذبوا بآيات الله ولم يستكبروا عنها .

وفى كل حال تبرز الصورة الساخرة ، صورة قوم يجرون جرا عنيفا مهينا الى نار جهنم ، والنار ماثلة بكل أهوالها أمامهم ، ولكن يقال لهم تعالوا الى هذا الفراش الناعم الوثير ، وهذا الغطاء الدافئ الذى يهيب لك فى هذا المكان نوما عميقا ، مع أن هذا المكان ليس الا جهنم .

والهدف من هذا التصوير واضح ، وهو اثارة عقول السامعين للتفكير والتدبر فى حياتهم الدنيا ، قبل أن تفوت عليهم الفرصة بالموت ، وهو ليس تفكيراً مجرداً ، وانما هو صورة مجسدة مما ينتظر المكذب الكافر فى الآخرة ، صورة لا يحتاج ادراك دلالتها الى نكاء أو عمق تفكير .

(٨)

ومن الصور الساخرة فى القرآن :

[ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب
له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ،
واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم
كافرين] (١٧)

والتسخرية تتمثل فى مشهدين ، أحدهما فى الدنيا ، وقد كان بأسلوب
النفى ، وهو :

[يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم
القيامة]

حيث ان الاستجابة منفية ، والآخر من مشاهد القيامة ، وهو :

[واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء]

السياق :

وسياق الصورة حوار ضمنى يدور حول عقيدة الشرك ، وعبادة آلهة
غير الله ، وهؤلاء الآلهة بالقياس الى المخاطبين هى الأصنام التى كان
يعبدها مشركو مكة الذين يخاطبهم القرآن مباشرة ، ويطلب من النبى
صلى الله عليه وسلم أن يحاورهم حواراً عقلياً قريب المنطق رغم عمق

دلالاته ، وهذا الحوار عن عبادتهم الأصنام ، حيث يطلب منهم فى صورة سؤال أن يستخدموا عقولهم وبصيرة كل منهم (أرايتم) ؟ وذلك للتفكير أيضا فى سؤال آخر هو :

[ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات] ؟

وقد سبق الحديث عن أن هذه الصيغة انما هى سخرية من عقولهم ، لأن ظاهر السؤال هو الاستفسار عن نوع ما خلقته الأصنام ، وكأنها خلقت من الأرض شيئا يراد منهم أن يبينوه ، ويحددوا نوعه ، مع أن الحقيقة أنهم لم يخلقوا شيئا قط ، فكان المتوقع أن يكون السؤال نحو هل خلقوا من الأرض شيئا ، ولكنه صيغ بأسلوب السخرية والتهكم ، ثم يقول لهم بأسلوب الحقيقة :

[أفترئى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان

كنتم صادقين]

فليست لهم حجة قط من كتاب سماوى صحيح ، ولا من علم قويم تؤيد ما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله .

وإذن فكل عقل سليم يرفض ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، وقد كان القرآن حريصا على اثبات هذه الحقيقة وتوضيحها قبل أن ينتقل الى أسلوب التهكم بهم .

الصورة :

والصورة الساخرة فى المشهد الأول . .

[. . . يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى

يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون]

فإن ظاهر الكلام يتضمن تخيل المشرك الذى يعبد صنما وقد ظل عاكفا على عبادة هذا الصنم ليس ساعة أو يوما أو وقتا مألوفاً فى العبادة، بل وليس طوال حياته ، وإنما يظل عاكفا عليه الى يوم القيامة ، يدعوه ويلج فى الدعاء منتظرا اجابته ، ولكنه لا يجد جوابا .

ويوم القيامة غير معروف الموعد ، ولكنه فى المتوقع لدى الناس لن يكون فى الجيل الحى ، ولا فى أجيال قريبة منه ، وحياة المرء مهما طاللت فهى محصورة فى جيله ، وان تداخلت مع جيل لاحق ، أما أن يستمر انسان عدة أجيال ، أو الى يوم القيامة ، فهذا من باب المستحيل فى المألوف

طائفة من الذين لا يؤمنون بالآخرة

ومعنى ذلك أن تصوير عبادة المشرك لصنمه ودعائه اياه الى يوم القيامة صورة لا يراد بها الحقيقة ، وانما يراد بها السخرية .

وجوهر السخرية فى الصورة أن نتمثل هذا المشرك وقد ظل الى يوم القيامة يدعو الهه ملحا فى الدعاء ، منتظرا اجابة ، فلا يجد ، لأن الحقيقة أن عدم الاجابة ليس متعلقا بالزمن ، وانما بالآلهة أنفسهم ، بمعنى أن الاجابة وعدمها ليست مرتبطة بطول زمن الدعاء أو قصره ، وانما هى مرتبطة بعجز الآلهة التى يعبدونها أصلا عن أية اجابة ، فمهما طال زمن الدعاء أو قصر فلن يجدوا منهم اجابة ، وقد كان أسلوب الحقيقة نحو ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستطيع الاجابة ولا يملكها ، ولكن الهدف ليس أسلوب الحقيقة ، لأنه قد فرغ منه فى السياق فى الآية السابقة ، ووضح فى العقول السليمة بطلان عبادتهم لها ، فتأتى بعد ذلك السخرية منهم .

وأما الصورة الساخرة فى المشهد الثانى فهى :

[واذا هشى الناس كانوا لهم أعداء]

فانها صورة ساخرة لا تتراد حقيقتها ، فليس فى الآخرة نفع ولا ضرر اطلاقا لصداقة الأصدقاء أو عداوة الأعداء حينئذ ، اللهم الا اذا أريد بمتعة الصداقة زيادة الثواب ، وبحقق العداوة زيادة العقاب ، ولكن ذلك كله لن يكون نابعا من الآخرة ، وانما من الدنيا ، بمعنى أن هذه الزيادة فى الثواب أو العقاب لا تنشأ فى الآخرة ، وانما هى امتداد لعلاقات الدنيا ، فأصدقاء الخير فى الدنيا تتحول صداقتهم فى الآخرة الى متعة ولذة ، وبالعكس الأعداء فى الشر ، أى الذين يكون موقفهما جميعا على شر .

والآلهة التى يعبدها المشركون لم تكن فى الدنيا عدوا للمشركين ، بل كان يفترض فيها أن تكون وليا حميما لهم لو كانت تعقل ، ولكن الذين كان يخاطبهم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعبدون أصناما لا تعقل ولا تعى شيئا ، ولا تتصور منها عداوة أو صداقة ، أو خير أو شر ، ولكن القرآن يسخر منها بوصفين ، أحدهما وصفها بالغفلة فى الدنيا :

[وهم عن دعائهم غافلون]

والغفلة وصف عيب ، وحين يوصف انسان بالغفلة أو بأنه مغفل فإنه ازدرأ به وبموقفه الذى وصف فيه بأنه غافل ، والآلهة لا توصف بالغفلة ، لأن الغفلة فى حقيقتها نقص فى الإدراك والوعى ، والآلهة فاقدة

للإدراك والوعى أصلا ، فلا ينطبق عليها وصف الغفلة ، ووصفها في القرآن بالغفلة إنما هو من باب السخرية ، تشبها بالغافل .

والصفة الثانية سخرية أيضا ، حيث تتضمن تناقضا عجيبا بين حال الآلهة الذين ظلوا في الدنيا الى يوم القيامة غافلين صامتين عن دعاء الذين يدعونهم ، ثم اذا هم يوم القيامة يتحركون وينفعلون فيصعبون أعداء لعداء لعابديهم ، يجحدون ألوهية أنفسهم ، وينكرون عبادة عابديهم ، شالطرافة والمجيب في هذا التناقض والتحول في حال الآلهة ، وهذه الطرافة وهذا العجب هما موضع السخرية .

والعبرة من هذا التصوير واضحة ، وهي ايقاظ عقول المشركين ، ليدركوا أنهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع في الدنيا ، وما هو مصدر للعقاب الشديد والعذاب الأليم في الآخرة .

(٩)

ومن مشاهد السخرية بالمشركين في الآخرة قوله تعالى :

[٠٠٠ ونسوق المجرمين الى جهنم وردا] (١٨)

اللغة :

السوق : بفتح السين المشددة هو سوق الماشية ، وهو تحريكها ودفعها .

والورد : بكسر الواو وسكون الراء من أبرز معانيه عند العرب استخدامه في ورود الماء للماشية والقوافل ، وان كان أصل معناه الحضور ، ولكن لندرة الماء في البيئة أصبح الوصول اليه ذا أهمية ، وجعلت له ما يشبه الاصطلاحات اللغوية ، فاذا قيل لشخص مثلا أورد ابلك فانه يفهم بداهة التصريح له بأن يسوق ابله الى الماء لتشرب .

السياق :

وسياق هذه الصورة موازنة بين المعاملة التي يلقاها المؤمنون والتي

يلقاها المجرمون فى الآخرة ، فأما معاملة المؤمنين المتقين فهى تكريم وتقدير ، وذلك فى قوله تعالى :

[يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً] (١٩)

والوفد الجماعة القادمة ، والعرف يحدد استخدام هذا اللفظ فى القدوم على سلطة أو جهة عليا ، مثل : وفد فلان على الأمير ، أو أوفدهم الى كذا ، ومنه استخدام القرآن فى هذا التعبير (٠٠٠ الى الرحمن وفداً) بمعنى تكريم المتقين بجعلهم فى صورة جماعة وافدة الى الله ، ويترتب على هذا عرفا كان الله سبحانه يستقبلهم بترحيب وتكريم كاستقبال الوفود المألوفة فى حياة الناس ، واستقبال الترحيب والتكريم حق ، ولكن المجاز فى الاختلاف بين ذات الله وطريقة استقباله وبين غيره على الاطلاق .

وهذا التكريم الذى يستقبل به المؤمنون فى الآخرة جزء من العقاب للنفسى يومئذ للكافرين ، فانهم حين يرون هذا التكريم لآخرين وخصوصا لأناس يعرفونهم ، وكانوا يحتقرونهم ويسخرون منهم فى الدنيا حينئذ يزدادون خزيا وحسرة وألما نفسيا .

الصورة :

[ونسوق المجرمين الى جهنم وردا]

فهذا التعبير يصورهم فى صورة قطيع من الماشية يساق الى الماء ليشرب والصورة تنطق بالسخرية البالغة بهم ، فهم كانوا فى الدنيا بالقياس الى المؤمنين هم أصحاب القوة والجاه والغلبة كالشأن بين المؤمنين والكافرين فى كل العصور ، فاذا هم يجدون الوضع مقلوبا يوم القيامة ، يجدون المؤمنين وفدا مكرما معززا مدعوا ليستقبله تكريم الله ، بينما هم مسوقون سوقا كالماشية الى هوان وعذاب مقيم .

فكيف يتحول المؤمنون الضعاف الأذلة الى وفد مكرم معزز قائم على ملك الملوك ، وواحد السموات والأرض ، وقيوم الدنيا والآخرة ، بينما هم تحولوا الى قطيع من الماشية مسوق سوقا ، وليته مسوقا الى ماء أو مرعى ، وانما الى نار تتلظى ؟ هذا ما يشقى به هؤلاء المجرمون أيما شقاء . وهذه الموازنة فى الآيتين المقترنتين

[يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً ، ونسوق

المجرمين الى جهنم وردا]

ومن الصور الساخرة فى مشاهد الآخرة فى القرآن :
 [وقال الذين كفروا ربنا أرفأ الذين أضلانا من
 الجن والأفس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من
 الأسفلين] (٢٠)

السياق :

وسياق هذه الصورة يبرز آفاقاً أوسع من نطاق الصورة ، ويوضح
 أيضاً الأسباب والملايسات التى ترتكز عليها الصورة .
 وذلك أن من أكبر المشاكل والعقبات التى تعترض الأديان السماوية
 فى كل العصور ليس معارضة المعارضين ، أو انكار المنكرين فحسب ،
 وإنما العقبة الكبرى هى وجود قيادات اجتماعية ضالة ، ترى فى الدين
 تهديداً لمنافعها ، وسلباً لجدها وسيادتها ، فتنصدى لحرب الدين
 والمؤمنين به .

ومما يؤسف له صدق العبارة الماثورة (الناس على دين ملوكهم)
 فإن العاجمة دائماً يلهثون وراء القادة ، وينقادون لهم دون وعى أو تفكير ،
 وختى إن وضح لهم الحق فإن انقيادهم سواء عن طواعية ، أو عن خضوع
 يكون أقوى من الرغبة فى الاتجاه الى الحق ، لأنه من المعروف فى علم
 النفس الاجتماعى أن من طبيعة الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع صغر أو
 كبير وجود قيادة فى المجتمع ، ومعنى ذلك أن انقياد الجماعة لقيادتها أمر
 طبيعى ، فوجود قيادة ومنقادين فى كل مجتمع أمر غير مصطنع ولا متكلف ،
 وإنما هى من طبيعة التكوين الاجتماعى .

وهذه القيادات هى التى تنصدى فى العادة للدين ، ولكل دعوة
 أصلاح ، لأنها ترى فى هذا تهديداً أو سلباً لمزاياها .

والقرآن يكرر كثيراً لفت الأنظار الى خطورة هذا ، ويكرر تنبيه
 الأتباع وتحذيرهم من انقيادهم دون فكر أو وعى وراء هذه القيادات ، ومن
 ذلك هذه الصورة وملابسائها .

فأما ملابسات الصورة فإن القرآن يوضح فيها فى سياق الحديث عن الكافرين أن الله سبحانه هياً وقدر لهم أشخا صا يعملون على اضلالهم واغوائهم حتى يحددوا عن طريق الله ، ومن اضلالهم واغوائهم اياهم أن يصرفوهم عن تدبر القرآن ووعيه ، لأنه كان أسرع وأعظم وسيلة لنشر الاسلام ، وتعميق الايمان ، فبيدزل هؤلاء المضللون كل وسيلة يحاولون بها تشويه القرآن ليصرفوا العامة عن الاستماع اليه ، والتعبير عن ذلك فى قوله تعالى :

[وقيضنا لهم قرناء فزيئوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون] (٢١)

وقيضنا لهم بمعنى قدرنا وهيانا لهم ، وقرناء بمعنى أصحاب والكافرون الذين يأمرؤن بعدم سماع القرآن من الواضح أنهم أصحاب جاه ونفوذ حتى يأمرؤا فيطاعوا ، وهى اشارة الى السادة فى المجتمع :

[وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ٠٠٠]

وإذن فالآيات تحدد مصدرين للغواية والاضلال ، وهما الأصدقاء والسادة ، الأصدقاء من عوامل اضلال السادة ، والسادة من عوامل اضلال العامة :

١ - فأما الأصدقاء فأهميتهم وخطورتهم فى التأثير فى العلاقات واضحة لا تحتاج الى بسطة فى القول ، وفى الحديث الشريف :

(المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)

ومعظم التغيير فى سلوك الأفراد سواء الى الحسن أو الى السيء انما يأتى من الأصدقاء والخلان ، ولذلك يعتمد أصحاب الدعوات الدينية ودعوات الاصلاح على العلاقات الشخصية ، ويوصون أتباعهم بالإعتماد

* علاقة تربية - ١٨٢ - ١٩٦٦

* بعض هذه الترميمات فى ١٩٦٦ - ١٩٦٧

٠ سورة فصلت - ٢٥ - ٢٨

عليها في كسب الأصحاب والأتباع ونشر المبادئ ، والأسلوب نفسه يتبعه الذين يريدون نشر الفساد سواء في المذهب أو السلوك ، والقرآن يوضح هذه الحقيقة منبها اليها في العديد من مواضعه ، بل ينبه الى جنس آخر من الأصدقاء وغالبا ما يكون من أصدقاء الشر والسيء ، وهو جنس الشياطين ، شياطين الجن ، ومن ذلك قوله تعالى :

[ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطانا
فهو له قرين] (٢٢)

والقرين الصاحب ، وبئست هذه الصحبة كما يعبر القرآن :

[ومن يكن الشيطان له قرينا نساء قرينا] (٢٣)

وصحبة الشياطين والجن بعامة ليست غريبة على أسماع الناس وان لم يملكوا عليها دليلا ماديا ، ومن ذلك ما كان يعرف عند العرب بأن لكل شاعر صاحبا من الجن يلهمه الشعر ويمليه عليه ، كما يقول شاعرهم :

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

يعنى أن شعر الشعراء الآخرين ضعيف لأن شياطينهم اناث ، أما شعره هو فقوى لأن شيطانه ذكر ، ولكن في كل حال لكل شاعر شيطان يصاحبه في شعره .

وأما شياطين الانس الذين يزينون لأصدقائهم وقرنائهم كل شر وسوء فان القرآن يتحدث عنهم كثيرا بأساليب مختلفة ، ومنها هذه الصورة عن أحد المؤمنين ، حين يتسامر في الجنة مع أصدقاء الايمان ، فيتذكر صديقا شريرا كان يزين له الكفر حتى كاد يغويه ، وفي القرآن عن هذه الصورة :

[فأقبل بعضهم على بعض يتساعلون ، قال قائل
منهم أنى كان لى قرين ، يقول أدلك أن المصددين ،
أنذا مدنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمدينون ، قال هل
أنتم مظلعون فاطلع فراه في سواء الجحيم • قال
قاله ان كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من
هن المحضرين ، أفما نحن بميتين ، الا موتتنا الأولى
وما نحن بمعذبين] (٢٤) •

• (٢٢) سورة الزخرف ٣٦

• (٢٣) سورة النساء ٢٨

• (٢٤) ٥٠ - ٥٩ سورة الصافات

وفى حديث المؤمن الى قرينه الكافر سخرية واضحة ، حيث يذكره بما كان يعتقد ويحاول أن يغرى أصدقائه باعتقاده ، وهو أنه لا توجد الا موتة واحدة لا حياة بعدها ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت ، وحيث انه يبعث فعلا بعد الموت ، وهو الآن فى العذاب الذى كان ينكر وجوده ، فان قرينه المؤمن يسخر منه قائلا :

[أفما نحن بميتين ، الا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين] ؟

ووجه السخرية أن السؤال غير حقيقى ، لأنه لا يقصد السؤال عن مدى صدق حديث البعث والعذاب ، فانهما يكونان قد وقعا حينئذ فعلا ، وانما يقصد السخرية من عقيدة قرينه الذى أوشك أن يخدعه وأن يشركه فى ضلاله ، كما يقول له :

[٠٠٠ قاله أن كدت لتردين]

أى كدت تهلكنى .

وتسلسل الاضلال فى سياق الصورة الساخرة التى نحن معها يشير الى جانبين ، جانب اضلال السادة ، ومصدره القرناء ، والذى يشير الى أن المراد بهم السادة أنهم بعد ذلك سيخاطبون غيرهم بلهجة الأمر طالبين منهم عدم الاستماع الى القرآن ، والأمر لا يصدر عادة الا من الأعلى ، والجانب الثانى هو اضلال العامة ، ومصدره السادة وهم هؤلاء الذين يصدرون أوامرهم بعدم الاستماع الى القرآن ، وذلك فى قوله تعالى :

[وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم
وما خلفهم وحق عليهم الغول فى أمم قد خلت من
قبلهم من الجن والانس أنهم كانوا خاسرين ، وقال
الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وانغوا فيه
لعلكم تغلبون] (٢٥)

والاشارة فى تعبير (لا تسمعوا لهذا القرآن) تتضمن تهوينا وتحقيرا من هؤلاء الكافرين للقرآن ، وهذا يقوى ترجيح كون المراد بهم السادة لأنهم الذين يتعالون ويتكبرون .
الصورة :

[وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من
الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من
الأسفلين] (٢٦)

(٢٥) ٢٦ سورة فصلت

(٢٦) ٢٧ سورة فصلت .

والسخرية فى الصورة من وجوه :

١ - أصبح هؤلاء الكافرون مؤمنين بالله ، ولذلك لجأوا اليه داعين يقولون (رينا ٠٠٠) واعترفوا بضلالتهم بعدما كانوا عليه فى الدنيا من الكفر .

٢ - ما طلبوه ليكون عقابا للذين أضلوهم فى حقيقته ليس عقابا بالقياس الى ما فيه هؤلاء الذين أضلوهم لأنهم بطبيعة الحال غارقون فى ألوان العذاب البدنى والنفسى فى جهنم فالإتيان بهم وجعلهم تحت الأقدام لن يزيدهم عذابا جسيما أو نفسيا وإنما هى السخرية بهم وبالذين أضلوهم ، لتصورهم وهم أذلاء تحت الأقدام ، والكافرون يتشفرون فيهم بمحاولة سحقهم بأقدامهم ، رغم أن هذا لن يتحقق ، لأن الله لن يستجيب لدعاء من الكافرين يومئذ اطلاقا .

٣ - ومن وجوه السخرية أيضا تصوير شيء من حال هؤلاء الكافرين من السادة فى الدنيا وقد تصوروا أنهم ما زالوا سادة يستطيعون أن يطأوا أحدا بأقدامهم ، وأنهم ما زالوا فى الوضع الأعلى ، وأنهم يملكون أن يجعلوا غيرهم أسفل منهم كما يقولون :

[٠٠٠ نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين]

فالمصورة لا يراد بها بيان عذاب ، أو زيادة إيلاء ، وإنما يبدو فيها ندم الكافرين على أنهم اتبعوا الذين أضلوهم من الانس والجن فاستجابوا لأغوائهم ، وهم لا يملكون أن يعذبهم ، لأن العذاب حينئذ بيد الله وحده ، ولكنهم يتصورون أنهم يملكون ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من اذلال من يريدون اذلاله ، ومنه هذه الصورة ، صورة أن يبطش الى الأرض بمن يريد البطش به ، ثم يطأه بقدمه ، متشفيا فيه ، ومتعاليا عليه ، ومذلالا له ، ومن اليقين أن شيئا من هذا لن يحدث ، فلا الله مستجيب لهم ، ولا هم يستطيعون ذلك يومئذ ، ولكنه أسلوب السخرية .

والعبرة فى الصورة واضحة ، وهى تنبيه الذين يتأثرون باغواء غيرهم ومحاولة اذلاله إياهم ، وتذكيرهم بأنهم سيندمون يوم القيامة على انقيادهم لأحد فى الضلال ، ولكن لن ينفعهم ندم .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
١١	سلاح السخرية
١٧	أهداف السخرية
٢٧	مجالات السخرية
٣١	سخرية أعداء الله
٥٧	سخرية القرآن
٧٣	سخرية القرآن والعقيدة
٩١	سخرية القرآن والنفاق
١٠٩	سخرية القرآن والشرك
١٥١	سخرية القرآن والسادة
١٧٧	سخرية القرآن وأعداء النبي
١٩٧	سخرية التصوير المنفى
٢١٣	سخرية القرآن ومشاهد العقاب

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٤	المشهور	المشهور بمثل قوله
٩	١	والعادات	والعادات
١٤	٧	المؤمنين	المؤمنون
١٨	١٨	وتجد نفسك	وتجد في نفسك
١٩	٢٤	نفسها من	نفسها نوع من
٢٢	٣١	اذاته	لذاته
٢٢	٣٥	أعداء	أعداءه
٢٤	٣	سواف	سواء
٢٤	٢٢	ذلك القرآن	ذلك في القرآن
٢٥	١٢	هو	هي
٢٥	٢٢	الله ما	الله وما
٢٦	١٥	صورة	صوره
٢٩	١٦	الرئيسي	الرئيس
٤١	١	زاء	ازاء
٥٢	١٦	يعرض	ويعرض
٥٩	٢٧	يؤمنوا	تؤمنوا
٦٢	٤	الا كان	الا اذا كان
٦٢	٢٨	فصاغوه	فصاغوه
٦٦	١٧	ويجتذبه به	ويجتذبه
٦٦	٢٧	وايجازة	وايجازه
٦٧	٤	شئلت	سئلت
٦٩	٨	التعاض	التعارض
٧٢	٢٢	أو تأكيدا	أو كيدا
٨٠	٢٢	حبت	خبت
٨١	٥	والصم	والصم
٨٢	٢٠	وبدلا أن	وبدلا من أن
٨٥	١١	ولكنهم بدل	ولكنهم بدلا
٨٦	٣	في هذه الخصومة من لا تستطيع	في هذه الخصومة ، ولكن الخصومة بالقياس الى الله ليست متصورة على حقيقتها، وحين يمثل سبحانه موقفه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٦	٤	من لا تستطيع . . .	هذا السطر يحذف كله
		الخ	
٨٦	٢٦	من الطين	من البدء
٨٩	٧	يراه	يراها
٩٥	٢٧	الملوح	الملموح
١٠٠	٢٣	الى اكتشاف	الى أن اكتشاف
١١٤	٢٠	الاله	الألد
١٢٧	١٨	ونسبة	ونسبته
١٢٨	٨	كالرومانى	كالرمانى
١٢٣	٨	السابقة	السابقتين
١٢٣	١٩	وخصوصا	خصوصا
١٢٤	٧	المنبعث	المرتد
١٣٦	١٤	الكافرون	الكافرون
١٣٩	٢٣	خائنين	خائنين
١٤٠	٣	صيصة والصيصة	صيضية والصيضية
١٤٠	٧ ، ٦	صيصة	صيضية
١٤٣	١٣	مغفل	مغفل
١٤٧	٦	ملوك	سلوك
١٥٢	٢٩	أمام الدين	أمام انتشار الدين
١٥٢	٢٩	سلطة	بسطة
١٥٢	٣١	يكون	يكونون
١٥٤	٢	الطرافة	الطرافة
١٥٩	٢٦	عقاب	عقابه
١٦٠	٧	بآيات	بآيات الله
١٦٢	١	الناس	للناس
١٦٢	٣	ومفردة	ومفردة
١٦٦	٢٠	التعبير	تعبير
١٦٧	٨	الله	الله
١٦٧	١٩	أحد	أحدا
١٧٠	٢	وخافوا	يخافوا
١٧٠	١٨	يصدر	تصدر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٩	٦	الصورة	الصور
١٨٢	٣	فى الذهن حيوان	فى الذهن صورة حيوان
١٨٢	٢٠	خطر	خطرا
١٨٤	١٠	فيتعمدون	فيتعمدون
١٨٧	٢٢	ينحو	ينحوا
١٩١	الأخير	كالرش	كالرسن
١٩٤	١٥	بأنها لم	بأنها ان لم
١٩٤	٢٣	الحقيقى لا جموحها	الحقيقى لا تختلف عن اية داية تحمل الحطب ، وفى جيدها جبل مفتول فتلا قويا ليكبح جموحها • الموضوعية عليهم ولا على غيرهم ومقاماتهم الطريف ولكن الانلال درجات وهو مفرده ينتظرون توسعه ينساقوا يضيع فان التحديد هو الغشاوة سيدرك أن المقصود ازراء تشبيها يعذبوهم ومذ لا اياه
١٩٧	١٢	الموضوعة	
١٩٩	٢٤	عليها ولا على غيرهما	
٢٠١	٦	ومقامات	
٢٠٦	١٩	الطريق	
٢١٤	٥	ولكن درجات	
٢١٤	١٩	وهى	
٢١٦	٧	مفرده	
٢١٩	١٧	ينظرون	
٢٢١	٢٤	توسعة	
٢٢٢	٣	ينساقون	
٢٢٤	١٠	يضع	
٢٢٧	٢٢	دن	
٢٢٧	٢٤	التجديد	
٢٢٨	١١	وهو	
٢٢٩	٨	الغشاء	
٢٣٠	٢٢	سيدرك المقصود	
٢٣٣	٢٨	ازدراء	
٢٣٤	٢	تشبيها	
٢٤٠	١٩	يعذبهم	
٢٤٠	٢٢	مذلا له	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٨٨٣/١٩٩٢

ISBN — 977 — 01 — 2965 — 8